الفلسفة في ميزان التفكُّر الإسلامي



المؤلــف

د. أنور سعيد القبالي

٢٠٢٢



جهينة

الفلسفة في ميزان

التفكُّر الإسلامي

المؤلـف

الدكتور أنور سعيد القبالي

2022

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢٢/٨/٤٤١٩)

٣٠٦،٤
القبالي، أنور سعيد عبدالرحمن
الفلسفة في ميزان التفكر الإسلامي : / أنور سعيد عبدالرحمن -
عمان: المؤلف ٢٠٢٢
(   ) ص.
ر.أ.: ٢٠٢٢/٨/٤٤١٩
الواصفات: /الفلسفة الإسلامية//الفكر الإسلامي// النفس البشرية//
العلوم الإسلامية/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف
عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الحمد للهِ، والصَّلاة والسَّلام على رسولِ الله.

أمَّا بعدُ؛ إنَّ هذا الكِتاب يُعتَبرُ ثورة حقيقية فِي عِلم الفلسفة الحديث، فقَد استطاع الكاتبُ الدّكتور أنور القبالي الغوصَ فِي أعماق الْإِنْسَانِ، متجاوزًا الجزءَ المادِيَّ منه، ليصلَ إِلَى النّفسِ الْبَشَرِيّةِ، ويضعَها تحت مجهر التَّفَكُّر الْإِسْلَامِيّ؛ ليكشف للقارِئِ حواسَّها، وأعضاءَها، وأجهزتَها المسؤولة عن عمليّة البناء المعرفِيِّ لدى الْإِنْسَانِ، مبيِّنًا أجزاء الْقَلْب النَّفْسِيّ، المتمثِّلة باللبِّ والهوى، والدور المحوريّ للقلبِ النَّفْسِيّ فِي عمليتيِّ السمع والإبصارِ، واتخاذ القرارات النهائية من خلال حريَّةِ الاختيار المتمثِّلةِ بالإرادة الْإِنْسَانيَّة.

واستطاع بدقَّةٍ متناهيةٍ، وبأسلوبٍ فَلْسَفِيّ مميزٍ تحديدَ الفروق الجوهريَّة، ما بين الْوَعْي والإدراك والفهم والتَّفْكِير، وتمكَّنَ من كشف الستارِ عن دور العقلِ، وماهيتهِ، ومكان وجودِه فِي الْإِنْسَان.

ولم يكتف بذلكَ، بل تمكَّن من الوصولِ بالبراهين الْعَقْلِيّةِ، وبتسلسلٍ منطقيٍّ مدهشٍ إِلَى دور الغيبِ الأساسي فِي عمليّة البناء المعرفِيِّ، والذي أوصلَه إِلَى استنتاجٍ وإثبات وجود الْخَالِق وصفاتِه عقليًّا، والتي كانت بدورها مفتاحَ الوصول إِلَى المصدرِ الغيبيِّ الصحيحِ، الذي يجيب الْإِنْسَان عن جميعِ تساؤلاتِه الفَلْسَفِيّة، عمَّا كانَ، وما هو كائنٌ، وما سيكون.

هذا الكتابُ يُثبت لك عقليًّا وفَلْسَفِيًّا أنَّك خُلقت لهدفٍ عظيمٍ، ويمدُّ لك حبلًا للخروج من بئر الظلمات الفَلْسَفِيّة الماديَّة والوجوديَّة والعدميَّة والعبثيَّة، إِلَى نور التَّفَكُّر الْإِسْلَامِيّ، من خلال تدبُّر آيات الكتابِ الأعظم على وجهِ الأرضِ؛ وهُو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: 21].

قال الله سُبْحانهُ و تعالى :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) ﴾

[المؤمنون]

* * *

«يَستحيلُ أن يكونَ الكفرُ بالخالقِ قرارًا مبنيًّا على أُسسٍ عَقليَّة! إنَّما هو قرارٌ اتُّخِذَ للهروبِ مِنَ الالتزامِ والمَسؤولية.

فلتَشقَ أيُّها البائِسُ في نَعيمِ متاهاتِ الفلسفاتِ العبثيَّة والعدميَّة، واعلم أنَّ الشُّجاعَ الفَطِنَ هو من يَعترِفُ بالحقيقةِ الأعظم في هذا الوجودِ، حقيقةُ أنَّه مَخلوقٌ مُكلَّفٌ».

عجبًـا لذلِـك الشَّـخصِ، الـذي تُـوفِيَّ والـدُه قبـل أشـهرٍ قليلـةٍ مـن ولادتِـه، ولم تُسـعِف دقائِـق العُمـر المعـدُودة والدتَـه لرؤيتِـه بعـد الـولادة، وحينـما بـدأَت براعِـمُ إدراكِـه بالظُّـهور؛ بـدأ بِطـرحِ التَّسـاؤلات، مـن والـدَيَّ؟ أيـنَ هُـم؟ أيـن ذهبـوا؟

وعندمَا أجابوهُ:

- ليسَ لك والدان.

استشاطَ غَضبًا، وقالَ:

- كفاكُم كذِبًا، فلتُخبِروني كيف وُجِدتُ في هذه الدنيا إذَن؟

- لقد جِئتَ تلقائيًّا بمحضِ الصُدفة.

- مـاذا تقولـونَ؟ هـذا الجنـونُ بعينـهِ! أنتـم متخلِّفـون كاذبـونَ دجَّالـونَ، لا تريـدونَ بقولِكُـم هـذا إلا إخفـاءَ الحقيقـة عنِّـي!

ويعيـش في عَتمـة الزِّحـام، يَبحـثُ عـن الحقيقـةِ التـي لا شـكَّ فيهـا، أن لـه والدَيـن، وأنَّ وجـودَه عـلى وجـه الأرضِ يسـتحيلُ أن يكـونَ بِمحـض الصُّدفـة.

وهــو نفسُــه مــن يتسَــاءَلُ في اللحظـةِ ذَاتِهـا عمَّـن خلقَـهُ، وخلَـق والدَيـه، ووالــدَي والديــهِ، وأجدادَهــم، وأجــدادَ أجدادِهــم، والأرضَ التــي تحــت أقدامهـم، والسـماءَ التـي تعلـو رُؤوسَـهم، ومـا بينهـما، فَيُخـبروه انَّ كلَّ هـذا جـاء بِمحـض الصُّدفـةِ، ولا خالـقَ لـهُ! فَيُصـدِّق ذلـكَ! ويُكمِـل حياتـهُ باحثًـا عــن والديــه!

وعجبًـا لآخَـرَ! يُولَـدُ في كَنـفِ والديـهِ، يَنعـمُ برعايتِهـما وعطفِهـما سَـعيدًا في بيتِهـما، يَحـترِمُ القواعـدَ، ويُنفِّـذُ الأوامـرَ، ويقـومُ بواجباتِـه عـلى أكمـل وجـهٍ، فَهُـما والـداهُ، ولا يجـوزُ الاعـتراضُ عـلى مـا يرونَـه مناسِـبًا لـهُ، لكنّـهُ في الوَقـتِ نفسِـهِ يَعـترِض عـلى قوانـينِ خالِقـهِ وتشريعاتِـه.

الفهرس

الإهــداء

مِنـكَ وإليـك يـا ربَّ الأربـاب، مُسـبّبَ الأسـبابِ، منـزلَ الكتـابِ، خالـقَ السَّـمواتِ والأرضِ وما بينهـما الحليـم الأَوَّاب، خالِـق آدَم مـن تـراب، وجاعِـل نَسـله مـن بـين الصّلـبِ والأَتـرَاب، يـا مَـن بعـثَ رسـلَه بالهُـدى وديـنِ الحـقِّ مُنذريـن بيـومِ الحسـابِ.

يـا مَـن خلـق الشَّـمسَ والقمـر، كلٌّ في فلـكٍ يسبَحون، وخلـقَ الأَزواج كلَّها وفجَّـر العيـون، يـا مقـدِّر الأَقـدار، مغـشي الليـل النَّهَـار، مُـرسي الجبـال، ومُجـرِي الأَنهـار، يـا مَـن جعـلَ مِـن الماء كلَّ شيءٍ حيًّـا، وأنـزلَ الكتـابَ بالحـقّ، ليُبـيِّن الرشـدَ مـن الغـيِّ.

يـا مَـن أمـرُه بـين الـكافِ والنـونِ، وإذا أرادَ شـيئًا فإنَّمـا يقـولُ لـه كُـن فيكُـون، الحمـدُ للـه الواحـدِ الأحـد، الفـردِ الصَّمَـد، الـذي لم يَلـد ولم يُولـد، ولم يكُـن لـه كفُـوًا أحـد، أرسـلَ رسـولَه بالهُـدى وديـن الحـقِّ، ليظهـرَهُ عـلى الدِّيـن كلـهِ، ولـو كـرهَ الكافـرون.

الحمـد للـه الـذي علَّـم بالقلـمِ، علَّـم الْإِنْسَـانَ مـا لم يعلَـم، اللهـمَّ تقبَّـل هـذا العمـلَ خالصًـا لوجهـك الكريـم، وانفـعْ بـه مَـن هـم في الأرض مـن عبـادك المستَخلَفين، اللهـم مـا أَصبـتُ بـه فهُـو مـن فضلِـك وكرمـكَ، وخزائـنِ علمِـك التـي لا تنفـدُ، فلـكَ الحمـدُ عـلى مـا أَنعمـتَ بـه عـلى عبـدِك الفقـيرِ، المحـبِّ لـكَ، ولكتابِـك العظيـمِ، ورسـولِك الكريـمِ.

ومـا لَـم أُصِـب بـهِ فمِـن نفـسي، وأسـألُك عنـه الرَّحمـةَ والمغفـرةَ والعفـو والرِّضـا، فذلـكَ الفـوزُ العظيـم، سـبحانك لا علـمَ لنـا إلا مـا علَّمتَنـا.

* * *

اللهـم إنِّي بفضلِـكَ أعلـم، وأنـت أولَى وأعلـم أن مَوهِبـةَ الكِتابـة هـيَ مِنحَـةٌ مِنـك يـا عـالم الغيـب والشـهادة لا إلـه إلا أنـت لا شريـك لـك، فَلَـكَ الحمد عـلى نِعَمِـك، حَمْدًا يليـقُ بجـلالِ وجهِـكَ وعظيـمِ سُـلطانِك.

وبِكَرَمِـكَ أعلـمُ، وأنـت أولى وأعلَـم، يـا قيُّـومَ السَّـمواتِ والأرض، أنَّ تلـك النِعمـةَ تَحمِـلُ بـين طيَّاتِها مسـؤوليةً عظيمـةً، أَبَـتْ حَملهَـا السـماواتُ والأرضُ والجبـالُ، وأشْـفَقنَ منهـا.

فأَرجـوكَ يـا اللـه بفضلـك العظيـم -كـما أنعَمـتَ عـلى عبـدِك الفقـيرِ إليـكَ بهـذهِ النِّعمـةِ- أن تكتـب لِيَ التوفيـقَ والسَـدادَ؛ للقيـامِ بهـذه المسـؤولية بمـا يُـرضي وجهَـك الكريـم، وأن تكـونَ يـا مالِـكَ المُلـكِ عونًـا لي في حَمـلِ هـذه الأمانـةِ، وأعـوذُ بـك يـا عظيـم وبوَجهِـك الكَريـمِ مِـنْ تَقلُّـبِ القُلـوبِ، وأعـوذ بِـكَ يـا ذا الجَـلالِ والإكـرامِ مِـنَ الفِـتَنِ، مـا ظَهـرَ مِنهـا ومـا بَطَـن.

اللهُّـم أرِنـا الحـقَّ حقًّـا وارزُقنـا اتِّباعَـه، وأرِنـا الباطِـلَ باطِـلًا وارزُقنـا اجتنابَـه، رَبِّ اغْفِـرْ لِيَّ وَلِوَالِـدَيَّ، رَبِّ ارْحَمْهُـمَا كَـمَا رَبَّيَـانِيْ صَغِـيْرًا ، ربَّنـا هَـبْ لَنـا مِـنْ أزواجِنَـا وذُرِّياتِنـا قـرَّةَ أعـيُن واجْعَلنـا للمُتقـين إمَامًـا، اللهُّـم تَوفَّنـي مُسـلمًا وألحِقنـي بالصَّالِحـين، اللهُّـم اجعـل هـذا العمـلَ حُجَّـةً لِي لا حُجَّـةً عَـليَّ، اللهُّـمَ تقبَّـلْ هـذا العمـلَ خالِصًـا لوجهِـكَ الكريـم، وصَـلِّ اللهـمَّ وسَـلِّم عـلى نبيِّنـا مُحمَّـدٍ، وعـلى آلـه وأصحابِـه أجمَعِـين.

المُقدّمة

بعد أن أبحرتُ بين كتبِ الفَلْسَفَة لمدةٍ طويلةٍ؛ سواءً اليونانيَّة القديمة، أَم الغربيَّة المعاصرة، باحثًا عن فلسفةٍ متكاملةٍ، تعطي إجاباتٍ واضحةً ومنطقيَّةً ومقنعةً عن ماهية الْإِنْسَانِ ووجوده، والغاية من خلقهِ ومصيره بعد الموتِ، فلسفة تقدِّم تفسيرًا واضحًا للنَّفس الْإِنْسَانيَّة، وعلاقتها بالجسدِ، وتوضِّح عمليَّةَ البناء المعرفيِّ بالتفصيل، وتبيِّن الفروق الدَّقيقة ما بين الْوَعْي والإدراكِ والفهم والعقلِ والتَّفْكِير.

بحثتُ وبحثتُ وبحثتُ، فلم أجِد تلك الإجاباتِ الشَّافيةَ لتلك التساؤلاتِ، بل على النقيض تمامًا! فكلَّما أبحرتُ بعيدًا، واطَّلعتُ على نقضِ تلك الفلسفاتِ زادَت الأمور تعقيدًا وتشويشًا، وتعاظم حجمُ تلك التَّساؤلاتِ، وترامَت أطرافها، وزجَّت بي في بحرٍ من ظُلماتٍ من فوقه ظُلمات، ولكن ومن ناحيةٍ أخرى؛ كان هناك نورٌ بين تلك الظلماتِ يأخذ بيدي، ويعزِّز يقيني بوجود اختلال في عملية التَّفْكِير الفَلْسَفِيّ لدى فلاسفة الغربِ، ولا ينفكُّ يهمس في نفسي أن الفَلْسَفَة وجدت للتَّفسير والتَّبسيطِ، وليس للتَّعقيد والتَّضليلِ!

فدعتني الحاجةُ إِلَى أن أرسي سفينَتي على شاطِئِ التَّأمُّل والتَّفَكُّر، فتركت الكتبَ، لأبدأ رحلتي الشَّخصية في قراءة الْإِنْسَان ووجودِه، محاولًا إيجاد نظريَّة فَلْسَفِيّة متكاملةٍ، تعطي إجاباتٍ واضحةً عقليةً ومنطقيةً لكلِّ ما يخطر للإنسان من تلكَ التساؤلات.

التَّمهيد

إنَّ هـذا الكتـابَ مـا هـو إلا مقدمـةٌ فَلْسَـفِيّةٌ، حاولـتُ فيهـا جاهـدًا الاقتصـادَ في عـدد الصَّفحـاتِ، وتسـهيل المصطلحـاتِ، وضرب العديـدِ مـن الأمثلـة المبسّـطةِ، حتـى يكـونَ مستسـاغًا مـن قبـل الفلاسـفة والمفكِّريـن، وسـهل الهضـمِ لـدى العامَّـة.

ومـع أننـي كنـتُ قـد قـرَّرت عنـد البـدء بإفـراغ حـبر قلمـي عـلى صفحـاتِ هـذا الكتـابِ ألَّا أذكـر أَقـوالَ الفلاسـفةِ، وأبـدأ بدحضهـا، فقـد يأخـذ منـى ذلـك مئـات الصَّفحـاتِ، وقـد يضفـي بعـض التّعقيـد عـلى القـارئِ؛ بسـبب اللغـة الفَلْسَـفِيّة المعقـدةِ التي يسـتخدمُها أولئـك الفلاسـفةُ، فيـما قدمـوهُ مـن خـلال بحوثِهـم، مـما يجعـلُ الأمـر صعـبَ الفهـم عـلى العامَّـةِ، فيدخـل القـارئ في معضلـة مـا أُسـمِّيهِ بالسِّـجن الْفِكْـرِيّ، وسـجَّانُه هـو مقولـة: «مـا لم تسـتطع فهمـه؛ فعليـك تصديقـهُ، فمـن أَنـت لتقـوم بانتقـادِ فلاسـفةٍ عِظـامٍ!»، فتكـون النتيجـةُ قتـلَ الإبـداع الْفِكْـرِيّ الـذاتيِّ في مهـدهِ!

لكـن دعَتنـي الحاجـةُ إِلَى مُناقشَـةِ مسـألةٍ أثارت عجبـي، للفيلسـوف الألمـاني (إيمانويل كانـت)، يقـولُ (كانـت) أنَّـه لا يمكـن إثبـاتُ وجـود الْخَالِـق عقليًّـا؛ لأنَّـه لا يقـعُ ضمـن نطـاق المـكانِ والزمـانِ، أي أَنَّنـا لا نسـتطيع إدراكَـه عن طريـق الحواس.

فكيـفَ أَثبـت (كانـت) وجـودَ العقـل؟! وهـو الأداةُ التـي اسـتخدمها لإثبـات فلسـفتهِ، وهــو بالأصـل لا يقــع ضمــن حيِّــزي المــكان والزمــانِ، ولا نســتطيعُ إدراكــه عــن طريــقِ الحــواسِّ أيضًا!

ومــن ناحيــةٍ أخـرى؛ مـا الأَدَاة التـي اسـتخدمَها (كانـت) في إثبـات وجـودِ العقـل؟ إذا كانـت الإجابـةُ أَنَّ العقـل الميتافيزيقـي[1] يقـعُ خـارج نطاقـيّ الزَّمـان والمـكان، وخـارج قـدرات الإِحسـاس الماديَّـة، وعـلَى الرغـمِ مـن ذلـك يمكـن إِثبـات وجـوده مـن خـلال ملاحظةِ إبداعاتـه الْفِكْرِيّـة، فإثبـات وجـود الْخَالِـق يمكـن تحقيقُـه بالـضرورة عـن طريـق ملاحظةِ إبداعاتـه في خلقِـه!

(1) ميتافيزيقيا: علم ما وراء الطبيعة، أي العالم الغيبيّ غير المحسوس ماديًّا.

وإذا كانـت الإجابـة أَنَّـه لم يثبـت وجـود العقل؛ فهـذا يعنـي أنَّ (كانـت) وبقيَّـةَ الفلاسـفة عـلى وجـه هـذه البسـيطةِ يسـتخدمون في فلسـفتهم أداةً غـير مُثبتـةٍ في الإثبـات والنَّفـي الفَلْسَـفِيّ، وهـذا يقودنـا إِلَى أنَّ علـم الفَلْسَـفَة باطـلٌ لا أصـلَ لـهُ!

هـذه التَّسـاؤلات تأخـذُ بيدنـا إِلَى بُعـدٍ آخـر في قضيَّـة الفَلْسَـفَة، وهـيَ أن الْإِنْسَـان يحـوي بداخلـه مـا هـو أكـبر وأكـثر تعقيـدًا مـن المـادةِ، فلـو اعتبَرنـا أنَّ الجسـد هـو القالـب المـاديُّ الفيزيـائيُّ المحسـوسُ؛ فـإنَّ مـا يحويـه ذلـك القالـبُ داخلـه هـو الْقَلْـب الْوَظِيفِـيّ الميتافيزيقـي، وهنـا لا أَقصـدُ بالْقَلْـب (الْقَلْـب النابـض)، بـل النَّفـس الْبَشَرِيّـة، التـي تعَـدُّ المحـرِّكَ الرئيـسَ، والمسـيطرَ عـلى الجـزء المـاديِّ مـن تكويـن الْإِنْسَـانِ (الجسـد الْبَـشَرِيّ).

فـما هـو ذلـك القلـب؟ ومـا أهميَّتـه؟ وكيـف نسـتطيعُ إدراكَـه وفهـمَ وظائفـه؟ ومـا هـي مكوّناتـه؟ ومـا دوره في عمليَّـة البنـاء المعـرفيِّ لـدى البـشر؟

تحتَـوي النفـسُ الْبَشَرِيّـة في ذاتهـا عـلى حـواسّ وأجهـزةٍ وعمليـاتِ بنـاء معرفيـةٍ، أكـبر وأشـمل مـن حصرهـا ضمـن إطـار العقـل فقـط، فَاعتقادنـا أَنَّ العقـلَ هـو المسـؤول عـن عمليَّـة البنـاء المعـرفي بشـكل كامـلٍ؛ أشـبه مـا يكـونُ بقولنـا إنَّ عضـوًا ماديًّـا كالْقَلْـب هـو المسـؤولُ عـن ضـخِّ الـدم، والتَّنفـس، وتنقيـة الـدم، والهضـم في جسـم الْإِنْسَـان! متجاهلـين بذلـكَ عمـل الرئتـين، والكبـدِ، والجهـاز الهضميِّ، عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر!

إنَّ النفـس الْبَشَرِيّـة تحـوي في مكنوناتهـا أعضـاء وظيفيَّةً قـد تتعـدَّى أعضـاء الجسـد الْبَـشَرِيّ، ونسـتطيعُ التعـرُّف إليهـا عـن طريـق ملاحظـةِ ووصـف السُّـلوك الْوَظِيفِـيّ لتلـك الأدوات مـن خـلال التَّحليـل الواعـي للسُّـلوك الْبَـشَرِيّ، «فعـدم إدراك الـشَّيء بالحـواسّ ماديًّـا لا يعنـي عـدم وجـودِه، فمجـرد الملاحظـة الْوَظِيفِيّـةِ، والإبـداع العمـليِّ الناتـج عنـهُ؛ يُثبـت وجـوده بالـضَّرورة المسـلّمةِ، التـي لا يمكـن إنكارهـا، وهنـا لا يُعـرَّف الـشيءُ بماهيتـه الماديّـةِ، وإنمـا يُعـرَّف بالماهيَّـة الْوَظِيفِيّـة».

لذلـكَ فـإنّ الوصـولَ إِلَى الحقيقـة الكاملـة يحتـاجُ إِلَى دمـج نوعـين مـن الفَلْسَفَة؛ الفَلْسَـفَة التجريبيَّـة، التـي تختـصُّ بدراسـة العـالم المـاديِّ بجميـع علومـه ومتغيراتـهِ، والفَلْسَـفَة الْوَظِيفِيّـة التي تختصُّ بدراسـة الإبـداع الْوَظِيفِـيّ الميتافيزيقـيِّ، وهـو كل مـا نسـتطيعُ وعـيَ وملاحظـةَ أثـرِه وإبداعاتِـه، علَـى الرّغـمِ مِـن عجزِنـا عـن تحديـد

ماهيَّتــه المادیَّــة الفیزیائیَّــة.

ویندرج تحت هـذا النَّـوع مـن الفَلْسَـفَةِ أَدواتُ البنـاء المعـرفيِّ؛ مـن وعـيٍ وإدراكٍ وفهـمٍ وعقـل وتفكـيرٍ، وكلُّ مـا يخـصُّ أخبـار الغيـبِ، وعـلى رأسـها إثبـاتُ وجـود خالـقٍ مـن خـلال الْوَعْـي والملاحظـة الْوَظِيفِيّـة لإبداعـه في خلقـه.

فالطَّريقــة الوحيــدة لإدراكِ وجــود العقــلِ والتَّفْكِــير والفهــم، وباقــي أدوات البنــاء المعــرفيِّ؛ هــو تحليــل الْوَعْــي الْوَظِيفِــيّ لتلــك الأدوات، ومــن ناحيــةٍ أُخــرى؛ لــن نصــل إِلَى إثبــات وجــود الْخَالِــق عقليًّــا إلا عــن طريــق التَّحليــل الواعــي لإبداعــه في خلــق السَّــموات والأرضِ ومــا بينهــما، وخلــق الْإِنْسَــان ومــا بــث فيهــما مــن كل دابــة وقــد أطلــق عــلي هــذه الفَلْسَــفَة مصطلــح الفَلْسَــفَة (الوظيفزيائيَّــة)[1]، وتعــدُّ هــذه الفَلْسَــفَة فرعًــا مــن فــروع علــمِ التَّفَكُّــر، وهــو العلــم الــذي يختــصُّ بدراســة الْوَعْــي الْوَظِيفِــيّ لــكلِّ مــا يتعلــق بــالأدوات المعرفيَّــة الميتافيزيقيَّــة في النفــس الْبَشَرِيّــةِ، التــي لا نســتطيعُ حصرَهــا ضمــن إطــارَي الزَّمــان والمــكانِ، وتوظيفهــا في ملاحظــةِ إبــداع الْخَالِــق في خلقــهِ عــن طريــق الْوَعْــي بالمشــاهدات الفيزيائيَّــة التجريبيَّــة للــمادةِ مــن حولِنــا؛ للوصــولِ إِلَى اليقــينِ بأخبــار الغيــبِ التــي أَطلَعَنــا عليهــا الْخَالِــقُ، وبالتــالي الإجابــة عــن جميــع الأســئلةِ الوجوديَّــة والغائيَّــة.

وهــذا العلــم لا يخــرج بــأيِّ حــالٍ مــن الأحــوال مــن نطــاقِ لــبِّ الْقَلْــب النَّفْــسِيّ، الــذي يعــدُّ مســتودع المفاهيــمِ التــي تنتــج الحكمةَ، كــما ســيتمُّ توضيحُــه فيــما ســيَأْتِي.

(1) الوظيفزيائية: مصطلحٌ مشتقٌّ من كلمتين؛ الفيزيائيَّة والْوَظِيفِيّة؛

الفيزيائية: فلسفة تختصُّ بدراسة المادة لكلِّ ما هو محسوسٌ في الوجود.

الْوَظِيفِيّـة: فلسـفة تختـصُّ بدراسـة كل مـا هـو غيبـيّ، غـير مـاديٍّ، ويمكـن إدراكـه فقـط عـن طريـق الملاحظـة الواعيـةِ لإبداعاتـه الْوَظِيفِيّـةِ.

الفصل الأوَّل

الْإِنْسَان وعمليَّة البناء المعرفي

بعد أَن تأمَّلتُ بعمقٍ خلقَ الْإِنْسَانِ، وتكوينَه من جسدٍ وروحٍ ونفسٍ، وكذلكَ عمليَّة البناء المعرفيَّة التي يتمتَّعُ بها، والتي تميِّزه عن بَقيّةِ المخلوقاتِ على وجه الأرضِ؛ تبيَّن لي أَنَّ المعضلة الأساسيَّة لفهم تلك العناصر، والعلاقة التبادليَّة التي تربطُ بين بعضهَا بعضًا؛ تكمنُ في دلالات المفاهيم الْوَظِيفِيّة لمكوّنات الْإِنْسَان، فكانَ لا بدَّ لي من إعادة تعريفِ وبلورةِ بعض المفاهيم الأساسيَّةِ، وتبسيطها، بكيفيَّةٍ تؤدي إِلَى فهم العلاقة بين تلك المكوّناتِ، واكتشاف الخللِ في تفسير عملية البناء المعرفيِّ لدى البشرِ.

وتمثَّلَت نقطة البداية بالعمل على تشريح النَّفس الْبَشَرِيّة؛ بهدف تفكيك شيفرتِها الْوَظِيفِيّة، ومن ثم الوصُول إِلَى نظرية بناءٍ معرفيَّةٍ متكاملةٍ، تعطي إجاباتٍ واضحةً وقاطعةً لكلِّ تلك التساؤلات الفَلْسَفِيّة الجدليَّة على مرِّ الزمن.

ولَا تَبدَأ رحلتُنا على متن سفينة المعرفة إلا بنصبِ أشرعة المفاهيم الأساسِيَّة[1]، في ظل النظرية (الوظيفزيائيَّة)، والتي بدورها ستوجِّهنا إِلَى الطَّريق الفَلْسَفِيّ الصَّحيح.

المفاهِيم الأساسِيَّة:

الجسد الْبَشَرِيّ: هو الجزءُ المحسوسُ ماديًّا في تكوين الْإِنْسَانِ، وهو المسؤولُ عن المُدخلات الْحِسِّيّة المكتسبةِ من المؤثِّرات الماديَّة الخارجيَّةِ، وعن التَّعبير عن النَّفس الْإِنْسَانية من خلال المخرجات القوليَّة والفعليَّةِ، وهو المصدر الرئيسُ للمدخلات الماديَّة اللازمة لبناء المعرفة من خلال السَّمع والبصر والإحساس الماديِّ، وكذلك يقومُ بنقل الأحاسيس الماديَّة التي لا تدرك إلا بالتواصل البيولوجيِّ مع العالم الماديِّ، كالألمِ وإشباع رَغباتِ النَّفس الْبَشَرِيّة[2]، وهو وسيلةٌ للتعبير عن المشاعر النَّفْسِيّة ماديًّا؛

---

(1) المرحلة الأولى في طرح المفاهيم قد تبدو معقدةً للقَارِئ، ولكن مع الاستمرار في القراءةِ؛ سيبدأ الأمر بالوضوح شيئًا فشيئًا.

(2) الألم والنَّشوة قد تنتقل بشكل ماديٍّ عن طريق الجسدِ، أَو عن طريق الإحساس غير الماديِّ، وكلٌّ يؤدي في النهايةِ إِلَى تكوين ما يسمَّى بالشعورِ، وهذا الشُّعُور قد يتركُ أثرًا على الجسد والنفس تارةً، وقد يكون نفسيًّا أَو جسديًّا تارةً أُخرى، كأَن يتعرَّض الْإِنْسَانُ للضَّربِ، فيشعر بالألم النَّفْسِيّ والجسديِّ معًا، أَو الجسديِّ، أَو النَّفْسِيّ فقط.

كالحـبِّ والغضـب والحـزن والسَّـعادةِ، عـلى سـبيل المثـالِ لا الحـصر.

النَّفـس الْإِنْسَـانيَّة: هـي الجـزء المحسـوسُ والمـدرك وظيفيًّـا، وغـير المـدرك ماديًّـا، تعمـل النَّفـس وظيفيًّـا داخـل الجسـد الْبَـشَرِيّ، وفهمهـا مـدركٌ بالْوَعْـي الْوَظِيفِـيّ، وخـارجٌ عـن نطـاق الْوَعْـي والملاحظـة الْبَشَرِيّـة الفيزيائيّـة، وهـي غـير خاضعـةٍ للقوانـين الفيزيائيَّـة التجريبيَّـة. وترتبـطُ النفـس الْبَشَرِيّـة ارتباطًـا وثيقًـا بعمليـة البنـاء المعـرفيِّ عنـد الْإِنْسَـانِ؛ مـن وعـيٍ وإِدراكٍ وفهـمٍ وعقـل.

وكـما للجسـد حـواسّ يمكـن ملاحظتهـا ماديًّـا؛ فَـإِنَّ للنَّفـس حـواس -أيضًـا- لا تقـلُّ أهميـةً عـن حـواس الجسـد الْبَـشَرِيّ، ويمكـن إِدراكُهـا عـن طريـق الْوَعْـي بوظائِفهـا، مـن خـلال ملاحظـة سـيرِ وسـلوك البنـاء المعـرفيِّ لـدى البـشر.

وتقَـعُ الحـواس التـي تمتلكُهـا النفـسُ تحـت مظلَّـةِ الوعـيِ، وتُقسـم إِلَى خمـس حواس بحسـب دلالاتهـا الْوَظِيفِيّة:

١- الْوَعْـي الْحِسِّيّ: وهـي الحَاسَّـة النَّفْسِـيّة التـي تتخـذ الحـواسَّ الجسـديَّة كقنـواتِ تواصـلٍ مـع العـالم المـاديِّ الخارجـيِّ، وبذلـك تكـون وظيفـةُ العـين في الجسـد (المشـاهدة)، ووظيفـةُ الْوَعْـي الْحِسِّيّ في النفـس (الإبصـار)، ووظيفـة الأُذن (الاسـتماع)، ووظيفـة الْوَعْـي الْحِسِّيّ (الإنصات).

ومـن ناحيـةٍ أُخـرى؛ وظيفـة اللسـان التـذوُّق، والأَنـف الشـمّ، وَوظيفـة الجلـدِ -بمـا يحويـه مـن نهايـاتٍ عصبيـةٍ- استشـعار المـادَّة مـن حولـهِ، ووظيفـة الْوَعْـي الْحِسِّيّ نقـل الانطبـاعِ إِلَى **حَاسَّـة الْوَعْـي الْعَاطِفِـيّ والشُّـعُورِيّ؛** لتقـوم بترجمتِهـا لألمٍ أَو نشـوةٍ، وبالتـالي التقبُّـل أَو النفـور.

إِذَن؛ الْوَعْـي هـو حَاسَّـة النَّفـسِ، وبفقدهـا يفقـد الجسـد قدرتـه عـلى الانتفـاع بالمادة مـن حولـه؛ لذلك فإنـه لا قيمـة للـمادَّة دون الْوَعْـي الْحِسِّيّ.

٢- الْوَعْـي الْوَظِيفِـيّ: وهـي الحَاسَّـة النَّفْسِـيّة التـي تعطـي الْإِنْسَـان القـدرةَ عـلى التَّواصـل مـع جميـع المعطيـات الغيبيَّـة غـير الماديَّـة، والتـي يمكـن وعيُهـا عـن طريـق ملاحظـةِ وظائفهـا.

ومثالٌ على ذلك الْوَعْي بالتَّفْكِير، أنا أعي أنِّي أستنتجُ، والاستنتاجُ ناتجٌ عن عمليةٍ عقليةٍ، إِذَن أَنا أَستخدم الْوَعْي الْوَظِيفِيّ للتَّعرف إِلَى العملية الْعَقْلِيّة.

وحَاسَّة الْوَعْي الْوَظِيفِيّ هي المسؤولة عن الملاحظة والتَّحليل والتَّعرفِ إِلَى أدوات البناء المعرفيِّ كافةً من ناحيةٍ، والوصول إِلَى مصدر ومنطق أَخبار الغيبِ من ناحيةٍ أُخرى.

٣- الْوَعْي الْفِكْرِيّ والفَلْسَفِيّ: وهو حَاسَّةٌ نفسيةٌ مسؤولةٌ عن إثارة التساؤلات الوجوديَّةِ، في البحث عن الأسباب والكيفيَّة.

مثال: من انا، كيف خلقت وما هو مصيري بعد الموت.؟

٤-الْوَعْي الْعَاطِفِيّ والشُّعُورِيّ الناتج عن الْوَعْي الْوَظِيفِيّ: هو حَاسَّة نفسية تمكِّن الْإِنْسَانَ من وعي العواطف والأَحاسيسِ النَّاتجة عن الإحساس غير الماديِّ؛ كالأَمل واليأسِ والحبِّ والكره والألم والنشوةِ، وغيرها.

وتعملُ هذه الحَاسَّة بمعزلٍ عن المادةِ (الجسد)؛ ذلك لأَنَّ تلك الأَحاسيس ناتجةٌ عن الأفكار النَّفْسِيّةِ، كَأن يفكِّر الْإِنْسَانُ بالموت، فيشعر بِإِحساس الخوفِ.

٥-الْوَعْي الْعَاطِفِيّ والشُّعُورِيّ الناتِج عن الْوَعْي الْحِسِّيّ: حَاسَّة نفسيةٌ، تمكن الْإِنْسَان من وعي العواطف والأَحاسيس النَّاتجة عن الإحساس الماديِّ؛ كالأَمل واليأسِ، والحبِّ والكره، والألم والنشوةِ، وغيرها.

مثال: أَن تقسو على شخصٍ ما بالتوبيخِ، فيشعر بالألم النَّفْسِيّ.

إِذَن المادَّة هي ضرورةٌ لتفعيل حَاسَّة الْوَعْي الْحِسِّيّ والْوَعْي الْفِكْرِيّ والفَلْسَفِيّ للنفس، وبناء عليهِ؛ فإِنَّ الْوَعْي الْحِسِّيّ والْفِكْرِيّ الفَلْسَفِيّ هما الضَّرورة التي أدَّت إِلَى وجود المادة، وكما يستخدمُ الجسدُ حَاسَّةً أَو أَكثر من حواسّه لإِثبات وجودِه؛

مثال: أَنا أرى جسدي، إِذن جسدي حقيقيٌّ وموجودٌ، فإِنَّ النفسَ -أيضًا- تستخدمُ إِحدى حواسها لإِثبات وجودها.

مثال: أَنا أَعي أَني أُفكِّر إذن نفسي حقيقيَّةً وموجودةً [1].

ويتبيَّنُ لنا مما سبقَ أَن الْوَعْي قد يعمل خارج الإطار الماديِّ، والعكس غير صحيحٍ،

وهذا ما يفسِّر الفرق بين الحقيقةِ الواقعيَّةِ والحلم.

وتكمن العلاقة ما بين الجسد والنَّفس في أنَّ الجسد عبارةٌ عن وسيلةٍ للنفس في التعبير عن ذاتها ماديًّا، عن طريق لغةٍ (نفسماديَّة) خاصَّةٍ مفهومة للنَّفس والجسد، مدركة وظيفيًّا، ولا يعيها البشر فيزيائيًّا، فالنفس لا تستطيعُ التعاملَ مع العالم الماديِّ دون التشكُّل في داخل وسط ماديٍّ، يشكِّل قناعًا فيزيائيًّا، تتواصل من خلاله النفسُ البشَريَّةُ مع الوسط المادّيّ المحيط بها، فالجسدُ ما هو إلا مرآة تعكسُ النفس للواقع الماديِّ، ولكنها مرآةٌ متعدِّدة الوجوه، مُتحكّمٌ بها من خلال النَّفسِ المُستسلمة لها، فتارةً تعكس حقيقة النفسِ، وتارة أُخرى تُنَكرُها.

الروح: هي متلازمة الحياةِ في الإِنْسَان، وماهيتها غيبيَّةٌ، فهي غير محسوسةٍ ماديًّا، وغير مدرَكةٍ شعوريًّا. ولكن مفارقتها للجسد الْبَشَرِيّ تُؤدِّي إِلَى مفارقةِ الحياةِ، فتعريفُها لا يخرجُ عن نطاق الحيِّز الْوَظِيفِيّ أيضًا.

وتعدُّ النفسُ الْبَشَرِيّة المحركَ الأساسيَّ في تكوين الْإِنْسَانِ، وهي التي تحوي جميعَ العمليَّات غير المحسوسة ماديًّا، والمدرَكَة وظيفيًّا، وهي غرفة العمليَّات الرئيسَة المسؤولة عن عمليَّة البناء المعرفيِّ لدى البشر، ذلك أن فقدَ الْوَعْي يؤدِّي إِلَى فقد الانتفاعيَّة بجميع الأدوات والعمليَّات المعرفيَّةِ؛ لذلك وقعَ الاختيارُ على النفس الْبَشَرِيّة

(1) ترتبط مستويات الذكاء بشكل مباشرٍ مع مستويات حواسّ الْوَعْي النَّفْسِيّة الخمس، فزيادة الْوَعْي في إحدى الحواسّ تؤدي إِلَى زيادة مستويات الذَّكاء المرتبط بتلك الحَاسَّةِ، ومثالُ ذَلكَ: حَاسَّة الْوَعْي الْفِكْرِيّ الفَلْسَفِيّ. ومن كان يتمتَّع بحَاسَّة وعي فكريٍّ فَلْسَفِيّ كبيرة؛ فدائمًا ما يثير التساؤلاتِ، ويبحث عن الأسبابِ، ثمَّ يدرك أمورًا فَلْسَفِيّة وفكريةً في مستويات عليا، تفوق أقرانهُ، وبناء على مستويات وعيهِ الْفِكْرِيّة والفَلْسَفِيّة العليا يستطيعُ إيجادَ الإجابات التي تصلُ به إِلَى الإدراكِ، ومن ثم تكوين المفاهيم الأولية التي تؤدي به إِلَى تكوين المعرفةِ، التي بدورها تنقلُه إِلَى مستوى تكوين النظريَّات الفَلْسَفِيّة، وهنا يكون الشخص مفكرًا يتمتع بذكاء فَلْسَفِيّ.
وأما من كان يتمتع بحَاسَّة وعي حسيٍّ (تحليليّ تجريبيّ) عالية المستوى؛ فيبرع في العلوم التجريبيَّة، ويكون صاحب حسّ ذكاء علميٍّ تجريبيٍّ
أَما مَن يتمتع بحسٍّ عاطفيٍّ وشعوريٍّ؛ فيبرع في مجال الفنون، والتعاملات الاجتماعيَّة المتعلقة بالحس الْعَاطِفِيّ.

لتكـونَ المـكانَ المسـؤول عـن البنـاء المعـرفيِّ لـدى البـشر دون الجسـدِ.

ولـكي نسـتطيعَ فهـم النفـس الْبَشَرِيّـة؛ علينـا تشريـحُ عمليَّـة البنـاء المعـرفيّ النَّفْـسِيّ، للتعـرُّف إِلَى الأجهـزة والعمليَّـات المعرفيَّـة الأساسـيَّة فيهـا، وإعـادة صياغـةِ وبلـورة المفاهيـم الدلاليَّـة الْوَظِيفِيّـة الأساسـيَّة لهـا في إطـار النظريَّـة الوظيفزيائيَّـة.

جهاز الْوَعْيِ والإِدراك

وهـو الجهـازُ المسـؤولُ عـن نقـل البيانـاتِ النَّاتجـة عـن حـواس الْوَعْـي النَّفْسِـيّة الخمـس التـي ذكرتُهـا آنِفًـا، وتجهيزهـا للبـدءِ بعمليَّـة الإدراكِ، ثـم تكويـن المَفاهيـم.

وسـأقوم في هـذا التَّفصيـل بالتَّركيـز عـلى حَاسَّـة الْوَعْـي الْحِسِّيّ والْوَظِيفِـيّ؛ لتسـهيل فهـم التّسلسـل الْوَظِيفِـيّ بشـكلٍ مبسَّـطٍ. إِذَن، وكـما ذكـرت:

- **الْوَعْـي الْحِـسِّيّ**: هـو الحَاسَّـة التـي لهـا القـدرة عـلى الشُّـعُور والاتِّصـالِ مـع المدخـلات الْحِسِّـيّة الماديَّـةِ، عـن طريـق الملاحظـة المبـاشرةِ المكتسـبة مـن الوسـط المـاديِّ المحيـط بالجسـدِ، بمـا يحويـه مـن حـواس مـن سـمعٍ وبـصرٍ وإحسـاسٍ مـاديٍّ، وهـي تشـكِّلُ المدخـلَ الرَّئيـسَ لتلقـي أَحـداث العـالمِ المـاديّ.

مثالٌ للوعيِ الْحِسِّيّ: أنا أَرى النارَ، إِذَن أَنا واعٍ لوجود النَّارِ.

- **الْوَعْـي الْوَظِيفِـيّ:** وهـو الحَاسَّـةُ التـي نتعـرَّف مـن خلالهـا إِلَى المدخـلات المعرفيَّـة غـير الملموسـةِ، عـن طريـق ملاحظـة وظائفِهـا فقـط، ومثـال ذلـك الْوَعْـي بـالإِدراك والفهـم والعقـل والتَّفْكِـير.

أَنا أُدركُ، أَنا أَعقلُ، أَنا أُفكر، إِذَن أَنا واعٍ[1].

- **الإِدراك:** الإِدراك لغويًّـا يعنـي الوصـول، وفي عمليَّـة البنـاء المعـرفيِّ يعنـى الوصـولَ إِلَى خصائـص الحـدثِ، أمـا الإدراك فيعـرف اصطلاحًـا أَنَّـه بدايـة معرفـة آليَّـة عمـل المدخـلات الْحِسِّـيّة الناتجـةِ عـن الوعـيِ، أو بالتعـرُّفِ إِلَى خصائـص الحـدثِ كنتـاجٍ

(1) (أَنـا واعٍ أَني أُفكـرُ، إِذن أَنـا موجـود)، لعـلَّ إضافـة كلمـة واعٍ لمقولـة الفيلسـوف ديـكارت تجعـلُ فهمهـا أَسـلسَ، وهـذا يعنـي -ودون أَدني شـكٍّ- أَنَّنـا لا نعيـش حلـمًا، بـل نحيـا حيـاةً واقعيَّـة حقيقيَّـةً.

عـن تجـارب الآخريـن، وتكويـن خصائـص شـعوريَّةٍ مرتبطـة بذلـكَ الحـدثِ، مبنيَّـة علـى المرجعيَّـة الفطريَّـة الأساسـيَّة المنبثقـة عـن المبـدأ الفطـريِّ للتَّمييـز بـين الخـير والـشَّرِّ[1].

مثـال: أَنـا أَرى النَّـارَ، أنـا واعٍ، اقتربـتُ مـن النـار فأحرقتنـي، فأنـا الآن مـدركٌ أن الاقـترابَ مـن النـار يـؤدِّي إِلَى الاحـتراقِ، وهنـا تـدركُ الخصائـص الشُّـعُوريّة النَّاتجـة عـن إدراك الخصائـص الفيزيائيَّـة للحـدثِ، (النـار تحـرق، الحـرق يـؤلم)، وذلـك بمسـاعدة حَاسَّـة الْوَعْـي الْعَاطِفِـيّ والشُّـعُورِيّ.

فالْوَعْـي الشُّـعُورِيّ هـو المسـؤولُ عـن التَّعزيـز في تكويـن مفهـوم الجـمالِ والقباحـة للحـدثِ[2].

- **المفهـوم الأوليُّ:** هـو المُنتـج النهـائيُّ لعمليـة الإدراك، وبدايـة تكويـن المرجعيَّـات المبنيـة عـلى خصائـص الحـدثِ[3]، بـدلالات عمليَّـة الإدراكِ، وهـذا الحـدث بدلالاتـه يطلـقُ عليـه اسـمٌ محـددٌ، ومن ثـم يُخـزَّن في **الوعـاء المرجعـيِّ** بخصائصـه الفيزيائيَّة

(1) الخير والـشرُّ مرجعيـاتٌ فطريـةٌ، مسـؤولةٌ بشـكل مبـاشرٍ عـن إدراكِ وتكويـن المفاهيـم الشُّـعُوريّة للحـدثِ، كالأمـلِ والطَّمأنينـة والسَّـعادة والرَّاحـة والمنفعـةِ وغيرهـا، ومـن ناحيـةٍ أخـرى؛ اليـأس والخـوف والحـزن والألم والـضرر وغَيرهَـا، وذلـك بمسـاعدة حَاسَّـة الْوَعْـي الشُّـعُورِيّ والْعَاطِفِـيّ. مثـالُ ذلـكَ: الاعتـداء بالقتـل أَو السرقـةِ أَحـداثٌ تصنِّفهـا الفطـرة أَنهـا أفعـالٌ شريـرةٌ، وذلـك بمسـاعدة حَاسَّـة الْوَعْـي الشُّـعُورِيّ،

مـن خـلال الشُّـعُور بالخـوف والقلـقِ قبـل الإقـدام عـلى تلـك الأفعـالِ، والشُّـعُور بالنَّـدم بعـد إِتيانهـا؛ لذلـك فـإنَّ تعاطـي المـواد المسـكرةِ يـؤدِّي إِلَى تعطيـل الْوَعْـي الشُّـعُورِيّ أَو الْعَاطِفِـيّ؛ مـما يـؤدي إِلَى الإِقـدام عـلى أفعـالٍ وأَقـوالٍ خارجـةٍ عـن نطـاق الفطـرة السَّـوية، فالشَّـخص هنـا يكـون واعيًـا حسـيًّا، ولكنَّـه فاقـدٌ للوعـي الشُّـعُورِيّ والْعَاطِفِـيّ.

(2) لتسـهيل فهـم حَاسَّـة الْوَعْـي الشُّـعُورِيّ النَّفْـسّي سـأقومُ بتصويرهـا باللسـانِ الْبَـشِرَيّ لتقريـب الفهـمِ، فكـما للسـان قـدرةٌ خلقيَّـةٌ عـلى التَّمييـز بـين الطعـم الحلـو والمـرِّ والمالـحِ؛ فكذلـك الأمـر لحَاسَّـة الْوَعْـي النَّفْـسِيّ الْعَاطِفِـيّ أَو الشُّـعُورِيّ، فلديهـا القـدرَة عـلَى التَّمييـز بـين المستسـاغ وغـير المستسـاغِ؛ لذلـك تختلـف معايـيرُ الاستسـاغةِ بحسـب حَاسَّـة الْوَعْـي الشُّـعُورِيّ، فاللسـان واحـدٌ، والطعـام واحـدٌ، أَمَّـا الـذوق فمختلـفٌ. إِذَن التـذوُّقُ يختـصُّ بـه اللسـانُ، ونقـل الإحسـاس للنَّفـس تختص بـه حَاسَّـة الْوَعْـي الْحِـسِّيّ النَّفْـسِيّ، أَمـا الاستسـاغةُ فهـي مـن اختصـاصِ حَاسَّـة الْوَعْـي الشُّـعُورِيّ الْعَاطِفِـيّ، وهـذا يفسِّر اختـلاف أَذواق البـشرِ.

(3) المفهـوم الأَولي يـؤدِّي إِلىَ تكويـن المعـارف الأساسـيَّة، أمـا المفهـوم المركَّـب يـؤدي إِلىَ الابتـكار والإبـداعِ، وهنـا تكمـن الفروقـاتُ بـين البـشر في مسـتويات الـذَّكاء المتقدّمـة، مثـال: الرقـم 1 مفهـوم أَوليٌّ، أَمـا المعادلـة الرياضيَّـة 1+1=2، تحـوي أربعَـة مفاهيـم مركَّبـة، هـي (1،+،=،2).

أما الحدث: فهو ما تدركه الحواسّ ماديًّا أو وظيفيًّا، نتيجة التَّواصل الواعي مع العالم الخارجيّ.

ومفهـوم الجـمال والقباحـة للحـدث ليـس مفهومًـا مطلقًـا، وإنما يعتمـدُ عـلى التجربـة الشـخصيَّة المصاحبـة للحـدثِ، فلـو أنَّ شـخصًا اقـترب مـن النـار فَأَحرقتـهُ؛ فَسـيكون مفهومًـا أنَّ النـار شيءٌ شريـرٌ قبيح، أمـا لـو اسـتخدمَت النـارُ لطـرد حيـوانٍ مفـترسٍ؛ فَسـيُكوِّن مفهومًـا جميـلًا عـن النـار، بأَنها تسـاعد في الحمايـة مـن الحيوانـات المفترسـةِ!

والشُّـعُورِيّة؛ لاسـتخدامِه في العمليَّـة الْعَقْلِيّـة، ويتـمُّ ذلـك عـن طريـق عمليَّـة الفهم الأوليِّ.

- **المفهـوم المركّـب:** هـو تكويـنُ مفهـومٍ جديـدٍ، عـن طريـق ربـط المفاهيـم الأوليَّـة النَّاتجـة عـن عمليـة الإدراك الأَوليِّ، وبالتـالي إنتـاج مفهـومٍ مركَّـبٍ، عـن طريـق عمليَّـة الفهـم المركَّـب.

مثالٌ على المفاهيم المركَّبة: الرّياضيات والفيزياء والهندسة.

إذن؛ المفهـوم يتكـوَّن مـن اسـم الحـدثِ، وخصائصـه الفيزيائيَّـة والشُّـعُورِيّة في حالـة تكويـن مفاهيـم الأَحـداث الماديَّـة، (النـار تحـرق والحـرق يـؤلمُ)، واسـم الحـدثِ، وخصائصـه الْوَظِيفِيّـة والشُّـعُورِيّة في حالـة تكويـن المفاهيـم غـير الماديَّـةِ، كمفهـوم الأمـلِ المرتبـطِ بشـعور السَّـعادة.

والشُّـعُور في كلتـا الحالتَـين مرتبـطٌ بالمرجعيَّـات الفطريَّـة المسـتودعة في الْقَلْـب النَّفْـسِيّ الْبَـشَرِيّ لذلـكَ الحـدثِ، وبعبـارةٍ أخـرى، الخصائـص الشُّـعُورِيّة كالألم والسَّـعادة والحـزنِ هـي ردودُ أفعـال فطريَّـة للأَحـداثِ، مرتبطَـة بحَاسَّـة الْوَعْـي الشُّـعُورِيّ والْعَاطِفِـيّ، وهـي حَاسَّـة مسـتودعةٌ مـن الْخَالِـق، ولا تكتسـبُ مـن المخلـوقِ، جنبًـا إِلَى جنـبٍ مـع الفطرة الْبَشَرِيّـة للتَّمييـز بـين الخـير والـشرِّ؛ لذلـك فـإن الاسـمَ الـدلاليَّ يمثـل منتجًـا مفهومًـا بشـكلٍ كامـل للحـدثِ، ومجمـوع الأسـماءِ بكليَّتِهـا يمثِّـل العلـم الكامـل.

وبناءً على ما سبقَ؛ فإنَّ:

- **المعرفـة:** هـي مجمـوعُ المفاهيـم المُخزنـة في الوعـاء المرجعـي النَّفْـسِيّ، وتنامـي المفاهيـم يقـود إِلَى تنامـي المعرفـة.

والمعرفـة تنشَـأُ مـن مجمـوع المفاهيـمِ النَّاتجـة عـن عمليَّـة الإدراكِ الأوليِّ، أَمـا المفاهيـم المركَّبـة فتـؤدي إِلَى تكويـن العلـوم بشـتَّى فروعهـا[1].

(1) المفاهيـم المبـاشرة مقيـدةٌ بالخصائـص الأساسـيَّة لـلمادة أو الحـدث، أمـا المفاهيـم المطلقـةُ فتختلـف بِاختـلافِ الثَّقافات والمعتقـداتِ والأزمـان والتجـارب الشـخصيَّة. مثـال: (النـار تحـرقُ)، مفهـوم مبـاشرٌ مقيـدٌ بالخصائـص الفيزيائيَّـة الأساسـيَّة للنـار. أَمـا مفهـوم (عبـادة النـار) فهـو نتـاجُ معتقـداتٍ وثقافـاتٍ، وليـس لـه علاقـةٌ بالخصائـص الأساسـيّة لهـا.

- **الوعاء المرجعي:**

هـو عضـوٌ نفسـيٌّ غـير مـاديٍّ، لا يعـرف فيزيائيًـا، وإِنَّمـا وظيفيًّـا، بأَنَّـه قلـب النفـسِ الْبَشَرِيّـة المعـرفيّ، ويقسـم بنـاءً عـلى التَّحليـل الْوَظِيفِـيّ إِلَى قسـمين رئيسَـين؛ **اللـب والقـشرَة الخارجيَّـة المحيطَـة باللـبِّ**، ووظيفـةُ اللـبِّ هـي تخزيـنُ **المرجعيـاتِ الأساسـيَّة وحفظهـا**، أَمَّـا **القـشرة** فتسـمَّى منطقـة **الهـوى**، ولا تحتـوي هـذه القـشرةُ عـلى معلومـاتٍ مرجعيـةٍ، وإِنَّمـا هـي منطقـة الشُّـعُور بالحاجـة **لإشـباع الرَّغبـات والشـهوات**.

أَمَّـا **المرجعيـات الأساسـيَّة** التـي يحويهَـا (لـب الْقَلْـب النَّفْـسِيّ)؛ فهـي المعرفـةُ التـي يكتسـبُها الْإِنْسَـان منـذ ولادتـه وحتـى وفاتـهِ، وتـأتي مـن المصـادر الأساسـيَّة التَّاليـة:

1- **الفطـرة الْبَشَرِيّـة**، وهـي مرجعيَّـةٌ لا تكتسـبُ، وإِنَّمـا تُـودع في لـبِّ الْقَلْـب النَّفْـسِيّ للإِنسـانِ عنـد خلقـهِ؛ لتسـاعدَه عـلى التَّمييـز بـين الخـير والـشرِّ، في جلـب المنافـعِ، ودفـع المضـارّ، وهـي مرتبطـةٌ بالْوَعْـي الشُّـعُورِيّ. ومصدرهـا غيبـيٌّ.

2- **أخبـار الغيـب**، ومصدرهـا الوحيـدُ الوحـي الإلهـيُّ، وهـو مختـصٌّ بالرسـل والأنبيـاءِ، ومـا أُنـزل عليهـم مـن كتـبٍ سـماويَّة[1].

3- **العلوم والمعارف الماديَّة التجريبيَّة والنظريَّة**، ومصدرها تجريبي فيزيائي.

وهذه المرجعيَّات الأساسية تخزنُ في لبِّ الْقَلْب النَّفْسِيّ الْبَشَرِيّ.

- **العقـل:**

بعـد أَن اسـتعرضنا تلـك المفاهيـم الأساسـيَّة في عمليـة البنـاء المعـرفيِّ لـدى الْإِنْسَـانِ، والتـي تشـكل مركـزَ العمليَّـات المعـرفيّ الرئيـسَ في النّفـس الْبَشَرِيّـة؛ نصـل إِلَى السُّـؤال الأكـثر أهميَّـة، والـذي حـيَّر الفلاسـفة خُصوصًـا، والبـشر عُمومًـا، مـا هـو العقـل، وأيـن يوجـدُ، ومـا دوره في بنـاء المعرفـةِ؟

وأَعتقـد أَنَّ الإجابـة سـتكونُ مفاجِئـةً للقَـارِئ كـما كانـت لي، ولكـن وبعـد التأمُّـل

---

(1) سـأثبتُ فيـما سـيَأتي، في مبحـث (الغيـب وصفـات الْخَالِـق الْعَقْلِيّـة) لمـاذا اعتـبرت أَخبـار الغيـبِ عنـصًرا ومرجعيَّـةً أساسـيَّةً في تكويـن المعرفـة وبالتـالي نشـأة العلـوم .

العميـق في وظائـف جهـاز البنـاء المعـرفيِّ الْبَـشَرِيّ؛ تبـيَّن لي أنَّ العقـل ليـس بكيـانٍ مـاديٍّ أَو ذهنـيٍّ، وليـس هـو المسـؤول عـن تكويـن المعرفـة الأساسـيَّة، ذلـك أَنّ تكويـن المعرفـة الأساسيَّة مـن عمليـات وعـيٍ وإِدراكٍ وتكويـن مفاهيـم، ومـن ثـم المعرفـة؛ هـو أمـرٌ منـوطٌ بالْقَلْـب النَّفْـسِيّ الْبَـشَرِيّ، وجهـاز الْوَعْـي والإدراك.

أمـا وظيفـة العمليـة الْعَقْلِيّـة هـي فقـط الربـطُ بـين المعـارفِ المرجعيـة المخزّنـة في الْقَلْـب النَّفْـسِيّ والاسـتنتاج فقـط.

والعقـل في اللغـة العربيَّـة يعنـي الربـطَ[1]. والعقـل اصطلاحًـا في ظـلِّ النظريـة الْوَظِيفِيّزيائيـة: هـوَ عمليـةٌ تنشـط داخـلَ الوعـاء المرجعـيِّ النَّفْـسِيّ، وتلـك العمليـة مدركـةٌ وظيفيًّـا، ولا تُعـرف فيزيائيًّـا، وعملهـا مرتبـطٌ بوجـود المرجعيَّـات الأساسـيَّة، وهـي الفطـرة الْإِنْسَـانيَّة المستودعة، وأَخبـار الغيـبِ، والعلـوم التجريبيَّـة والنظريَّـة والْفِكْرِيّـة المنبثقـة مـن عمليَّتـي الْوَعْـي والإدراكِ، ومـا يتبعهـما مـن تكويـنٍ للمفاهيـم الأوليَّـة والمركبـةِ، بحيـث تقـوم تلـك العمليـةُ -العقـل- بربـط تلـك المرجعيَّـات للخـروج باسـتنتاجاتٍ تتعلـق بجلـب المنافـعِ، ودفـع المضـار عـن الْإِنْسَـان.

لذلـكَ؛ فَـإِنَّ العقـلَ هـو متلازمـةُ المرجعيـات الأساسـيَّة، ولا يمكـنُ للعمليـة الْعَقْلِيّـة أَن تتكامـلَ إلا بتكامـل المرجعيَّـات الأساسـيَّة.

وبنـاءً عـلى مـا سـبقَ؛ فـإِنَّ دور العمليَّـة الْعَقْلِيّـة يبـدأ بعـد مرحلـة تكويـن المفاهيـم الأَوليَّـة والمُركَّبـة، أمـا مـا يسـبقُ مرحلـة تكويـن المفاهيـمِ؛ فهـو أمـرٌ يختـصُّ بـه جهـاز الْوَعْـي والإدراك، فَتكويـن المفاهيـم يـؤدِّي إِلَى تكويـن المعرفـةِ، وفي مرحلـة متقدمـةٍ إِلَى نشـأة العلـوم والابتـكارِ، أمـا عمـل العقـل فيختـصُّ في ربـط المرجعيّـاتِ؛ لاسـتنتاج المنافـع والمضـار.

فليـس كلُّ واع مـدركًا، وليـس كلُّ مـدرك فاهـمًا، وليـس كلُّ فاهـمٍ عاقـلًا، ولكـن كلّ عاقـلٍ هـو واعٍ ومـدركٌ وفاهـمٌ!

ونَسـتنتج مـما سـبقَ أنَّ أيَّ نقـصٍ في المرجعيَّـات الأساسـيَّة يسـبِّب اختـلالًا ونقصًـا في

(1) عقلـتُ الحصـان بجـذع الشـجرةِ، يعنـي ربطتُـه، وذلـك المفهـوم للعقـل، أي الربـط، يـؤدِّي الوظيفـةَ الدلاليـةَ نفسَـها في النَّفـس الْبَشَرِيّـة.

العمليَّـة الْعَقْلِيّـة، أي (اختـلالًا عقليًـا)[1].

- **التَّفْكِير:**

السُّـؤال الـذي يطـرح نفسَـه، بِمـا أنَّ العقـل هـو عمليَّـة الرَّبـط بـين المرجعيَّـاتِ؛ فـما الفـرقُ بينـه وبـين التَّفْكِـير، وكيـف يتَّخـذ الْإِنْسَـان قـراره في ضـوء النَّظريـة الوظيفزيائيـة؟

التَّفْكِـير: هـو عمليـةٌ مدركـةٌ وظيفيًّـا، ومنفصلـة عـن العمليـة الْعَقْلِيّـة، ويعمـل في مرحلـة مـا قبـل إرسـال القـرار النهـائيِّ في حـدثٍ مـا لـلإرادة النَّفْسِـيّة الْإِنْسَـانيَّة. وتهـدف عمليـة التَّفْكِـير إِلَى التَّقديـر النهـائي مـا بـين المصالـح الشـخصيَّةِ والصَّـواب، ويترتّـبُ عليهـا اتِّخـاذُ القـرار بعـد عقلِـه.

أمـا مـا يطلـق عليـه التَّفْكِـير في إطـار العلـوم التطبيقيَّـةِ؛ فهـو فهـمٌ وتحليلٌ واسـتنتاج تحليلي .

فَمَـن اتَّخـذ قـراره المعقـول بعـد التَّفْكِـير مـن لـبِّ الْقَلْـب النَّفْـسِيّ؛ يكـون قـد اتَّخـذ قـرارًا عقلانيًّـا مبنيًّـا عـلى مرجعيـاتٍ أساسـيةٍ، ويكـون صاحـبُ القـرار (عاقـلًا مهتديًـا إِلَى الصَّـوابِ)، أي اهتـدى في تفكـيره بعـد العقـلِ، إِلَى اللـبّ، واتخـذ قـراره النهـائيَّ منـه. ونعـت صاحـبَ القـرار بأنـه صاحـب تفكـير عميـقٍ.

أمـا مـن اتَّخـذ قـراره بعـد العقـل والتَّفْكِـير مـن منطقـة الهـوى (القـشرة المحيطـة بلـب الْقَلْـب النَّفْـسِيّ)؛ فقـد اتَّخـذ قـرارًا عقلانيًّـا مبنيًّـا عـلى أسـسِ الشَّـهوات والرَّغبـات والكـبر والأنانيـةِ.

إذَن؛ فالقـرارات المبنيَّـة عـلى الهـوى هـي قـراراتٌ عقليـةٌ، ولكنهـا (ضالـةٌ)، أي ضلَّـت

---

(1) لذلـك فـإِنَّ التعلـمَ في سـنوات الإِنْسَـان الأولى، أَي مرحلـة الطفولـة والمراحـل الأولى مـن الدِّراسـة؛ تتعلَّـق بالْوَعْـي والإدراك والفهـمِ، وليـس بالعقـل. فالعقـلُ ليـس لـه علاقـةٌ في تكويـن المفاهيـمِ، وإِنَّمـا وظيفتـه الرَّبـط والاسـتنتاج، للتَّمييـز بـين المنافـع والمضـار، فالْإِنْسَـان يولـد دون عمليـةٍ عقليـةٍ نشـطةٍ، ومـن ثـمّ يبـدأ تكويـنُ المرجعيـات اللازمـة لنشـوء العمليَّـة الْعَقْلِيّـة؛ لذلـك فـإِنَّ الْإِنْسَـان يأخـذ سـنين طويلـةً حتـى ننعتـه بأنـه عاقـلٌ راشـدٌ، ويسـمى سـنُّه بسـن التَّمييـز أو سـن الرشـدِ. أمـا النَّعـت الـذي نطلقـه عـلى الْإِنْسَـان صاحـبِ المعرفـة في مراحلـه العمريَّـة التـي تسـبق سـنَّ الرشـد فَهـو (فاهـم)؛ لذلـك فـإِنَّ تكويـن مفاهيـم مغلوطـةٍ وخاطئـةٍ يعـدُّ أَمـرًا شـديد الخطـورةِ؛ لأَنَّـه سـيؤدي إِلَى الخـروج باسـتنتاجاتٍ، واتخـاذ قـراراتٍ عقلانيـةٍ في ظاهرهـا، ولكنهـا مختلَّـةٌ باطنيًّـا، وتكويـن قناعـاتٍ خاطئـةٍ ومشـوهةٍ مـن الصَّعـب جـدًّا تغيِيرهـا.

اللـبَّ، واتجهـت إِلَى القـشرة القلبيَّـة في اتِّخـاذ القـرار النهـائيِّ، وصاحبُهـا (عاقـلٌ لكنَّـه ضـالٌّ عـن الصـوابِ، متبـعٌ للشـهوات)، وننعـت صاحـبَ القـرار بأنـه صاحـبُ تفكـير سـطحيٍّ.

ومِـن هنـا جـاء التشريـح الْوَظِيفِـيّ الـذي أَسـلفتُ ذكـره لجهـاز البنـاء المعـرفيِّ، فهـو مبنـي عـلَى مبـدأ الملاحظـة المجـرّد للأفعـال المعرفيَّـة الْوَظِيفِيّـة في الْإِنْسَـان، كـما سـيتَّضح جليًّـا في المثـال الـذي سـأطرحه عنـد نهايـةِ هـذا المبحـث.

وهنا يجبُ أن نتوقَّف للحظاتٍ؛ لنلقي الضوء علَى الفرق بين التَّفْكِير والتَّفَكُّر.

فالتَّفَكُّـر: هــو حـصر التَّفْكِـير في لُـبِّ الْقَلْـب النَّفْـسِيّ الْبَـشَرِيّ فقـط، بعيـدًا عـن القــشرة القلبيَّــة (الهــوى)، وبنــاءً عليــه؛ فاتّخــاذ القــرارات يكــون مبنيًّــا بالحتميَّــة عــلى المرجعيَّـات الأساسـية، بعيـدًا عــن الشــهوات والرغبـات والمصالـح الشـخصيَّة.

والتَّفَكُّر هو منبع الحكمةِ، ويُسمَّى أصحابُه أولو الألباب.

الإرادة الْإِنْسَانية (الأنا):

بعـد أن أعدنـا بلـورة المفاهيـم الأساسـيَّة في عمليَّـة البنـاء المعـرفيِّ، ودور عمليَّتـي العقـل والتَّفْكِـير فيهـا؛ ننتقـل إِلَى تعريـف الإرادة الْإِنْسَـانية.

الإرادة الْإِنْسَـانية: هـي متلازمـةُ الحريَّـة في اتخـاذ القـرار، وأصلُ التكليف في الْإِنْسَـان، وهـي جـزء غـير محسـوسٍ ماديًّـا، ولكنَّـه مـدركُ الخصائـص وظيفيًّـا، وهـي تمثّـل الإدارة العليـا في النفـس الْبَشَرِيّـة، ومركـز تلقـي القـرارات النهائيـة الناتجـة عـن العمليـة الْعَقْلِيّـة بعـد عمليَّـة التَّفْكِـير النَّفْسِـيّةِ، ونقـل هـذه القـرارات للدِّمـاغ الْبَـشَرِيّ عـن طريـق لغـة نفسـماديَّة؛ ليترجمَهـا الدمـاغُ إِلَى قـولٍ أو عمـل.

وقـد يتجـاوزُ الْإِنْسَـان مرحلـة التَّفْكِـير إذا كان صاحـب تجـارب سـابقةٍ، أدت بـه إِلَى تكويـن قناعـات راسـخةٍ، ففـي هـذه الحالـة يتَّخـذ قـراره بشـكل مبـاشرٍ، دون المـرور بعمليَّـة التَّفْكِـير، فـإذا كان قـراره نابعًـا مـن اللـبِّ؛ كان صاحـب مبـدَأ وإيمـانٍ راسـخٍ، أمـا إن اتَّخـذ قـراره مـن القـشرة فيكـون متبعًـا للهـوى.

وعمليَّـة التَّفْكِـير هـي المسـؤولة عـن تنكـير النفـسِ؛ لذلـك فـإِنَّ تعطيـل التَّفْكِـير قبـل

إصدار القرار يؤدي إِلَى البوح بالحقائق !

والآن، وبعد أن تعرفنا إِلَى الأدوات والعمليّات الْوَظِيفِيّة المسؤولة عن عمليَّة البناء المعرفيّ؛ فما هو دور الدِّماغ الْبَشَرِيّ فيها؟

إنَّ عمل الدِّماغ هو تلقي الملاحظات الماديَّة عن طريق الحواس الجسديَّةِ، ومن ثم تحويلها إِلَى لغةٍ نفسمادية، وإرسالها إِلَى الحواس النَّفْسِيّة، التي تؤدي إِلَى إثارة التَّساؤلات من قبل الْقَلْب النَّفْسِيّ، طلبًا لإدراك خصائص الحدثِ، وهنا، وبِاللغة النفسماديةِ نفسِها؛ يقوم الْقَلْب النَّفْسِيّ بإرسال التساؤلات إِلَى الدِّماغ عن طريقِ اللغةِ نفسِها، وهكذا حتى تصل النَّفس بمساعدة الدِّماغ إِلَى تكوين مفهومٍ كاملٍ وواضح عن الحدثِ، وتخزينه في الْقَلْب النَّفْسِيّ.

من خلال الشَّرح السابقِ؛ نستطيع أن نستنتجَ الفرقَ ما بين الإبصار بالعينِ بالمشاهدة والملاحظة، وما بينَ البصيرَة القلبيَّة، لتكوين مفهومٍ كاملٍ يؤدي إِلَى المعرفة الجاهزة للمراجعة الْعَقْلِيّةِ، فكما ذكرتُ ليسَ كلُّ واعٍ مدركًا، ولا كلُّ مشاهدٍ مبصِرًا!

والذّاكرة الْإِنْسَانية تتمثَّل بالوعاء المرجعيّ، ويتم استحضارها في مراكز التَّرجمة في الدماغ، فحصول عطلٍ في مركز الترجمة الدماغيَّة يؤدي إِلَى توقُّف القدرة على استحضار المرجعيَّات الموجودة في الْقَلْب النَّفْسِيّ، وليس فقدان المعلومات بشكلٍ كليٍّ في الْإِنْسَان.

وأطرحُ مثالًا لتوضيح عمليَّة البناء المعرفي المرجعيَّة السابقة، من الْوَعْي وحتى لحظة اتخاذ القرار؛ لنفترض أَنَّ شخصًا ذهب مع أصدقائه إِلَى حانةٍ، ورأى خمرًا للمرة الأولى في حياته. تعدُّ هذه اللحظةُ بدايةَ بناء العملية المعرفية (الْوَعْي الْحِسِّيّ)، عبر مدخلاتٍ عن طريق الحواسّ، وفي هذا المثالِ نجدُ (المشاهدةَ من خلال البصر عن طريق العينَين). ثمَّ قام ذلك الشخصُ بسؤال صديقه: ما هذا المشروب؟ هنا تبدأُ مرحلة الحاجة إِلَى الإدراك والفهمِ (الخصائص والاسم)، من خلال الْوَعْي الْحِسِّيّ (البصيرة). ثم أجابه صديقه: هذا المشروب يسمَّى خمرًا، ويحتوي على الكحول، وهو مشروبٌ يجعلك تشعر بالنشوة والسعادةِ، ولكنه في الوقتِ ذَاتِهِ قد يجعلك تقوم بأفعالٍ غير مسؤولةٍ، حيثُ إنَّك قد تفقد السَّيطرة على جسدكَ، فقد تضرب شخصًا، أَو تتعرَّض لحادث سيرٍ عند القيادة؛ بسبب فقدك التركيز بسبب هذا المشروب!

ما سبق هو مرحلة تكوين الإدراك والفهم. فقد أصبح ذلك الشَّخص مدركًا شكل ذلك المشروبِ، واسمَه، وخصائصَه من منافع ومضار. وهنا يكون قد كوَّن مفهومًا كاملًا عن الخمر.

وهذا المفهوم يخزّن في الوعاء المرجعيِّ (لب الْقَلْب النَّفْسِيّ). وهو الآن صاحبُ معرفةٍ وبصيرة، وليس للعمليَّة الْعَقْلِيّة أي تدخُّل حتى اللحظة.

ثمَّ قام صديقُه بسكب كأسٍ، وقدَّمه لِصديقهما الثالث، وقال لهُ: اشرب. فردَّ الأخيرُ: أنت تعلمُ أنني لا أَشرب الخمرَ، فهو حرامٌ حسب معتقدي الدِّينيِّ، وسيعاقبني الْخَالِق على هذا الفعل في الدنيا والآخرة.

في هذه اللحظة تكوَّنَ عند الشَّخص الأول مرجعيةٌ غيبيةٌ أنَّ الخمر محرمٌ، وهذه المرجعيَّة تُخزَّن في الوعاء المرجعيِّ (لب الْقَلْب النَّفْسِيّ)، لقد أصبحَ لديهِ الآنَ مفهومٌ ومرجعيَّةٌ فطريةٌ أساسيةٌ، ومرجعيةٌ غيبيةٌ.

ثمَّ أمسك الشَّخص الأولُ الكَأسَ، وقدَّمه لهُ، وقال لهُ: جرِّب!

هنا؛ تبدأ عمليَّة المراجعة والربط الْعَقْلِيّ، وتقييم المنافع والمضار، بناءً على المرجعيَّات الفطريَّة والمعرفية والغيبيَّة، فَتنشط العملية الْعَقْلِيّةُ، وَيبدأ عملُ العقل لربطِ مفهوم الخمر المكتسبِ من معرفة الآخَرين بالمرجعيَّات الأُخرى الموجودةِ في داخل لبِّ قلبه النَّفْسِيّ (الوعاء المرجعي، والفطرة الْبَشَرِيّة والتعاليم الغيبية)، ويبدأ حديث النفس (عملية العقل)، كما يَأتي:

أولًا: مراجعة المفهوم مع المرجعيَّة الفطرية.

(إنَّه أَمرٌ رائع أَن أَشعر بنشوة السعادةِ[1] إذا تناولتُ ذلك المشروبَ، ولكن

(1) نشوة السعادة وسعادة الرضى: نشوة السعادةُ تتمثل بالقيام بالفعل أو القول من قرارٍ مرجعيَّتُه مركز الهوى، ويعقبه الندمُ، أَو يشوبه الخوفُ من العواقبِ، ولكن الشر الذي يسكن في منطقة الهوى في النفس الْإِنْسَانية يقللُ المضارَّ، ويعظم المنافعَ، مما يؤدي إِلَى قيام الْإِنْسَان بالفعل أو القول متجاهلًا العواقبَ، ومركِّزًا على المنافع النَّفْسِيّة أو الجسديَّة فقط. من خلال التَّلاعب بالْوَعْي الْعَاطِفِيّ والشُّعُورِيّ لدى الْإِنْسَان. أما سعادة الرضى فهو شعور الْإِنْسَان بطمأنينةٍ نابعةٍ من إتيانه لقولٍ أو فعلٍ يجلب منفعةً شخصيةً أو اجتماعيةً، وهو ناتجٌ عن قرارٍ مُتخذ من الوعاء المرجعيِّ الأصيل، متجاهلًا منطقة مركز الهوى، ولا يعقبه شعورٌ بندمٍ، أو خوف من عواقب، لذلك الرضى هو جوهر السَّعادة الدائمة.

فقـدي المسـؤوليّة أمـرٌ خطـيرٌ، فقـد أرتكـب جرمًـا دون أن أشـعرَ، وهـذا أمـرٌ ضـارٌّ وبالـغ الخطـورة!).

ثانيًا: مراجعة المفهوم مع المرجعيَّة الغيبيَّة.

(إنـه أَمـرٌ رائـعٌ أَن أشـعر بنشـوة السَّـعادة إذا تناولـتُ هـذا المـشروبَ، ولكـن الْخَالِـق حذَّرنـا مـن تناولـهِ؛ بسـبب الأَضرار الناتجـة عـن تناولـه، وتوعَّدنـا بالعقـاب عـلى ذلـكَ في الحيـاةِ، وبعـد المـمات).

وهنـا تكـونُ المراجعـةُ الْعَقْلِيّـة قـد تمـت بشـكلٍ كامـلٍ، والإسـتنتَاجُ العقـلي النهـائي، هـو أنّ شرب الخمـر أمـرٌ محـرَّمٌ ويـؤدي للـضرر.

وقبـل اتخـاذ القـرار النهـائيِّ برفـض الـشربِ؛ يبـدأ عمـلُ القـشرة القلبيـة النَّفْسِـيّة، والتـي تحيـط بلـب الْقَلْـب النَّفْـسِيّ الْبَـشَرِيّ، والتـي وكـما ذكـرتُ تسـمى منطقـة الهـوى، وهـي المنطقـة المسـؤولة عـن تحفيـز التَّفْكِـير في اتخـاذ القـرار بإشـباع الشَّـهوات والرغبـاتِ، مـع تجاهـل الأَضرارِ والمرجعيـات الفطريَّـة والغيبيَّـة.

فالعمليَّـة الْعَقْلِيّـة قـد تمَّـت، وصديقُنـا في هـذه اللحظـة هـو إنسـانٌ عاقـلٌ، وهـو الآن في مرحلـة التَّفْكِـير بـين اتخـاذِ القـرار مـن لـب الْقَلْـبِ (المرجعيـات السـليمة التـي تجلـب المنفعـةَ وتدفـع الـضَّرر)، أو مـن منطقـة القـشرة القلبيَّـة المحيطـة باللـب القلبـي النَّفْـسِيّ (منطقـة الهـوى)، أو (الرغبـات والشـهوات).

إنَّ لحظــة التَّفْكِــير، والحــيرة في الاختيــار مــا بــين الصَّــواب مــن جهــةٍ، والمصلحــة الشــخصيَّة والرَّغبـات والشَّـهوات مـن جهـةٍ أُخـرى؛ هـي اللحظـة الفاصلـةُ، التـي تسـبق إرسـالَ القـرار إِلَى الإرادة الْإِنْسَـانيةِ؛ لتقـوم بدورهـا بإرسـالِ الإشـارات النفسـمادية إِلَى الدماغِ، ليقـوم الدمـاغُ بترجمـة تلـك الإشـارات إِلَى إشـاراتٍ عصبيـةٍ للـردِّ بالقبـول أو الرّفـض.

فـإذا قـرَّر الرَّفـض يكـون قـد اتخـذ قـرارًا عقليًّـا حكيـمًا مـن منطقـة اللـب القلبـي النَّفْـسِيّ، ويكـون إنسـانًا حكيـمًا[1] مهتديًـا، صاحـب تفكـيرٍ عميـقٍ[2].

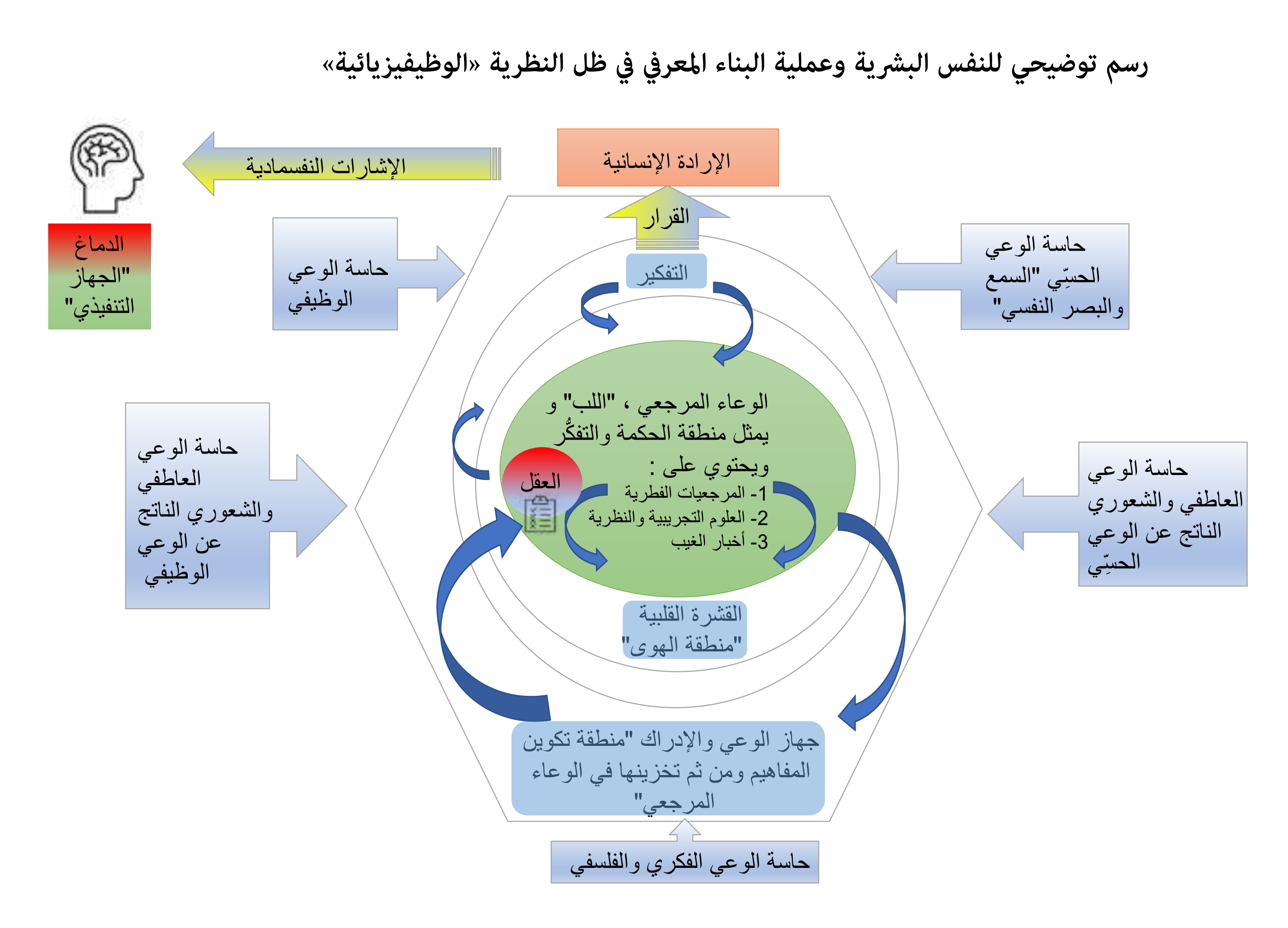
(1) الحكيـم: هـو مَـن يحكـمُ التَّفْكِـير داخـل اللـبِّ القلبـيّ، فـلا يُسـمح لـه بالخـروج إِلَىَ منطقـة القـشرة القلبيـةِ، وهـو إنسـانٌ تفكـيره ينحـصر في اللـبِّ القلبـيِّ، فهـو إنسـان متفكِّـر.

(2) مرحلـة التَّفْكِير يتدخَّـل بهـا عنصُر الـشرِّ، الـذي يدعـو لاتِّبـاع الهـوى، وسـيتم توضيـح ذلـكَ في مبحـثِ معضلـة الخـير والشر.

أمـا إذا اتَّخـذ القـرار بعـد العقـل والتَّفْكِـير مـن منطقـة الهـوى (القـشرة القلبيـة النَّفْسِـيّة)؛ يكـون إنسـانًا عاقـلًا ضـالًّا اتَّبـع الهـوى، صاحـبَ تفكـيرٍ سـطحيّ.

ونسـتنتجُ مـما سَـبقَ؛ أن الْإِنْسَـانَ قـد يعقـلُ ويضـلُّ، أو يعقـل ويهتـدي، أو لا يعقـل عـلى الإطـلاقِ، وذلـك عنـد اتِّخـاذه القـرار مبـاشرةً مـن منطقـة الهـوى دون الوصـولِ للـبِّ القلبـي، إما بسـبب نقـص المرجعيـاتِ، أو تعلقـه الشَّـديد بمنطقـة الهـوى، وفي هـذه الحالـة يكـونُ اتَّخـذ قـرارًا مبنيًّـا عـلى الهـوى مبـاشرةً، متجـاوزًا في ذلـك مرحلـة العقـل والتَّفْكِـير.

رسم توضيحي للنفس البشرية وعملية البناء المعرفي في ظل النظرية «الوظيفيزيائية»



خلاصة المبحثِ

«لـن تسـتقيمَ المفاهيـم إلا عنـد التكلـمِ بلغـةٍ فَلْسَـفِيّة واحـدةٍ، وذلـك بوجـود قانـونٍ واحـدٍ يحكـم دلالات تلـك المفاهيـمِ عنـد ربطهـا بالمرجعيَّـات الأساسـيَّةِ جميعِهـا، وخصوصًـا الغيبيَّة منهـا، لتتحـول مـن مفاهيـم مطلقـةٍ تتلـون بلـون المُنظِّـر الْبَـشَرِيّ، إِلَى مفاهيـم ذات دلالاتٍ موحـدة ومقيـدةٍ بحكمـة الْخَالِـق، وعلمـه التـامِّ في مصالـح خلقـهِ، وهـذا بالتأكيـد سـينتجُ وحـدة في القوانـين والضوابـطِ الأخلاقيَّـة؛ مـما يحقـق العدالـة والنظـام.

وهـذا واحـدٌ مـن أهـم الأهـداف في وجـوب نـشر شريعـة الْخَالِـق عـلى وجـه الأرضِ، وهـو توحيـد المفاهيـم الأخلاقيَّـة، وبالتـالي الوصـول للعدالـة الاجتماعيَّـة بأبهـى صورهـا، فوجـودُ المصلحـةِ الشَّـخصية وحريـة الإرادة لـدى البـشر كمتلازمتَـين ينفـي وجـودَ قانـونٍ موحـد يصـل بالْإِنْسَـان إِلَى إرسـاء مبـادئ وقوانـين موحـدةٍ أخلاقيـةٍ تحقِّـق العـدل الشـموليَّ!

هـذه المنظومـة الْبَشَرِيّـة تحتـاجُ إِلَى مـشرِّع حاكـمٍ للقوانـين، غـير محكـومٍ بهـا، فمـن أيـن لنـا بالمـشرع صاحـب القانـون الموحَّـد؟ هـذا مـا سـنعرفه ونقـوم بإثباتـه فيـما سـيَأتي بـإذن اللـهِ.

الفصل الثاني

الْخَالِق وضعف الْإِنْسَان أمام الثوابت الْكَوْنِيّة

علَى الرّغمِ مِن تسخير ما في الأرض من مخلوقاتٍ لخدمة الجنس الْبَشَرِيّ، ومع التّقدم العلميِّ الكبير الذي وصل إليه البشرُ حديثًا إلا أنَّ الْإِنْسَان كان وسيبقى مخلوقًا ضعيفًا، وليس خالقًا! وذلك لضعفِ الْإِنْسَان في تغيير الثّوابتِ الْكَوْنِيّة من حوله، وعجزه عن معرفةِ الغيب، ولعل أكثر الأسئلة الوجوديَّة شيوعًا بين البشرِ هما سؤالان:

مَن خلقنا؟ ومَن خلقَ خالقنا؟

وقبل الإجابةِ عن هذين التّساؤلين؛ علينا فهم مبدَأ السببيَّة، ومعادلة الخلقِ حتى نستطيع أن ندركَ هل أنَّ سؤالَ (من خلق الْخَالِق) سؤالٌ منطقيٌّ، أم أنَّه سؤالٌ خارجٌ عن المنطق الْعَقْلِيّ الْبَشَرِيّ.

إذَا تتبَّعنا مبدأَ السببيَّة؛ فإنَّ كلَّ موجودٍ له موجِد، ولن نستطيعَ أن نتسلسل إلَى ما لا نهاية، فهذا يُخالف المنطق الْعَقْلِيّ، وسنصل إلَى الموجِد الأول الواقع خارج نطاق المكان والزمانِ، فهو مَن أوجد المادَّة المكوّنة للمكانِ، وهو المسؤولُ عن حركة الأجسام التي أدَّت إلَى نشأَةِ الزّمان، وعند التّمعن في منظومة الخلقِ من حولنا؛ يتبيَّنَ لنا أنَّ معادلةَ الخلق العامَّة تتكوَّن من المعطيات الآتِية: الخلق = مخلوق + قوانين تحكم المخلوق.

بالنَّظر إلَى المعادلة السَّابقةِ؛ يتضح لنا أنَّ القوانين هي جزءٌ لا يتجزَّأ من الخلقِ، وهذه القوانين تحكمُ المخلوق.

وبالرُّجوع إلَى مبدأ السببيَّة أنَّ لكلِّ مخلوقٍ خالقًا أو مسببًا، فإن مبدأ السببيَّة هو مخلوق أيضًا، وليس لمخلوقٍ أن يحكمَ خالقه.

والسُّؤال المطروح أين هو الْخَالِق في معادلةِ الخلق؟

والإجابة أن الْخَالِق لا يقع ضمن المعادلةِ، بل إنه هو من وضعَ معادلة الخلقِ، فهو يقع خارج دائرة معادلة الخلقِ، لذلك فهو لا يخضع لقوانينها.

فالسـؤالُ مـن خلـق الْخَالِـق سـؤال خاطِـئٌ؛ لأنَّ تطبيـق قوانينـا المخلوقـةِ عـلى مَـن وضعهـا يُفسـد معادلـة الخلـقِ، ذلـك أن الْخَالِـق يقـعُ خـارج هـذه الدائـرة تمامًا، فمصطلـح الخلـق لم يكـن لـه وجـودٌ قبـل الْخَالِـق. وأَضرب مثـالًا للتوضيـح:

قـام الْإِنْسَـان في العصـور الحديثـة بوضـع معادلـةٍ للتهجـين[1]: المهجـن = المـادة + قوانـين التهجـين.

هنـا نسـتطيع السُّـؤال مَـن هجـنَ المـادة، ولكـن لا نسـتطيع ان نسـأل مـن هجـن الْإِنْسَـانَ؛ لأنـه هـو مـن وضـع معادلـة التَّهجـين، فهـو غـير خاضـعٍ لهـا، أي أنَّ الْإِنْسَـان لا يحتـاج إِلَى تهجـينٍ لـكي يهجـن المـادةَ، وهـو بالفعـل هجنهـا. وبالتـالي فالْخَالِـق لا يحتـاجُ أن يكـون مخلوقًـا لـكي يخلـق.

فالْخَالِق هو الأوَّلُ، ولم يأتِ مِن عملية خلقٍ؛ لأنه هو مَن أوجدها.

وعنـد النَّظـر إلى الإنسـان كجـزءٍ مـن المخلوقـات الموجـودة عـلى سـطح الأرض، والبحـث في العلاقـات والقوانـين الطبيعيَّـة المسـيرة لهـذا الخلـقِ، ومـدى قـدرةِ الْإِنْسَـان عـلى تغيـير تلـكَ الثوابـتِ؛ نلاحـظ تلـك المحدوديَّـةَ، والعجـزَ في القـدرات الْبَشَرِيّـة عـلى تغيـير الثَّوابـت الْكَوْنِيّـة، ونسـتنتجُ أن الْإِنْسَـان قـادرٌ فقـط عـلى اكتشـاف العلاقـات والقوانـين التـي تتحكَّـم في فهـم المتغـيّراتِ، أمـا الوحيـد القـادر عـلى تَغيـير الثوابـت الْكَوْنِيّـة فَهـو خالقهـا ومُوجدهـا الأولُ؛ لذلـك فـإنَّ الْإِنْسَـان قـد خُلـق ضعيفًـا؛ بسـبب ضعفـه في تغيـير تلـك الثَّوابـت، وبمـا أن الْخَالِـق لا يخضـعُ لقوانـين مخلوقاتـه بالـضرورةِ؛ فهـذا يعنـي أن الطبيعـة التـي تحيـط بالْإِنْسَـان والمـكان والزمـان هـم مخلوقـون أيضًـا، فخالـق المـكان لا يحـدُّه المـكانُ، وخالـق الزمـان لا ينبغـي أن يخضـع للقوانـين الزمانيَّـة الملزمـة، فهـو مَـن أوجدهـا، لذلـك فالمخلـوق تبـعٌ للخالـق، والعكـس غـير صحيـحٍ، وإلا لفسـدت معادلـة الخلـقِ.

فالْخَالِـق الأوَّل هـو الوحيـد القـادر عـلى تغيـير الثَّوابـت الطبيعيـة، وأصـل العلاقـات التـي تحكمهـا، أمـا مُكتشِـف العلاقـة (المخلـوق، الإِنْسَـان)؛ فَلـه القـدرةُ فقـط عـلى تغيـير

(1) التَّهجـين: هـو عبـارة عـن إلقـاح بـين أفـراد سـلالتين نقيَّتـين متشـابهتَين بصفـةٍ واحـدة أو صفـاتٍ عديـدةٍ، والغـرض منـه هـو الحصـولُ عـلى جيـلٍ أو فـرد جديـدٍ يجمـع بـين صفـات الأبويـن معًـا، أو للحصـول عـلى فـردٍ يزيـد بصفاتـه عـلى أبويـهِ، حيـث كلَّـما كان الفرق أكـبر في الصِّفـات؛ كانـت نتائـجُ الهجـين أكـثر قـوةً ووضوحًـا، شرط أن يكونـا مـن صنـفٍ واحـدٍ.

شكل العلاقةِ، مع العجز عن تغيير أصولها وثوابتها.

وأضرِب مثالًا بسيطا على ذلكَ للتوضيحِ: السرعة=المسافة/ الزمن

إنّ الموجِد لهذه العلاقة بثوابتها ومتغيراتها، هو الوحيدُ القادر على التحكُّم بالخصائِص الأصيلة للمتغيراتِ، فهو من وضَعَ خصائص السُّرعة والمسافة والزمنِ، فبمقدوره قلب المتغيرات بتغيير الخصائصِ.

أما مكتشف العلاقةِ؛ فيكون عاجزًا عجزًا كليًّا عن تغيير خصائص الثوابتِ، وعجزاً مقيدًا في تعدي حدود المتغيّراتِ؛ لذلك فهو يخضع لهذِه الخصائص خضوعًا قسريًّا، ويستطيع التحكم في شكل العلاقةِ واشتقاقاتها فقط.

فلو فرضنا أن شخصًا أراد السَّفر إِلَى مدينةٍ تَبعُد عن مدينته مسافة ١٠ كم، وأرادَ الوصول إِلَى وجهتِه خلال ساعةٍ من الزمنِ؛ فإنَّ السّرعة التي يحتاجها للوصول إِلَى وجهته هي:

السرعة = المسافة/ الزمن

= ١٠ كم/ ١ ساعة

= ١٠ كم/ ساعة

فالقانون السَّابق، أو العلاقة الرياضيَّة السابقة التي اكتشفها الْإِنْسَانُ؛ يخضع لها خضوعًا قسريًّا، ولو كان هو الموجِد الأصيل لهذه العلاقة؛ لكان بمقدوره تغيير خصائصِها الثابتة (المسافة والزمن)، بحيثُ لا يخضع لِقسرها، ولكن في الواقع الملموس؛ بمقدرته أن يغيِّر الخصائص المتغيرةِ كالسرعة، وبشكل غير مطلقٍ، وذلك بسبب القوانين الفيزيائيَّة التي وضعها الْخَالِقُ، والتي تحكم علاقة الْإِنْسَان بالسُّرعة القصوى.

أما موجِد القانون بثوابتِه ومتغيّراته، والعلاقة الرياضية الجبريَّة أو الفيزيائية الطبيعيَّة التي تربط بينهم؛ فبمقدوره تغييرُ خصائص الثوابت؛ كأن يُقرِّب المسافةَ، أو يوقِف الزمن؛ لِيُغير الناتج النهائيّ، أو يطلق محدوديَّة المتغيرات بتغيير الخصائص الفيزيائيَّة، وبالتالي فبمقدوره تغيير العلاقة الجبريَّة بشكلٍ مطلقٍ، فهو لا يخضع

لقسريـة العلاقـة الرياضيَّـة، ولا لقسريـة الخصائـص الفيزيائيَّـة، فهـو خالـق الخصائـصِ، وموجـد العلاقـاتِ.

وأضرب مثـالًا آخـر عـلى ضعـفِ الْإِنْسَـان أَمـام الثوابـت الْكَوْنِيّـة، بالنظـر إِلَى حركـة الشـمسِ الدائبـة في طلوعِهـا مـن جهـة المـشرقِ، وغروبهـا في جهـة المغـربِ، ووقُـوف الْإِنْسَـان حائـرًا وعاجـزًا عجـزًا كليًّـا عـن تغييرهـا!

مـن هنـا يتَّضـح لنـا أن الْخَالِـق هـو الموجـد الأولُ الـذي لا يخضـع لقوانـين المـادةِ، ولا المـكان أو الزمـانِ، فهـو متعـالٍ عـن خضوعـه لمـا خلـقَ، ونسـتنتج أنَّـه الوحيـد القـادر عـلى تغيـير الثوابـت الْكَوْنِيّـة.

إِذن هـو الْخَالِـق، الأوَّل الـذي ليـس قبلـه شيءٌ، وبالتـالي هـو الآخـر الـذي ليـس بعـده شيءٌ، وهـو المتعـالِي القـادر عـلى كلِّ شيء.

ونسـتنتجُ -أيضًـا- أنَّ الْإِنْسَـان مخلـوقٌ ضعيـفٌ، محدود القـدرات الجسـدية والْعَقْلِيّة، ولـن يسـتطيع تغيـيرُ الثوابـت إلا بمـددٍ مـن خالقه.

- **الغيب وصفات الْخَالِق الْعَقْلِيّة:**

بمـا أنَّ للسـموات والأرض ومـا بينهـما موجـدًا أوَّل؛ فـما هـي صفـات ذلـك الموجـد التـي نسـتطيع التَّوصُّـل إليهـا مـن خـلال جهـاز الْوَعْـي والإدراكِ والعمليَّـة الْعَقْلِيّـة؟

ومـن ناحيـةٍ أخـرى؛ مـا هـو سـبب اعتبـار أخبـار الغيـبِ عنـصرًا أساسـيًّا في عمليـة البنـاء المعـرفيِّ؟

مـن المسـلمات البديهيَّـة أن حيـاة الْإِنْسَـان بـدأت بطريقـة غيبيَّـةٍ، ومَـن لم يسـتطِع إدراك كيفيـة نشـأتِه وبدايتـه الغيبيَّـة؛ لـن يسـتطيع -حتـمًا- معرفـة منتهـاهُ.

فـإذا لم يعـرِف مِـن أيـن وكيـف ولمـاذا خُلـق، ومَـن هـو خالقـه؛ فلـن يعـرف الغايـةَ مـن وجـودهِ، ولا القوانـين والتَّشريعـات التـي تُسـيِّر شـؤونَه، ولـن يعـرفَ إِلَى أيـن سـينتهي بـه هـذا الوجـودُ.

لذلـكَ؛ فبدايتنـا الغيبيَّـة تُحتِـم علينـا البحـث عـن مصـدرٍ غيبـيٍّ؛ ليجيبنـا عـن تسـاؤلاتٍ عــن ماضينـا وحاضرنـا ومسـتقبلنا ومصيرِنـا بعـد المـوت.

فإيماننـا بالغيـب هـو أمـرٌ قـسريٌّ وليـس اختياريًّـا، ذلـك أنَّ أخبـار الغيـب هـي مكـونٌ أسـاسي مـن مكونـات البنـاء المعـرفيّ، وليسـت أمـرًا نسـتطيع اسـتنباطَه بالْوَعْـي والإدراكِ، ولا بالعمليـة الْعَقْلِيّـةِ، بـل عـلى النقيـضِ؛ فـإنَّ أخبـار الغيـب هـي مصـدر مسـتودع لإثـراء العمليَّـة الْعَقْلِيّـة وكمالهـا، وليسـت أمـرًا يمكـن اكتسـابُه عـن طريـق التجـارب العلميَّـة أو الفَلْسَـفَة النظريـة.

فإنـكار الْإِنْسَـان للغيـبِ هـو إنـكارٌ لبدايتـهِ، ونهايتـهِ، ونظـام الوجـود بالكليَّـةِ، المبنـيِّ عـلى أسـاس الحقيقـة الغيبيَّـة البديهيَّـة المسـلمة، وهـو مـن أعتَـى وأشـدّ صـور مكابـرة الْإِنْسَـان عـلى ضعفـهِ، وكفـره بحقيقـةِ وجـوده، وجهـاز الْوَعْـي والإدراك الْإِنْسَـاني بمحدوديَّتـه يسـتطيعُ التَّعامـلَ مـع الأَحـداث الماديَّـةِ، ووظائـف الأدواتِ والعمليـات الميتافيزيقيـة فقـط، وليـس بمقـدوره اسـتنباطُ الغيبيـاتِ، ولكـن ومـن ناحيـة أُخـرى؛ لديـه القـدرةُ عـلَى اسـتنباط صفـات الْخَالِـق مـن خـلال الْوَعْـي الْوَظِيفِـيّ، والإدراك الفيزيـائي لإبـداع الْخَالِـق في خلقِـه، وبالتـالي يسـتطيعُ أن يصـلَ بالْإِنْسَـان إِلَى المصـدر الصَّحيـح لأخبـار الغيـبِ، التـي تطابـقُ تلـك الصِّفـات الإدراكيَّـة للخالـقِ، والتـي لا بـدَّ أن تكـون قـد وصلَـت إلى البـشر عامَّـةً، عـن طريـق مجموعـةٍ مـن البـشر المرسـلين، الذيـن اختارهـم الْخَالِـق لتبليـغ رسـالتهِ، وإرسـاء شريعتِـه، ومــن البديهــيِّ أن يكـون رسـل الْخَالِـق مدعمـين بقـدراتٍ خارقـة للمنطـقِ (معجـزات)، كدليـلٍ جـليٍّ أنهـم رسـل الْخَالِـق، ويحملـون أيضًـا رسـالةَ الْخَالِـقِ وتَشريعاتهـا؛ لتبليغِهـا إلى بقيَّـة خلقِـه.

ولـو كان رسـلُ الْخَالِـق مـن غـير الجنـسِ الْبَـشَرِيّ، كأن يكونـوا ملائكـةً؛ لقُـضي الأمـر بتحـوُّل الإيمـان الغيبـي إلى إيمـانٍ يقينـيٍّ، وهـذا يفسـد نظـام الإيمـان الغيبـيِّ المـراد تحقيقـه مـن الْخَالِـق في خلقـهِ، فعلـم الغيـب هـو مـن صفـات الْخَالِـق، وليـس لمخلـوقٍ أن يعلـم منـه إلا مـا يُطلعـه عليـه الْخَالِـق (الموجـد الأوَّل)؛ لذلـك فـإنَّ الصِّفـة الأخـرى مـن صفـات الْخَالِـق أنَّـه عـالم الغيـب بالكليـةِ، مـا كانَ، ومـا سـيكونُ، وبالتـالي هـو عـالمٌ مـا هـو كائـنٌ، ومشـاهِد أيّ علـمٍ في الحيـاة التـي نشـهدها فهـو (عَـالم الغيـب والشـهادةِ).

ومـن المتفـق عليـه فطريًـا أن نقـصَ صفـة جسـديةٍ أساسـية في المخلـوق يُعـدُّ اختـلالًا فيـه. والنقـص هُنـا يُحـدد بالصفـاتِ المرجعيـة المُحـددةِ منـذ بدايـة الخلـق، فالمرجعيَّـة بالنسـبة للصفـات الخلقيَّـة الجسـديَّة واضحـةٌ، بالرجـوع إِلَى الصفـات الانتفاعيـة للأغلبيَّـة، أي الصفـات التـي تؤهـل وتسـهِّل للإنسـان الانتفـاعَ بِمـا حولـهُ؛ لِيُحقـق مبـدأ الحفـاظ عـلى الجنـس الْبَشَرِيّ.

فـولادة شـخصٍ بيـدٍ واحـدةٍ أو عـين واحـدةٍ؛ يجعـل انتفاعَـه بِمـا حولـه أكـثر صعوبـة، فيكـون شـخصًا مختـلًّا جسـديًّا.

ومـن ناحيـةٍ أُخـرى؛ فـإنَّ حيـاة الْإِنْسَـان بقلـبٍ نفـسيٍّ غـير سـليمٍ -بسـبب نقـص المرجعيَّـة الغيبيَّـة- يجعـل منـه شـخصًا غـير قـادرٍ عـلى الانتفـاع بحياتـهِ بشـكلٍ ملائمٍ؛ ذلـك أنَّـه لـن يسـتطيع الإدراكَ، أو تكويـن المفاهيـم والمعـارف بشـكلٍ تـامّ الدلالـةِ؛ مـما يـؤدي إِلَى تشـوُّه دلالات المفاهيـم، وبالتـالي إِلَى **اختـلال العمليـة الْعَقْلِيّـة**.

لذلـك فإنـكار الْإِنْسَـان للغيـبِ لا يقـل شـأنًا عـن إنـكاره طلـوع الشـمسِ مـن جهـة المـشرقِ، وغروبهـا في جهـة المغرب، فالإنـكار لمـا هـو مـدركٌ، سـواءً أكان ماديًّـا محسوسًـا، أم مـدركًا وظيفيًّـا بحتميـة مسـلمةٍ، أو محاولـة تغيـيرهِ؛ يُعـدُّ اختـلالًا ونقصًـا عقليًّـا بالـضَّرورة.

وبِمـا أنَّ الْإِنْسَـان يتعامـلُ في حياتـه مـع ثوابـت ومتغـيراتٍ غـير مطلقـةٍ، لا يسـتطيع تغييرهـا أو العبـث بهـا فيزيائيًّـا بسـبب محدوديَّـة المنطـق الفيزيـائيِّ الـذي يحكمـه؛ فَلَـن يسـتطيع بالـضَّرورة الحتميَّـة فهـمَ جميـع أخبـار الغيـب بشـكلٍ منطقـيٍّ!

فالقـدرات غـير المنطقيَّـة للمخلـوق تخـرج مـن اللامنطـق إِلَى المنطـق المطلـقِ في عـالم الْخَالِـق، ومثـالٌ عـلى تلـك القاعـدة الفَلْسَـفِيّة: الخلـق مـن عـدمٍ غـير منطقـيٍّ للمخلـوق. ولكنـه منطقـيٌّ في عـالم الْخَالِـق.

لذلـكَ؛ فـإنَّ المنطـق الإدراكي الْبَـشَرِيّ غـير مطلـقٍ، وإنمـا محـدودٌ بحـدود قدراتـه الإدراكيَّـة، ضمـن إطـاريّ المـكان والزّمـان، فـإذا تعـدَّت الأحـداثُ المـكان والزمـان؛ يتعـدَّى فهمُهـا حـدود المنطـق الْبَـشَرِيّ غـير المطلـقِ، إِلَى منطـق الْخَالِـق المطلـق.

فالْخَالِـق هـو مـن وضـع المنطـقَ الـذي يحكـم الخلـقَ؛ لذلـك فهـو منـزهٌ متعـالٍ

عنـه بالـضرورة الحتميَّـة، فالبـشر لا يسـتطيعون صنـعَ شـمس! فهـذا غـير منطقـيٍّ بسـبب محدوديـة قدراتهـم، ولكـن الشـمس موجـودةٌ ومخلوقـةٌ، ووجودهـا مشـاهَدٌ ومنطقـي!

إذَن؛ فمـن المنطـقِ أن يكـون الْخَالِـق قـادرًا عـلى خلـق مـا هـو غـير منطقـيٍّ لـدى الْإِنْسَـانِ، وبالتـالي فَـإنَّ وجـودَ خلـقٍ كالملائكـة والجنـة والنـار أمـرٌ منطقـيٌّ، لا يمكـن للإنسـان إنـكارهُ فقـط لأنـه خـارج عـن حـدود منطقـه، فإنـكارُ أخبـار الغيـب التـي يعدُّهـا الْإِنْسَـان غـير منطقيـةٍ هـو بمثابـة إنـكار مـا هـو مشـاهَد، وخـارج عـن نطـاق فهـم الْإِنْسَـان المنطقـي الفيزيـائيِّ المحـدود، وبالتـالي هـو إنـكارٌ للوجـود.

بنـاء عـلى مـا سـبقَ؛ فـإنَّ إنـكار الغيـب أو تجاهلَـه سـيؤدي إِلَى فـراغ فكـريٍّ، يحـوي العديـد مـن الأسـئلة الجدليَّـة التـي لا يوجـدُ لهـا إجابـاتٌ منطقيـةٌ وواضحـةٌ، ضمـن إِطـارِ المنطـق الْإِنْسَـانيِّ المحـدودِ.

فلـن يعـرفَ الْإِنْسَـان مـن أيـن وكيـف ولمـاذا وُجـد، ولـن يعـرفَ مَـن الـذي أوجـدهُ، ومـا هـو مصـيره بعـد المـوت، وسـيبدأ بمـلءِ فـراغ المفاهيـم الغيبيَّـة في الوعـاء المرجعـيِّ بفرضيـاتٍ وتخيـلاتٍ وظنـونٍ، مـن القـشرة القلبيـةِ (منطقـة الهـوى)، والتـي تـؤدِّي بالـضرورة إِلَى خلـق تصـوُّراتٍ وفرضيـاتٍ مختلـةٍ ومشـوهةٍ، نابعـةٍ عـن أهـواء شـخصيَّة، تكـون نتيجتُهـا النهائيَّـة الضَّـلال والإضـلال.

فالإيمـان بالغيـب هـو كـمالٌ للمعرفـةِ، ومـن دونـه تكـون العمليـة الْعَقْلِيّـة ناقصـةً ومختلـةً.

أَمَّـا ذلـك الفريـقُ مـن الفلاسـفة الوجوديِّـين، ممَّـن توصلـوا لاسـتنتاجِ أنَّ للكـون خالقًـا؛ فَـكان عليهـم الاسـتمرارُ في البحـث عـن صفـاتِ الْخَالِـق الْعَقْلِيّـة، فلـو اسـتمروا لوصَلـوا بـلا شـك لأخبـار رسـلِه وكتبـه السـماويةِ، ولوجـدُوا إجابـةً عـن جميـع الأسـئلة الوجوديَّـة التـي حيَّرتهـم، ومـا زالـت تحيِّرهـم منـذ عقـودٍ طويلـةٍ، ولَتبيَّنـوا الفضيلـة مـن مصدرهـا، ولَعرفـوا تشريعاتهـا، ولَعرفـوا الغايـة مـن وجودهـم ومصيرهـم بعـد المـوتِ.

لكنَّهـم حمَّلـوا إدراكَهـم وعقولَهـم مسـؤوليَّةً تفـوق قدرتهـم، فضلُّـوا وأضلُّوا، والسـؤال

الـذي أُوجهـه للفلاسـفةِ أسـاتذة المنطق[1]:

هــل مــن المنطــقِ أن نمــلأ الفــراغ الغيبــيَّ بالفرضيــاتِ والخزعبــلات والتكهُّنــات اللامنطقيــة والتَّعايــش معهــا، أم قبــول منطــقِ الْخَالِــق الحكيــم المطلــق؟!

(حـالُ قانـون المنطـق كـما هـو حـالُ قانـون السـببيَّة، يخضـعُ لهـما المخلـوقُ، ولا يخضـع لهـما الْخَالِـق).

- **تنزُّه الْخَالِق عن النَّقيض:**

إنَّ خالــقَ الصِّفــة بالــضرورة هــو خالــقُ نقيضِهــا، وبالتــالي هــو لا يخضــعُ للنَّقيــضِ، وفاقــدُ الــشَّيء لا يعطيــهِ، فخالــقُ الحيــاة لا يخضــعُ للمــوتِ، إنمــا يمنــح الحيــاةَ، ويُخضِــع مخلوقاتــه للمــوت.

وأَطرحُ مثالًا للتوضيح: الغنى والفقر صفةٌ ونقيضٌ، ينفي أحدُهما الآخر.

فلـو اعتبرنـا أنَّ الذهـب والأمـوال بجميـع أشـكالها هـي صفة الـثراء والغنى، واسـتطاع شـخصٌ أن يكـون صانعًـا للذهـبِ والأمـوال مـن العـدمِ، مُتحكّـمًا بجميـع مصادرِهـا، سـتنتفى عنـه صفـةُ الفقـر بالـضرورة، ولكنـه يسـتطيع أن يجعـل مـن حولـه غنيًّـا أو فقـيرًا، فهـو المُتحكّـم بالأمـوالِ، ولا أحـد غـيره، فالْخَالِـق غنـيٌّ لا يفتقـرُ، وبمـا أنـه مانـح الحيـاة لمخلوقاتهِ؛ فهـو حـيٌّ لا يمـوتُ، وقـويٌّ لا يتعـبُ، وحفيـظٌ لا يسـهو ولا ينـسى، فالْخَالِـق منـزَّهٌ عـن الصِّفـات الناقصـةِ، ويتَّسـم بالكـمال.

ومــن ناحيــةٍ أخــرى؛ فــإنّ صُنــع الأحــداث الوجوديَّــة هــو مِــن أمــر المُوجــد الأول، وصانــع الأحــداث بمكانِهــا وزمانهــا، هــو بالــضرورة الحتميَّــة لا يضِّلهــا ولا ينســاها؛ لأنــهُ صانعها، وبالتــالي هــو غــير محكــومٍ بالزمــن الــذي يعــدُّ المقيــاس الرئيــسَ للنّســيان، ولا يضلهـا، فهـو صانـعُ المـكان، أمـا مـن وُجِـد في ضمـن النِّطـاق المـكانيِّ والزمـانيِّ؛ فهـو مُعـرَّضٌ للنقيـضِ، وهـو الضـلال والنسـيان؛ لأنـه محكـومٌ بالقوانـين المكانيَّـة والزمانيَّـة للخلـق.

(1) تعريـف المنطـقِ في ظـلِّ الفَلْسَـفَة الْوَظِيفِيّزيائيـة: هـو سـقفُ القـدرة الْبَشِرَيّـة في التَّـصرف بالثوابـت والمسـلمات الخلقيـة الماديَّـةِ، وتغيـير قوانينِهـا مـن ناحيـةٍ، والْوَعْـي الْوَظِيفِـيّ مـن ناحيـةٍ أُخـرى، ودائـرة المنطـق تتسعُ بتطـور المعـارف الْإِنْسَـانية مـن ناحيـةٍ، وأدوات الْإِنْسَـان الانتفاعيَّـة مـن ناحيـةٍ أُخـرى، وسـقف هـذا الاتِّسـاع محـدودٌ بمحدوديَّـة القـدرات الْبَشَرِيّـة، وإِطـاريّ المـكان والزمـانِ، التـي يحدِّدهـا الْخَالِـق فقـط، فهـو مـن أوجـدَ المنطـق.

فالصفـة النقيضـة النَّاقصـة هـي صفـةٌ يتصـف بهـا المخلـوقُ، ولا تتعـدى الْخَالِـق، وتنشـأ هـذه الصفـاتُ بسـبب مزيـجٍ مـن محدوديـة قـدرات المخلـوق المعرفيـة والفيزيائيـة، ومحدوديَّـة الإطـار الزمـاني والمـكانيِّ الـذي يحكمـه.

ولـو كانـت قـدراتُ المخلـوق مسـاويةً لقـدرات الْخَالِـق، وهـذا لا يسـتوي بالـضرورةِ؛ لانتفـت الصفـات النقيضـة الناقصـة مـن المخلـوقِ، مـما يعنـي أَنَّـه سـيتذكر ولا ينـسى، ويحيـا ولا يمـوتُ، ويغنَـى ولا يفتقـرُ، ويفعـل الخـيرَ، ولا وجـود للـشرِّ في حياتـهِ، وبهـذا ستفسـد معادلـة الخلـق كليًّـا.

- صفات الْخَالِق العقلية ومعضلة الخير والشرِّ:

الخـير والـشرُّ، هـذان المفهومـان حـيَّرا الْبَشَرِيّـة في أصلهـما، وحيكـت حولهُـما عديـدٌ مـن الخرافـاتِ والأسـاطير، وعديـدٌ مـن الأسـئلة التـي تبحـثُ عـن إجابـةٍ منطقيـةٍ، لا تـزال تحـوم في سـماء التكهنـاتِ، فآلهـة خـيرٍ مـن هنـا، وآلهـة شرٍّ مـن هنـاكَ، وعديـدٌ مـن الأسـاطير والفرضيَّـات والخزعبـلات التـي لا تسـتندُ في أصلهـا إِلَى مرجعيـاتٍ أساسـيةٍ، تقـود إِلَى إجابـةٍ منطقيـةٍ مـن خـلال عمليـةٍ عقليـةٍ، تخـرج بنتيجـةٍ مـن لـبِّ الْقَلْـب النَّفْسِيّ الْبَشَرِيّ.

وحـلُّ هـذا اللغـز المحـيِّرِ يكمـنُ بالرجـوع إِلَى الفطـرة الْبَشَرِيّـة، وهـيَ المرجعيـات الأساسـيّة غـير المكتسـبةِ، بـل المخلوقـة مـع خلـق الْإِنْسَـان، والنَّظـر إِلَى أصولهـا، لنجـد أنَّ الفطـرة الْإِنْسَـانية تدعـو للخـيرِ، وذلـك بشـعور الْإِنْسَـان التلقـائيِّ بـضرورة جلـب المنافـع ودفـع المضـارِّ، وتحـث الْإِنْسَـانَ عـلى الفضيلـةِ، والتـزام الأخـلاق الحميـدةِ، مـن خـلالِ ذلـك الشُّـعُور الفطـري بالرَّاحـة والسَّـعادةِ لفعـل الخـير والنـدم والألمِ لفعـل الـشرِّ.

وبنـاءً عليـهِ، وبمـا أنَّ فطـرة الْإِنْسَـان الخـيِّرة هـي مِـن صنـع الْخَالِـق، وبمـا أنَّ الْخَالِـق (الإلـه) لا يتَّصـف بالصفـة ونقيضهـا؛ إذَن فالْخَالِـق إلـهُ خـيرٍ مطلـق.

ولكـن، وبمـا أنَّ الْإِنْسَـان مخلـوقٌ عـلى فطـرة خـيرةٍ، والإلـه إلـه خـيرٍ مطلـق؛ فمـن أيـن أتَـت كل تلـك الـشرورِ في هـذه الحيـاةِ؟!

(إنَّ المتلقـي الأصيـلَ النقـيَّ لمدخـلاتٍ حميـدةٍ مـن مصـدر حميـدٍ لا بـدَّ لـه مـن أن يفـضي عـن مخرجـاتٍ حميـدةٍ فقط). والنَّاظـر بتمعـنٍ إلى القاعـدة الفَلْسَـفِيّة السـابقةِ

يسـتنتج أن هنـاك مصـدرًا ذميـمًا بمدخـلاتٍ غـير محمـودةٍ، يدفـع الْإِنْسَـان إِلَى أن يُفـضي بمخرجـات الـشر!

إذَن؛ فالإجابـة الْعَقْلِيّـة الوحيـدةُ لذلـك التسـاؤلِ أنَّ الـشر هـو عنـصرٌ ثالـثٌ، وُجـد مـع بدايـة وجـود الْإِنْسَـان عـلى هـذه الأرضِ، وهـو مـا يحـرّك الْإِنْسَـانَ، ويحثُّـه عـلى فعـل الـشرورِ، وعقليًّـا نسـتطيع أن نسـتنتج أنَّـه كيـانٌ لا يمكننـا رؤيتـه، بـل إنـه أشـبه مـا يكـون بالنفـس الْبَشَرِيّـة مـن حيـث قدرتنـا عـلى إدراكـه ، ويعمـل وظيفيًّـا في منطقـةِ القـشرة القلبيَّـة النَّفْسِـيّة المسـؤولة عـن الهـوى ونزعـات الـشرِّ، ويتقـنُ لغـة النفـس الْبَشَرِيّـة، ويدركُ خصائصَهـا ودوافعهـا، التـي تسـاعدُه عـلى تنفيـذ رغباتـهِ، وهـو بالـضّرورة كائـنٌ مخلـوقٌ، بمـا أنَّـه يقـع ضمـن نطاقـي المـكانِ والزَّمـان في هـذا الوجـود.

وبمـا أنَّ الْإِنْسَـان خُلـق حـرَّ الإرادةِ؛ فـإنَّ هـذا المصـدر الشِّريـر لا يجـبر الْإِنْسَـانَ عـلى فعـل الـشرِّ، وإنَّمـا يدعـوهُ إلى ذلـك فقـط.

وبنـاءً عـلى أن الْخَالِـق إلـهُ خـيرٍ مطلـقٍ؛ فـلا بـدَّ أن يكـون هـذا المخلـوق الشِّريـر ممقوتًـا مـن الْخَالِـق. فمـن أيـن أتى ذاك المخلـوقُ الـذي يعمل ضـدَّ مبـادِئِ الفطـرة الْبَشَرِيّة؟ ومـا دوافعـه لفعـلِ ذلـك؟ ومـا الدافـع المُحـرك لإرادة النفـس الْبَشَرِيّـة لفعـل الـشرورِ، التـي تجلـب المضـار عليـهِ وعـلى البـشر مـن حولـه؟

بمـا أنّ هـذا المصـدرَ غـير محسـوسٍ ماديًّـا، ومـدرك وظيفيًّـا؛ فلـن نسـتطيع إدراكـه عـن طريـق العلـوم التجريبيَّـة والْحِسِّـيّة، ولكـن عـن طريـق العلـوم الغيبيَّـة فقـط. ومـن ناحيـةٍ أخـرى؛ نسـتطيع التعـرُّف إلى بعـض خصائصـه عقليًّـا عـن طريـق تحليـل وظائفِـه، فلـو كان هـذا المصـدر إلهًـا كـما تقـولُ بعـضُ الأَسـاطير (آلهـة الـشرِّ)؛ لاسـتطاع تغيـيرَ طبيعـة النفـس الْبَشَرِيّـة، ولَاسـتطاعَ تغيـيَر الثوابـت والخصائـص الطبيعيَّـة بالكليـةِ، وَلَأضحَـت النفس الْبَشَرِيّـة تولـدُ بـشرٍّ كامـلٍ، لا يشـوبه شـائبةُ خـير، ولحصـل نـزاعٌ مـا بينـه وبـين إلـه الخـيرِ، كلٌّ يمـضي لتغيـير الخصائـص الطبيعيَّـة الثابتـة حسـب رغبتـه وأهوائـه!

وهنـا ستفسـد مسـألةُ الخلـق بشـكلٍ كامـلٍ لا شـكَّ فيـهِ، ولـن تسـتوي أبـدًا، فوجـودُ إلهَـين بـإرادات ورغبـاتٍ متناقضـةٍ، في خلـق صفـاتٍ متناقضـةٍ؛ يـؤدِّي إِلَى نفـي الصِّفـة

بالـضَّرورة الحتميَّـة[1]، وبالتَّـالي وجـود إلهـين يتعـاركان لإثبـات صفتَـين متناقضتَـين (الخـير والـشرّ)؛ سـيؤدي إِلَى حـربٍ أزليـةٍ، لا نهايـة لهـا؛ ذلـك أنَّ كلًّا منهـما حـيٌّ لا يمـوتُ، قـادرٌ عـلى تغيـير الثوابـت الْكَوْنِيّـة، وهـذا أمـرٌ خـارج تمامًـا عـن نطـاق المنطـقِ الْوَظِيفِـيّ في إبـداع الْخَالِق! فـلا يمكـن وجـود كيانـين بصفتـين متناقضتَـين، ولهـما القـدرة عـلى تغيـير الثَّوابـت الْكَوْنِيّـة مـن زمـانٍ، ومـكانٍ، وحيـاةٍ، ومـوتٍ في آن واحـدٍ[2].

وهـذا يقودنـا إِلَى أَنَّ الْخَالِـق إِلـهُ خـيرٍ (**واحـدٌ أَحـدٌ**)، بالـضَّرورة المنطقيَّـة الْوَظِيفِيّـة الْعَقْلِيّـة.

ومـن ناحيـةٍ أخـرى؛ فالكيـان ذو القـدرة الكاملـة اللامحـدودة؛ لا يحتـاج إِلَى مـن يوجِّهـه ويدعمـه في تحقيـق إرادتـهِ، وإذا سـعى إِلَى شريـكٍ سـيبحث عـن إلـهٍ مثلـهِ! ولكـن هـذا الأَمـر غـير منطقـيٍّ بالـضرورةِ، كـما أسـلفت في إثبـات الوحدانيـةِ، فـلا يوجـدُ إلا إلـهٌ واحـدٌ!

ولـو أرادَ شريـكًا؛ لـكان ذلـك بالـضّرورة الحتميـة خلقًـا مـن خلقـهِ، ووجـود شريـكٍ في أصلـه ينبـعُ مـن حاجـة الإلـه إِلَى كيـانٍ بخصائـص مختلفـةٍ، تسـاعده عـلى تنفيـذ إرادتـه.

والشَّريـك هنـا سـيكون بالـضرورة الحتميَّـة مـن خلـق الإلـهِ، وبخصائـص مختلفـةٍ عـن الإلـه ذاتهِ، وهـذا أمـرٌ يخالـف المنطـقَ؛ لأنَّ فاقـد الـشيءِ لا يعطيـهِ، فلـن يخـرج خلـقٌ يملـك قـدراتٍ مختلفـةً، أَو تفـوق قـدرة خالقه.

وبمـا أنَّ الْخَالِـق يملـكُ الخصائـص بكمالهـا، ويتنـزَّه عـن النقائـصِ، فالشَّريـك لـن يسـدَّ نقصًـا، أَو يعـين عـلى تنفيـذ الإرادة الإلهيَّـةِ، فلـن يكـونَ هنـاك أَيُّ هـدفٍ أَو غايـةٍ منطقيَّـةٍ البتَّـة؛ لوجـود شريـكٍ للخالـقِ؛ لذلـكَ فالْخَالِـق هـو (**خالـقٌ واحـدٌ لا شريـك لـه).**

إذَن، وبالاسـتناد إِلَى التَّسلسـل المنطقـي السـابقِ؛ نُدرك أنَّ ذلـك الكيـان الداعـي إِلَى الـشر ليـس خالقًـا، ولا شريـكًا في ملـكِ الْخَالِـقِ، ولـن نسـتطيعَ أن نـدرك ماهيَّـة ذلـك المخلوقِ، وعلاقتـه بالنفـس الْبَشَرِيّـةِ، وسـبب وجـودهِ وغايتـه عـلى هـذه الأرضِ؛ إلا مـن مصـدرٍ واحـدٍ، ألا وهـو أخبـار الغيـب.

---

(1) الضرَّورة الحتميَّة: هي نتيجةٌ نابعةٌ عن مسلَّمةٍ إدراكيَّةٍ، أَو عن استنتاجٍ عقليٍّ محكومٍ بإطارٍ فَلْسَفِيّ منطقيٍّ.

(2) استنتاج صفاتِ الْخَالِق تقعُ ضمنَ دائرة المنطق الْبَشَرِيّ بغرضِ الاستدلال، أما قدراتُ الْخَالِق فتتعدَّاها.

وبما أنَّ الْخَالِق إلهُ خيرٍ؛ إذَن هو خالقٌ عادلٌ ورحيمٌ، فتلك صفاتٌ خيريةٌ؛ لذلكَ لا بدَّ أن يخبر الْإِنْسَان عن هذا المخلوقِ الشريرِ، وغايتهِ، وسبب وجودهِ، وكيفية مواجهتِه ودحرهِ عن طريق الوحي الإلهيِّ، وأخبار الغيب.

ولا بدَّ من التبعيَّة والعبادة من المخلوق للخالقِ كضرورةٍ منطقيَّةٍ، فهي السبيل الوحيد والأسمى للتقرُّب من الْخَالِقِ، وطلب العون منهُ؛ لدحر ذلك الشرِّ. فالعبادة لن تكون تسلُّطًا من الْخَالِق على مخلوقاتهِ، إنما هي ضرورةٌ للتقرُّب من الْخَالِق، وطلب العون منه، فالصلة في الخلق بين الْخَالِق والمخلوق أمرٌ حتميٌّ، ودونه لن يكونَ هناك معنى أو غايةٌ من الخلق.

إذَن، لكي تستوي معادلةُ الخلقِ؛ يجبُ أَن يكون المخلوق عابدًا، والْخَالِق معبودًا، ويجب أن يكون هناك كيفيةٌ واضحةٌ للعبادةِ، وتلك العبادات هي منفعةٌ للمخلوقِ، تؤدِّي إِلَى التقرب من الْخَالِق، ولن تزيدَ تلك العبادات من ملكِ الْخَالِق شيئًا، ولن تنقص منه شيئًا، إنما هي وسيلةٌ لرضا الخالقِ وثوابِه ومحبَّتِهِ للمخلوقِ عند طاعته، وغضبِه عليهِ ومعاقبته عند معصيتهِ.

ومن ناحيةٍ أُخرى، وبما أنَّ الْخَالِق إلهُ خيرٍ؛ فهو غفورٌ بالضَّرورة، فوجود الصِّلة والعبادات بين الْخَالِق والمخلوق أمرٌ ضروريٌّ للمخلوقِ في طلب المغفرةِ من الْخَالِق عند مخالفة أمرهِ بإتيان الشُّرور.

ولا بدَّ من فرض نظام الثَّواب على فعل الخيرِ، والعقابِ على فعل الشرِّ، وبذلك يكون العقابُ خيرًا على الْبَشَرِيّة، وتحذيرًا من الْخَالِق للمخلوقِ؛ للابتعاد عن الشُّرور، وسيكون ذلك دليلًا قطعيًّا أن الْخَالِق إلهُ خيرٍ مطلقٍ، حتى في عقابه[1].

ولعلَّ ما يريده الْخَالِقُ من المخلوق أن يتحلَّى بصفات الخير، ولكن ليس بالإجبارِ، وإنما بالإيمان الغيبيِّ، وبمحض الإرادة الحرَّة التي منحه إياها.

(1) بما أنَّ نظام الخلق هو نظام إيمانٍ غيبيٍّ؛ فلن يكون العقاب والثَّواب بشكل لحظيٍّ ومباشرٍ بنسبة كاملةٍ؛ لأنَّ ذلك سيؤدي إِلَى انتفاء صفة الإيمان الغيبيَّةِ، بحيث يسعى الْإِنْسَانُ إِلَى فعل الخيرِ، ليس إيمانا بالْخَالِق، بل للحصول على مكاسب ماديةٍ مباشرةٍ، ويبتعد عن فعل الشرِّ، ليس إيمانًا بالْخَالِق، بل ليتجنَّب العواقب المباشرة. إذَن فَتأجيل العقاب والثَّواب يتناسبُ مع نظام الخلقِ، ومطلب الإيمان الغيبيِّ، ويدلُّ دلالةً قطعيةً على وجود بعثٍ وحسابٍ وجزاءٍ بعد الموت.

وهنـا وجـبَ التنبيـه أنَّ الإرادة الحـرة والـشَّر الـذي يسـكن النفـس الْبَشَرِيّـة (منطقـة الهـوى) في الْإِنْسَـانِ؛ هـما المحـرِّكان الأساسـيَّان لفعـل الـشرورِ، ولكـن السُّـلطة العليـا في الاختيـارِ واتخـاذ القـرار تكـون **لـلإرادةِ الحـرَّة** بشـكلٍ رئيـسٍ!

ولكـن، وبمـا أنَّ الْخَالِـق إلـه خـيرٍ مطلـقٍ؛ فـما هـو المنطـقُ في وجـود الـشُّرور في هـذا الخلق ؟

والإجابـة وبـكلِّ بسـاطةٍ؛ أنـه لـولا وجـود لِلـشرِّ لمـا عرفنـا معنـى الخـير! لذلـك فالـشر وُجِـد لأنـه نقيـض الخـير فقـط! وأضرب مثـالا للتوضيـحِ:

العـدل صفـة خيريـةٌ، أوجدَهـا الْخَالِـقُ، وأمـر عبـاده بِالتزامهـا، فبمجـرد أن يوجـد الْخَالِـق مبـدأ العـدل سينشـأ النَّقيـضُ، ألا وهـو الظلـم؛ بسـبب امتـلاك الْإِنْسَـان الإرادة الحـرَّة، فلـولا وجـود الظلـم لمـا فهمنـا معنـى العـدل. وبنـاء عـلى ذلـكَ؛ فـإنَّ الْخَالِـق يقـوم بتحذيـر مخلوقاتـه مـن الصِّفـة الشريـرة النقيضـةِ بشـكل مبـاشرٍ، ولَـن يجـد المخلـوق مَهـمَا بحـث في أوامـر الْخَالِـق أمـرًا يحـثُّ عـلى الصِّفـة ونقيضهـا، إنمـا سـيجد حثًّـا وثوابًـا عـلى فعل الصِّفـة الخيريـة، وتحذيـرًا وعقابًـا عـلى فعـل نقيضهـا الشِّريـر.

لذلـكَ؛ فـإنَّ الْخَالِـق لا يـأتي بالـشرِّ إطلاقًـا، ووجـود الـشرِّ مـا هـو إلا نتيجـة حتميَّـة لوجـود الخـيرِ، والمخلـوقُ هـو المسـؤولُ عـن الاختيـار بـالإرادةِ التـي منحَـه إياهـا الْخَالِـقُ، فالْخَالِـق لا يظلِـمُ، ولكـنَّ النـاسَ أنفسـهم يظلمـون.

تُشـكِّل تلـك الاسـتنتاجاتُ خـطَّ النهايـة للعمليَّـة الْعَقْلِيّـة، بنـاءً عـلى المرجعيـات المتاحـة في لـبِّ الْقَلْـب النَّفْسِيّ، وللمـضيّ قدمًـا؛ يجـب الحصـولُ عـلى أخبـار غيبيَّـةٍ تؤكِّـد صحـة اسـتنتاجاتنا الْعَقْلِيّـة، وتمنحنـا إجابـاتٍ واضحـةً عـن ذلـك الـشرِّ، وسـببَ وجـودِه، وكيفيَّـةَ محاربتـهِ، وهـذا مـا سـنحصلُ عليـه في الفصـل الثالـث، مـن خـلال نقـاشي مـع صديقـي آدم الخبـير في علـم مقارنـةِ الأديـان.

- **عدل الْخَالِق ورحمتُه:**

بعـد أن أَثبتنـا الخيريَّـة المطلقـةَ للخالـقِ؛ نسـتنتجُ أنَّـه إلـهٌ عـادلٌ؛ لأنَّ العـدل صفـةٌ خيريـةٌ، نسـتطيع ملاحظتهـا مـن خـلال منـحِ الْخَالِـق للإنسـان حريَّـة الاختيـار بـين فعـل

الخير والشرِّ، ومنح الْإِنْسَان مرجعيةً فطريَّةً تعينُه على الخيرِ، إذَن فالْخَالِق إلهٌ عادلٌ، ومن رحمته أن ينزل أخبارًا غيبيةً للإنسان عن طريق الرُّسل والأنبياء والكتب السماويَّةِ؛ لتوضِّح لهم الغاية من وجودِهم.

لذلكَ؛ فإنَّ الاستمرارَ في استنتاج صفات الْخَالِق عقليًّا، من خلال المنطقِ الْوَظِيفِيّ؛ سيقودُنا إِلَى معرفة مصدرِ الغيب الإلهيِّ الصحيحِ، الذي وصل إلينا عن طريق الرُّسل والأنبياء، ومن ثم سنستطيع إيجادَ إجاباتٍ لكلِّ الأسئلة التي عجز جهازُ المعرفة الْبَشَرِيّ عن إيجاد إجاباتٍ واضحة لها؛ بسبب صفتها الغيبيَّةِ[1].

وبما أنّ الْخَالِق إله خيرٍ عادلٌ؛ فسيُثيب على فعل الخيرِ، ويعاقب على إتيان الشرورِ؛ لذلك لا بد من البعث بعد الموتِ، ولا بدَّ من يوم حسابٍ تُجزى كلُّ نفسٍ فيه ما كسبت.

فمَن أنكرَ وجودَ الْخَالِق في الحياة الدنيا، أو مَن أقرَّ بوجودهِ، ولكن لم يلتزم أوامرَه، ويجتنب نواهيه؛ سيُعاقبُ، ومن آمَن بالْخَالِق، واتَّبع أوامرَه، واجتنبَ نواهيه سيُثاب، لذلكَ فإنَّ شرط الحصول على الثوابِ هو **الإيمانُ بالْخَالِق والعمل الصَّالح**.

ومِن الدَّلائل القطعيَّة على وجود البعث ويوم الحساب والثواب والعقابِ؛ هو وجود ذلك الكائن الداعي للشرِّ، الذي حارب الخير في الدنيا، وعاث بالأرض فسادًا، فوجودُ العقاب له ولأوليائِه هو قمةُ العدل الإلهيّ، ووجود الثَّواب للمؤمنين بالْخَالِق، ووجود العقابِ للذين يأتون الشُّرور هو أكبر دافعٍ للإنسان على فعل الخيرِ، والابتعاد عن الشرِّ في الحياة الدنيا؛ لتحقيق مبدأ الخير الإلهيِّ، فالحساب والعقاب ليس بظلمٍ، بل هو قمة العدل الإلهيِّ، وهو رحمةٌ للبشريةِ، وتحقيقٌ للخيريَّة والعدالة علَى وجه الأرضِ، ولا بدَّ أن يتلازم العملُ الصالح الخيريُّ مع صفة الصبرِ لدَى المؤمنينَ، ذلك أنَّ هذه الأعمال الصالحة تحتاجُ إِلَى جهدٍ كبيرٍ لمقاومة الأَهواء والرَّغبات.

ومن ناحيةٍ أُخرى؛ فإنَّ الْخَالِق -أَيضًا- صبورٌ على عباده العاصينَ، يمنحهم فرصةً ليتوبوا في الدنيا، أو أن يأخذهم بعقابٍ شديدٍ دنيويٍّ، أو يُؤخّرهم ليوم الحسابِ، وربما

(1) إنَّ المرحلة الأولى الغيبيَّة التي مرَّ بها الْإِنْسَان، هي مرحلةُ ما قبل الولادةِ، ولن يتذكَّر منها إلا ما أخبرته به أخبارُ الغيبِ، وعدم التذكُّر لا يعني بالضرورة عدم حصول الحدث للموجود!

الاثنين معًا! وهذا يعود لتقديره الحكيم، فهو إلهٌ **عادلٌ، رحيمٌ، صبورٌ، حكيمٌ، غفورٌ، وشديدُ العقاب**.

- **الإرادة والمقدرة:**

لا بدَّ أن ندركَ أنَّ الإرادة بأيِّ حالٍ من الأحوال لا تتعدَّى سلطان المقدرةِ، ولهذا فَإنَّ الْإِنْسَان يصطدم بواقع ضعفهِ أمام خالقهِ، عندما يحاول الوصولَ إلى أمرٍ تمليه عليه إرادتهُ، ولكنه لا يستطيعُه بسبب محدوديَّة قدراته، أما الْخَالِق فهو مُوجدُ الإرادة والمقدرة، ولا تحدُّه حدودٌ، فهو قادرٌ قاهرٌ فوق عبادهِ، فعَّالٌ لما يريدُ.

ولعلَّ وجود الموت دلالةٌ قطعيةٌ على قدرة الْخَالِق وقهره فوقَ عباده، ذلك أنه لا يوجد إنسانٌ يستطيع التنبُّؤ بلحظة وفاتهِ، فهي أمرٌ غيبيٌّ بحتٌ مسلَّمٌ به، وهذا إن دلَّ على شيءٍ إنما يدلُّ على ضعفِ الْإِنْسَان، وقدرة الْخَالِق اللامحدودة، وأنَّ الْإِنْسَان مهما أوتيَ من علمٍ؛ فلم يُؤتَ من العلم إلا قليلًا.

ومن ناحيةٍ أخرى؛ هل يستطيعُ الْإِنْسَان معرفةَ ما سيحدثُ له بعد وفاته باستخدام عقله والعلوم النظريَّة والتطبيقية؟

بالتأكيد لا، فقد حاول الْإِنْسَان منذ القِدَم حلَّ لغز الموتِ، ومحاولةَ إيجاد طريقة للخلود أو إحياء الموتى، ولكنَّه لم يستطع ولن يستطيع؛ ذلكَ أنَّ تلك الأمور تقع تحت قدرة الْخَالِقِ، وليست تحت تصرُّف إرادةِ المخلوق.

ومن ناحيَةٍ أُخرى؛ فإنَّ الْإِنْسَان لا يملك ماضيهِ؛ لأنه لا يستطيع تغييرهُ، ولا مستقبلَه؛ لأنه لا يستطيع التَّنبؤَ بهِ، والحدُّ الفاصلُ ما بين ماضيه ومستقبله هو لحظاتٌ من الحاضر، وهي رهن إرادة الْخَالِق؛ لذلك فإن الْإِنْسَان مخططٌ وليس مدبِّرًا للأمور، وليس له أن يأتي بفعلٍ في هذه الحياة إلا بحُريَّةٍ مقيدةٍ بإرادة الْخَالِق ومقدرته المطلقةِ، فالْإِنْسَان مخيرٌ بإرادته وتخطيطه الجزئيِّ، ومسيَّرٌ بتدبير الْخَالِق الكليِّ، ذلك أن الأفعال والقرارات يحتاجان إِلَى الوقت والأسبابِ؛ لكي يصبحا أمرًا واقعًا، والوقت والأسبابُ هما منحةٌ من المدبِّر لحساب المخطِّط، وهذا يقودُنا إِلَى أن الْإِنْسَان لا يشاءُ إلا أن يشاءَ خالقُه، وأنَّ الْخَالِق هو مسبِّبُ الأسبابِ، والقادرُ على كلِّ شيءٍ؛ لهذا فالْإِنْسَان

لـن يسـتطيعَ أن يعيـش دون قـوةٍ عليـا، تُدبِّـر شـؤونه لحظيًّـا.

ولـكي يسـتقيم التَّدبـير مـع التَّخطيـطِ[1]؛ فعبـادة المدبّـر تـؤدي إِلىَ التَّوفيـق في التخطيـطِ، واختيـار الأفضـل للمخطّـط، ولـن تتعـدَّى مشـيئة المخلـوق مشـيئةَ خالقـه إطلاقًا، ومـا قـد يعتقـده الْإِنْسَـان خـيرًا في ظاهـره قـد يكـون شرًّا في باطنـه، والعكـس صحيـحٌ؛ وَذلـك بسـبب علـم الْإِنْسَـان المحـدودِ، وعلـم الْخَالِـق المطلـق؛ لذلـك فـإنَّ **الإيمـان بالقضـاء والقـدر** يعـدُّ مطلبًـا أساسـيًّا في نظـام الخلـق المعتمـدِ عـلى مبـدأ الإيمـان بالغيـب.

- **الْخَالِق المعبود:**

كـما ذكـرتُ آنفًـا أنَّ العبـادات هـي جـزءٌ لا يتجـزَّأ مـن معادلـة الخلـقِ ولهـا أهميـةٌ كبـيرةٌ، مـن أبرزهـا:

١- الانصيـاعُ لأوامـر الْخَالِـقِ؛ ذلـك أنَّ الْإِنْسَـان مخطِّـطٌ فقـط، وليـس بالمُدبِّـر، وتدبـير شـؤونه هـو أمـرٌ بيـد خالقـهِ؛ لذلـك فالْإِنْسَـان يحتـاجُ خالقـه في كل حـينٍ ولحظة. فلـو قلـتُ أني الآن أملـك شـيئًا؛ فـإنَّ الأمـرَ بعـد كتابتـي كلمـة شيءٍ أصبـح ماضيًـا، وما كان بمقـدوري أن أكمـلَ مـا بعـد كلمـة شيء إلا بمسـتقبلٍ وحـاضر لحظـيٍّ، قُـدِّر لي مـن خالقي. فالحـاضر لحظـاتُ إدراكٍ عابـرَة مـا بـين المـاضي والمسـتقبل، مقـدَّرةٌ بـإرادة الْخَالِقِ.

٢- الاعـترَاف بفضـل الْخَالِـق ونعمـهِ، وهـذه النِّعـم لا تُحـصى، وشـكره بالمقـام الأوَّل لِأنَّـه خلقـهُ، وصـوَّره في أَحسـن صـورة، كإنسـانٍ مكـرمٍ بحريـة الاختيـارِ، وأن سـخَّر لـه مـا في الأرض جميعًـا لخدمتـهِ، ورزقـه مـن الطيبـات، وشـكره عـلى أخبـار الغيـبِ التـي وصلـت عـن طريـق الوحـيِ والرسـلِ، والتـي تمنـح الْإِنْسَـان تصـورًا كامـلًا عـن خلقـهِ، وخلـق مـا في الوجـود مـن حولـهِ، وعـن الغايـة التـي خُلـق لأجلهـا، وشـكره عـلى بيـان الطَّريقـة المُثـلى لتحقيـقِ هـذه الغايـةِ، وشُـكره عـلى الثَّـواب عـلى فعـل الخـيرِ، والعقـاب عـلى فعـل الشَّرِّ.

شـكره أن شرع العبـاداتِ؛ لتكـون صلـةً توطِّـد وتعـزز العلاقـة بـين الْإِنْسَـان وخالقـهِ،

(1) الإرادة في التَّخطيـطِ، ومـن ثـم التَّدبـير، فالفعـل، وهنـا تكمـن الرِّعايـة الإلهيَّـة في تدبـير الشـؤون، فكلـما زادت صلـة الْإِنْسَـان بخالقِـه؛ دبَّـر لـه أحوالـه عـلى أحسـن حـالٍ، وكلـما بَعُـدت العلاقـة بـين الْإِنْسَـان وخالقـهِ يضلُّـه الْخَالِـق عـلى علـمٍ، فَـلا هـادي لـه إلا خالقـه، فالتَّدبـير هـو تهيئَـةُ الظـروف الملائمـة لإنجـاح أو إفسـاد التَّخطيـطِ، أي تسـبِيب الأسـبابِ.

شكره على العلم الذي منحه إياهُ؛ لتسهيل حياتِه، وطريقًا لليقين بعظمة خالقِه، شكره على عدلهِ بوجود يومٍ للحسابِ، فيه يُكافَأ المؤمنُ المحسنُ، ويُعاقَب المسيء والظالمُ.

شكره على أنَّه إله خيرٍ، غفور يفتح باب التوبةِ للمسيءِ، ويغفرُ له ذنبهُ؛ لذلك فإنه -وعقليًّا- كان لا بد أن تبدأ صلاةُ الْإِنْسَان مع خالقه بالاعترافِ له بكبريائهِ، وتعاليهِ على جميع مخلوقاته بـ (الله أكبر)، فهي عبارة توحيدٍ خالصةٌ، واعترافٌ كاملٌ بأنَّ الْخَالِق أكبر من أي شيءٍ آخر أن يُعبد. ومن ثم يلي التَّكبيرَ (حمدُ الْخَالِقِ) على رحمته بعبادهِ، بأن جعل لهم منهاجًا وشرعةً تنظِّم شؤون دنياهم، وتوضِّح لهم مصيرهم يومَ الحساب.

٣- طلب العون من الْخَالِق (إله الخير)، في ضحدِ الشرِّ، الذي يسكن منطقة الهوى في النفس الْبَشَرِيّةِ، فالْإِنْسَان بقدراته الْعَقْلِيّة المحدودةِ خُلق ضعيفًا، وما يجعله قويًّا متماسِكًا في دحضِ الشرِّ؛ تقربُه وتعلقُه بخالقه (إله الخير)؛ لذلك فإنَّ الْإِنْسَان يحتاج إلى مَن يعينه على فعل الخيرِ، ومحاربة الشرِّ والهوى، وخير معينٍ للإنسان هو خالقُه.

وهنا تتجلى صفٌة عظيمةٌ من صفات الْخَالِق، ذلكَ أنَّ الْإِنْسَان مطالبٌ بعبادتهِ، والتقرب منهُ، وشكره على نعمهِ، وفي المقابل؛ يمنحُه الْخَالِق رفعةَ شأنٍ وثواب على عبادتِه، فهو خالق رحيمٌ ومعينٌ، حيٌّ قيومٌ، يعزُّ من يشاءُ، ويذل من يشاءُ، وهو على كل شيءٍ قدير.

- **الْخَالِق ليس له صاحبة أو ولد**

خالق الشَّهوة والرغبة الجنسيَّة هو نفسه مانحُ الصفة التي تشبع تلك الرغبةَ، وهو الذي أودعها في الْإِنْسَانِ؛ لذلك لن يكون تبعًا لتلكَ الشهوة، كيف وهو مَن يملك مفاتح إشباعها، فهذا منافٍ للمنطق!

وهذه الصفةُ المُذلَّة للنفس نسبيًّا، وأقول هنا نسبيًّا لأنها نافعة وضروريةٌ لحفظ الجنس الْبَشَرِيّ على وجه الأرض من جهةٍ، وإشباع الرغبة الجنسية من جهةٍ

أُخرى، فهـي مذلـةٌ وضارة إذا استخدمت خـارج نطـاق العلاقـة الزوجيَّـةِ، والشـواهد عـلى ذلـك كثـيرةٌ، وأذكـر منهـا عـلى سـبيلِ الذِّكـر لا الحـصر:

الأمـراض الجنسـيَّة الجسـديَّة، والأضرار النَّفْسِـيّة المصاحِبـة لهـا، وحفـظ النَّسَـب، ومـا يرافقـه مـن ضيـاعٍ للحقـوقِ، والمـيراث الْعَاطِفِـيّ والمـاديّ بـين الآبـاء والأبنـاء[1].

إذن؛ فالْإِنْسَـان يحتـاج إِلَى العلاقـة الزوجيَّـةِ للأسـبابِ التـي ذكرتُهـا، وحاجتـه للأبنـاء تـأتي لأسـبابٍ متعـددةٍ أيضًـا، وأذكـرُ منهـا:

١- النِّهايـة الحتميـة بالمـوت للإنسـان تُحتـم عليـه التَّفْكِـير في ابـنٍ يـرثُ اسـمَه، ويكمـل مـا بـدأه والـده في حياتـه.

٢- فضـول استشـعار عاطفـة الأبـوة، وهـذا الشُّـعُور يتشـكَّل لـدى الْإِنْسَـان مـن مصدريـن أساسـيَّين؛ المرجعيَّـة الفطريـة الْإِنْسَـانية، والفضـول في ممارسـة مـا يمارسُـه مَـن حولـه مِـن البـشر.

٣- إشـباع رغبـة التَّفاضـل والتَّمايـز عـن أقرانـه عـن طريـق التَّكاثـر، ذلـك أن التكاثـر يَمنـح الْإِنْسَـان شـعورًا بالقـوة والعـزة والتَّميُّـز.

٤- العـون، وهـو مِـن الأمـور الأساسـيَّة التـي تدعـو الْإِنْسَـانَ إِلَى الإنجـاب، ذلـك أن الْإِنْسَـان يعلـم أنـه مهـما طـالَ بـه العمـرُ؛ فَمصـيره الحتمـيُّ هـو المـوتُ أو المـرضُ؛ لذلـك يحتـاج إِلَى إنسـانٍ مـن صلبِـه، يعينُـه إذا مـرِضَ، ويرثُـه إذا مـات.

وعنـد النظـر إِلَى مـا تقـدمَ مـن أسـبابٍ تجعـل الْإِنْسَـان يتَّجـه نحـو الإنجـابِ؛ نجـد أن تلـك الأسـبابَ يتميـز بهـا المخلـوقُ، ويترفـع عنهـا الْخَالِقُ؛ ذلـك أن الْخَالِـق حـيٌّ لا يمـوتُ، فهـو لا يحتـاجُ مَـن يرثُـهُ، والْخَالِـق مانـحٌ خلقَـه الصِّحـةَ، ولا يجتمـع فيـه ضـدان، فهـو مرفَّـع عـن المـرضِ، وبذلـك لا يحتـاجُ مَـن يُعينـه.

والْخَالِـق هـو مالـك العـزَّة والكبريـاءِ، فهـو خالـقُ كل شيءٍ، ولا يحتـاج ولـدًا لإثبـات عزتـهِ، فهـو منـزَّهٌ متعـالٍ عـن ذلـك.

(1) فخالـقٌ يحفـظ حقـوق الأطفـال قبـل ولادتهـم هـو إلـه خـير حفيـظٌ، وهـذا يوصلنـا إِلَى صفـةٍ أُخـرى للخالـقِ، وهـيَ الحفيـظ.

والرغبـات صفـةٌ مخلوقـةٌ، وهـي أمـر يتصـف بـه المخلـوقُ، وبالتـالي فالْخَالِـق مترفـعٌ عــن تلـك الصفـاتِ، فالْخَالِـق لا يخضـع لصفـة مخلوقـةٍ بالـضَّرورة المنطقيَّـة؛ لذلـك فـإنَّ الْخَالِـق مرفـعٌ عـن أن يتَّخـذ ولـدًا أَو صاحبةً، فهـو مالـك العـزةِ، والمتكـبِّر، وهـو المتعـالي عـلى صفـاتِ عبـاده.

الحكمة الْعَقْلِيّة من الخلقِ:

إنّ مِـن أَسـمى الأهـداف التـي يسـعى إلَيها الْإِنْسَـانُ هـي الوصـولُ إلى الحكمـةِ، وهــي مرحلـة الكـمال المعـرفّي، الـذي يـؤدي إِلَى تقديـم الصـواب في الحكـم عـلى المصالـح والأهـواء الشـخصيَّة، وبمـا أن الصفـة الحميـدةَ يسـتطيع الْإِنْسَـان الوصـولَ إليهـا في مرحلـةٍ مـن المراحـل، إذَن فهـي صفـةٌ مـن صفـات الْخَالِـق؛ ذلـك لأنَّـه -وكـما ذكـرتُ- (فاقـد الـشيء لا يعطيـهِ)، وهـذا يقودنـا إِلَى اسـتنتاج أَن الْخَالِـق يملـك الحكمـة التامَّـة، وبالتـالي فالحكيـمُ بصفـة الحكمـة التامَّـة لا يلهـو، وإنمـا يخلـق لحكمـةٍ أرادهـا مـن وراء خلقه عقليًّـا ومنطقيًّـا، وتلـك الحكمـة تكمـن في السـببِ الرئيـسِ للوجـودِ وهـو إحقـاق الخـيرِ، ودحـر الـشرِّ، عـن طريـق الإرادة وحريـة الاختيـار، التـي أودعَهـا في البـشر عـلى وجـه الأرضِ، ومـن الواجـب أن نذكـرَ في معـرض هـذا المبحـثِ أنَّـه لا مـكان للهـو البتَّـة في منبـع الحكمـةِ؛ لأنـه لا تُوجـدُ صفتـان متناقضتـان في الـذاتِ الإلهيَّـة كـما أَثبـتُّ سـابقًا!

ومـن ناحيـةٍ أُخـرى؛ فاللهـو غايـةٌ لمـن يمـل! والملـل يصيـب المخلـوقَ عنـد العجـزِ عـن متابعـة أمـرٍ معـينٍ، إمـا بسـبب تكـرار المحـاولات الفاشـلةِ، أو بسـبب مـرور زمـنٍ طويـلٍ عـلى القيـام بالعمـلِ نفسِـه، بالطريقـة والأسـلوبِ نفسِـه، وذلك بسـبب قدراتـه المحـدودة في التَّعامـل مـع المتغـيراتِ، وعـدم القـدرة عـلى تَغيـير الثوابـت الزمنيَّـة، وخضوعـه لهـا جبريًّـا. وهـذان أَمـران يتنـزَّه عنهـما الْخَالِـقُ؛ لسـببين رئيسَـين:

أولًا: خالق الزَّمان لا يخضع لجبريَّته، فهو المتحكِّم بهِ، وليس العكس، لذلكَ فهو لا يملُّ.

ثانيًا: مالك تغيير الخصائص الثَّابتة الأصيلة، لا يفشلُ في محاولاته.

إذ أنَّ أمـرَه لحظـيٌّ بقـول كـن فيكون! لذلـك هـو خالـقٌ يتنـزه عـن اللهـو والملـلِ بالـضرورة المنطقيَّة[1].

---

(1) النـوم والسـهو والتعـب، تخضعُ للقاعـدة السَّـابقةِ، فالنـوم وسـيلةٌ للرَّاحـة مـن التعـبِ، وشـحن الطاقـات للمخلـوقِ، أمـا خالـق القـوَّة فَـلا يتعـبُ، فهـو مصـدرُ تلـك القـوة؛ لـذا تنتفـي منـه الصِّفـات النقيضـة للقـوة.

إذَن؛ الغايـة مـن خلـق الْإِنْسَـان مـن خالـق خـيرٍ حكيـمٍ، لا يلهـو ولا يلعـبُ؛ هـو تحقيـقُ الخلافـة بإعـمار الأرضِ، مـن خـلال إحقـاق الحـقِّ، وإزهـاق الباطـلِ، ضمـن إطـار العبوديَّـة التامَّـة للخالـقِ، وحسـن الخلافـةِ هـو مـا سـيؤدي بالْإِنْسَـان إِلَى الفـوز بخـيرَي الدُّنيـا والآخِـرة.

- المقدرة الْبَشَرِيّة في تصوُّر ماهية الْخَالِق

عندمـا قـامَ الْإِنْسَـان باكتشـاف القوانـين الفيزيائيَّـة والرياضيَّـةِ، التـي سـاعدتهُ عـلَى صنـع البطاريـات الكهربائيَّـة، التـي تمنـحُ مـا يصنعـه مـن أجهـزةٍ مختلفـةٍ صفـةَ الحركـةِ؛ لِتُقـدم لـه المنفعـةَ، وتسـهل حياتـهُ؛ قـام فعليًّـا بإعطـاء تلـك الأجهـزة شـيئًا مـن صفاتـهِ الخلقيَّـة، ولكـن بطريقـةٍ مُختلفـةٍ (صفـة الحركـة والتفاعـل لإحقـاق المنفعـةِ).

لذلـك ربـط الْإِنْسَـانُ تقدُّمَـه بتقـدم إضفـاء بعـض مـن صفاتـهِ عـلى مصنوعاتِـه ؛ كصفـة التَّفاعـل والحركـة في الروبوتـات الآليـة، فقـام بصنـع روبوتـات آليَّـة تـرى الأَشـياءَ، وتتلقَّـى الأوامـرَ وتُحللها؛ لتقـوم بـأداء مهـماتٍ مختلفـةٍ. ولكـن هـل صفـة السَّـمع والبـصرِ، والقـدرة عـلى التحَّليـلِ لـدى الْإِنْسَـان مُطابقـةٌ لمـا صنـع بالماهيَّـةِ؟

إنَّ السَّـمع، والبـصرَ، والقـدرةَ عـلى التحليـل لـدى الْإِنْسَـان الآليّ، ومهـما بلغـت دقـة صنعـه؛ سـتَبقى شـيئًا مُختلفًـا بالماهيَّـة عـن الْإِنْسَـان الْبَـشَرِيّ، حتـى لـو قـام بتأديـة الوظيفـةِ بالشَّـكل المطلوبِ، فهـما يتشـابهان بالوظيفـةِ، ولكـن يختلفـان تمامًـا بالآليَّـة والكيفيَّـة.

لذلـكَ؛ فـإن الخطـاب الموجَّـه مـن الْخَالِـق إِلَى المخلـوق لا بـدَّ أن يواكـب المفاهيـم التـي أودعـت للمخلـوق لحظـة الخلـقِ؛ لـكي تتناسـبَ مـع المنطـق الْعَقْـلِيّ والوعـاء المرجعيِّ المحـدود لـدى المخلـوقِ، حتـى يسـتطيعَ تصـوُّر ذلـك الحـدث، وهـذا يقودُنـا إِلَى أنَّ الْخَالِـق قـد يخاطـبُ المخلـوقَ بأنَّـه يسـمع ويبـصرُ، أو أن يطلـقَ صفـات جسـديةً معينـةً عـلى نفسـهِ، وذلـك حتـى يسـتطيع المخلـوقُ فقـط تصور هـذا الحـدثِ، ولكـن الماهيَّـة لا يعلمهـا إلا الْخَالِـق، ولـو وصفَهـا للمخلـوق بطريقـةٍ مختلفـةٍ لمـا اسـتطاع المخلـوق تصوُّرَهـا عـلى الإطـلاق!

لذلـكَ؛ فـإنَّ الخطـاب الموجَّـه مـن الْخَالِـق للمخلـوقِ هـو خطـابٌ ذو طبيعـةٍ خاصـةٍ،

يعتنـى بالكيفيـةِ، ولا يُقصـد بـه الماهيَّـة، وهـذا يقودُنـا إِلَى أنَّ (الْخَالِـق ليـس كمثلـه شيء)، ولعـلِّي أذكـرُ لكـم قصـةً قصـيرةً بعنـوان **صانـع السـاعات**، والتـي مـن خلالهـا نسـتطيعُ تصـورَ مـدى اسـتحالة تصـوُّر ماهيـة الْخَالِـق.

بعـد أن أغلـق المتجـر أبوابـهُ؛ اسـتفاقت السـاعاتُ مـن سـباتها لتبدأ اجتماعَهـا اليوميَّ. أجيـالٌ عديـدةٌ مـرت عـلى هـذا المتجرِ، منهـا مـن هَـرِم، ومنهـا مـن قـد مـاتَ، وأُخـرى ولِـدت بالأمـس.

وعـلَى الرّغـم مـن تعـدُّد جنسـياتها وأشـكالها وألوانهـا وجودتهـا وأسـعارها؛ إلا أنّهـا كانـت تطـرح التَّسـاؤلَ نفسَـه في كل ليلـةٍ؛ مـن صنعنـا؟ وكيـف أوجدنا؟ ومـا هـو شـكله؟ قالت سـاعة يـدٍ صغـيرة:

- لا بدَّ أنَّ ساعةً كبيرةً قامت بهذا الأمرِ، فساعةٌ صغيرة لن تستطيع فعل ذلك!

ردَّت ساعةٌ سويسرية باهظةُ الثمن، بلهجةٍ متكبرة:

- ليسَـت كبـيرةً فحسـب! أعتقـدُ أنَّ سـاعةً كبـيرة مرصعـةً بالجواهـرِ، ولا تُقـدر بثمـنٍ؛ هـي مـن قامـت بِصُنعنـا، فـلا شـك أنَّ مـن صنعنـا ثمنـه يسـاوي أضعـافَ ثمننـا مجتمعـين!

- لا أعتقد ذلك.

هذا ما قالته ساعةُ الحائط، ثم أكملت:

- أنـا عـلى يقـينٍ تـام أَنّـي مـن نسـل الصَّانـع الأسـاسي! وأنا أجـزِم أنَّـه مـن صنعنـا جميعًـا، إن سـاعة الحائـطِ الأُولى العظيمـة هـي التـي صنعتنـا، وجـاءت بنـا جميعًـا إِلَى هـذا المـكانِ.

ردَّت ساعةٌ أخرى صُنعت بغاية الدِّقة والتعقيدِ:

- يا لكِ مِن حمقاء!

وأردفت بلهجةٍ غاضبة!

- ما أنتِ إلا صندوقٌ خشبيٌّ متهالك، كيف تجرُئين على قول أَنّ من صنَعنا هم أجدادكِ؟ لا بدَّ أنَّ من صنعنا هم أجدادي، أَنا متأكدةٌ أن الصانع الأولَ هو ساعةٌ متناهية الدقةِ، تعجزُ أَيّ ساعةٍ عن فكِّ شيفرتها.

فَقالت ساعةٌ أُخرى بسيطةُ الصنع، رخيصةُ الثمنِ:

- لا أعتقدُ أَنَّ أحدًا صنعنا، أنا أؤمن أنَّ مَن أوجدنا هنا هو هذه الغرفة التي حولنا، وسيأتي يومٌ نموت فيه كما حصلَ لأسلافنا.

قالت صديقتُها:

- ولكن إذا كانت هذه الغرفة من صنعتنا؛ فمن هو الذي صنعَ هذه الغرفة؟ لا بدَّ أَن تكون ساعَة عظيمة صنعتنا، وأورثتنا تلك الدِّقة المتناهيَة لضبط الوقتِ! الوقت! لحظة، وجدتُها! نعم، الوقتُ هو من صنعنا!

قالت ساعة بندول تقفُ في زاوية المتجر:

- يا له من استنتاجٍ ساذجٍ، وكيف للوقت أَن يصنعنا ونحنُ من نتحكَّم بهِ، ونشير إليه، هذا مستحيل؟! إنَّ من صنعنا ساعةٌ خارقة الذكاء.

وأضافت قائلةً وبكلِّ ثقةٍ.

- نعم، خارقة الذَّكاء؛ لأنَّها صنعتنا بطريقةٍ عجيبةٍ! حيث إنَّنا نعمل طوال الوقتِ، ودون توقفٍ، بدقةٍ واتزانٍ، وبطريقة ميكانيكية كهربائيةٍ غاية في الإعجازِ. لدرجة اعتقادنا لوهلة أنَّ كلَّ ما نحن فيه هو عمليةٌ تلقائيةٌ، لا تحتاج لصانعٍ، ولا تحتاج لأحد يرعاها! ولكن هيهات هيهات! فعلَى الرغم من التّلقائيَّة في عملنا؛ إلا أَنّنا لا نساوي شيئًا دون صانِعنا، فبمجرد مرضِنا واضطراب أمعائنا، أَو نفاد بطاريَّاتنا؛ تنقطع بنا السبلُ، ولا نجد حبلًا للنجاةِ إلا حبلًا من صانعنا.

ضربت ساعةُ منبهٍ جرسَها، وقالت بكل ثقةٍ ورزانةٍ:

- استمعو لي جيدًا، أنا أعلم ما لا تعلمون، سأروي لكم ما أخبرني به جدِّي، كان جدي يتميَّز عن باقي ساعات عصره بأَنَّه ذو حسٍّ أعطاه القدرة على التَّواصل مع صانعه..

- ماذا تقولين!

- رأى الصانع؟

- يا له من محظوظٍ.

- أَكانَ لَهُ ٣ عقارب أَم أَكثر؟ أم كان رقميًّا؟

- كم حجمه؟ هل كان مرصعًا بالجواهرِ؟

- هل كان يتحكم ب ٢٤ ساعةً أَم أكثر.

- هل يحتاجُ بطاريةً لكي يعمل؟

- ولو كان كذلك لكانت بطاريته بحجم هذه الغرفةِ!

انهالَت عليها الأسئلةُ من كلِّ اتجاهٍ، فقالت:

- على رسلِكم، ليس هذا ولا ذاكَ، ولم أقل أنَّ جدي رآهُ، ولكن أقولُ إنَّه استطاع أن يتواصلَ معه فقط، وعرفَ عنه الكثيرَ، فلقد أخبرني أنَّ مَن صنعه شيءٌ عظيمٌ، ليس كمثله شيءٌ بيننا، ولا يحتاج بطاريةً كي يعملَ، وليس بِمعدنٍ، وله قدراتٌ عظيمة في صناعة الساعاتِ، وله شكلٌ لا نستطيع تخيُّله إطلاقًا، فقدراته وقوَّته وعلمه يساوي آلاف الساعاتِ من الوقتِ، وما علمنا إلا بثانيةٍ من علمه.

- يا لكِ من مجنونةٍ! وما جدُّك إلا ساعة خَرِفة!

- هل تريدينَ أن تقنعينا أنَّه لو كان هناك مَن صنعنا، فإنَّه ليس بساعةٍ مثلنا! لن نُصدّق حتى نرى ذلك بأعينِنا.

- لـن تسـتطيعوا ذلـك! لأنَّ جـدي أخـبرني أَنَّ مـن وصـل إلى معرفتِـهِ عـددٌ قليـلٌ مـن السـاعاتِ عـلى مـر الزمـنِ، يتواصلـون مـع الصانـع بطريقـةٍ خاصـةٍ، نحـن لا نَسـتطيعُها، ومـا أريـد أن أقولـه لكُـم أيضًـا؛ أنَّ مَـن صنعنـا هـو نفسـه مَـن صنـع هـذه الغرفـةَ التـي نعيـشُ فيهـا، بـل وصنـع أشـياء أعظـم شـأنًا منَّـا، فقـد صنـع شـيئًا يُسـمى طائـراتٍ مُعلّقَـةً في الهـواء، ويسـتخدمها صانعنـا للتنقُّـل مـن مـكانٍ لآخـر، في وقـت قيـاسيٍّ في المـكان الـذي يعيـش فيـهِ، فـما هـذه الغرفـة إلا جـزء لا يـكادُ يُذكـر مـن عالمـه، ومـا هـذا إلا مثـالٌ واحـدٌ عـلى مـا يصنـع، فهـو عظيـمٌ يصنع مـا نعلـمُ، ومـا لا نعلـم، فكفُّـوا عـن هـذه التّسـاؤلات اليوميَّـةِ، واحتفظـوا بمـا تبقَّـى لديكـم مـن بطارياتكـم؛ لتسـتغلوها فيـما صُنعتـم مـن أجلـه، فقـد سـئمتُ مـن اجتماعِكـم اليومـيِّ الممـلِّ، ولقـد أوضحـتُ لكـم الأمـر، فجـدِّي كان معروفًـا بصدقـهِ وأمانتـهِ، وأنـا أومـن بمـا قـالَ لي؛ لذلـك أَنـا أعيـش براحـةٍ وسـعادةٍ وطمأنينـةٍ، ولا أفكِّـر بمـا تفكـرون بـه يوميًّـا، إنمـا ألتفـت لعمـلي، وأبـذلُ مـا بوسـعي لأقـدِّم أفضـل مـا لـديَّ، لأحقِّـق الهـدف الـذي صُنِعـت لأجلـه، وكـما تـرون أَنـا أعيـش هنـا منـذ سِـنين طويلـةٍ، وصانعـي يرعـاني، ويهتـمُّ بي عـلى أكمـل وجـه، ذلـك أنَّنـي آمنـتُ بمـا قالـه لي جـدي، فاشـتغلتُ بمـا صُنِعـت مـن أجلـهِ، وهـا أنـا أَتمتَّـع بصحـةٍ جيـدةٍ، وحيـاة رائعـةٍ أَنـا وأصدقـائي الذيـن صدَّقـوني، انظـروا إِلَى تلـك المجموعـة النَّائمـة مـن السَّـاعات في زاويـة المتجـرِ، لقـد صدَّقـوني، وهـا هـم يعيشـون بسـلامٍ وأَمـانٍ تحـت رعايـة صانعِنـا.

أمَّا مَـن كذَّبَنـي؛ فقـد نفِـدت بطاريّاتُهـم في التَّفْكِـير بمـا تفكِّـرون بـه ليـلًا نهـارًا، حتـى انتهـت حياتُهـم، وألقـوا في القمامـةِ، أَو استُخدمت بعـضُ أعضائهـم لخدمتنـا.

قالت ساعتان في اللحظةِ ذَاتها، وبلهجةٍ حاقدةٍ:

- أَنـت سـتموتين أيضًـا، وسـيُلقى بـك في القمامـةِ، وستُسـتخدم أعضـاؤُك لخدمـة غـيرك مـن السـاعاتِ!

ضحكت ساعةُ المنبه حتى اهتزَّ جسدها، وقالت:

- هذا ظنُّكم أيها المكذبون!

إنَّ صانعنـا عَهِـد إلينـا أَنـه مـن يـؤدِّي عملـه عـلى أكمـل وجـهٍ سـيأتي عليـه يـومٌ عندمـا يُصبـح كهـلًا أن يوضـع في مـكانٍ عظيـمٍ، رائـع الجـمالِ، ليـس كهـذه الغرفـة الدنيئَـةِ، بـل هـو مـكانٌ مختلـفٌ تمامًـا، لا عمـل فيـهِ، بـل راحـةٌ واسـترخاء في حجـرة عـرضٍ زجاجيـةٍ مسـتقلةٍ لـكلِّ واحـدٍ منّـا إِلَى الأبـدِ، وسـنحصل عـلى اهتـمام كبـيرٍ، وشـهرةٍ منقطعـة النظـيرِ، وسـتكون أسـعارنا خياليَّـةً، وأجمـل مـا في الأمـر أَنَّنـا سنسـتطيع رؤيـةَ صانعنـا!

قالت ساعةٌ باستهزاء:

- هههههههـه! يـا لـكِ مـن مجنونـةٍ، وأَنـا مسـتمتعةٌ بسـماعِ قصَّتـك الخياليَّـةِ، ومـا هـو اسـم ذلـك المـكان الخيـاليِّ العجيـب؟!
- أخبرني جدِّي أَنَّ اسمه المتحف، كم أتحرَّق شوقًا للذّهاب إِليهِ لأُقابلَ جدي.

قالت ساعة الحائط باستهزاء وبلهجةٍ استنكارية:

- وهل أخبرك جدك ما هو اسم صانعنا الخيالي؟
- نعـم، أخـبرني أَنَّ اسـمه الْإِنْسَـان، وهـو ليـس بصانـعٍ واحـدٍ، بـل هـم كثـيرون في الظاهـر، ولكـن حقيقـة الأمـر أنّ الْإِنْسَـان مـا هـو إلا أدَاة لتطبيـق مـا يُمليـهِ عليـه صانعُنـا الأوحـدُ، ويسـمَّى (العلـم الْبَـشَرِيّ).

قالت ساعة رقميةٌ:

- لا بـدّ أَنّ مـا تتحدثـين عنـه شاشـة كَبـيرَة، تعمـل باللمـسِ، وفيهـا أرقـامٌ لا تُحـصى، فجيلنـا الأكـثر تطـورًا وذكاءً بـين أقرانِنـا مـن السـاعاتِ، ولكـن لـديَّ تسَـاؤُلٌ، مـن صنـعَ صانعنـا الـذي أسـميتِه الإنسـان؟؟

قالت ساعةُ المنبه بعد تنهيدةٍ عميقةٍ:

- هذا السُّؤال الذي سأطرحه عليه عندما أراه في المتحفِ.

وللخالق المثل الأعلى...

مبحث العلوم

تُقسـمُ العلـومُ بطبيعتِهـا إِلَى قسـمين رئيسَـين؛ **علـم الشّـهادةِ**، و**علـم الغيـب**، أمـا الأوَّل فيختـصُّ بالعلـوم التجريبيَّـة الفيزيائيَّـة، والثـاني يقسـمُ إِلَى علـم غيـبٍ أَطلعنـا عليـه الْخَالِـقُ، ويشـمل العلـومَ الدينيَّـةَ، وآخـر علـم غيـبٍ اختـصَّ بـه نفسَـه، فـلا يطلـعُ عليـه أحـدًا مـن خلقـه.

أمَّـا العلـوم التجريبيَّـة التَّطبيقيَّـة؛ فـلا خـلافَ عـلى جودتهـا العلميَّـة والعمليَّـة، ذلـك أنَّهـا مسـتقاةٌ مـن الواقـع الملمـوس بالتَّجربـة والدَّليـل والبرهـان، وهـي مُسخَّرةٌ مـن الْخَالِـق لخدمـة الْإِنْسَـان في الحفـاظِ عـلى الجنـس الْبَـشَرِيّ وإعـمارِ الأرض.

وعنـد النَّظـر في أصـول تلـك العلـومِ وَنشـأتها؛ يتَّضـح لنـا أنَّهـا مـن المسـتحيل أن تحـدث بشـكلٍ تلقـائيٍّ، وإنَّمـا هـي متوارثـةٌ؛ لذلـك فَادِّعـاء أن الْإِنْسَـان الأوَّلَ كان بدائيًّـا هـو أمـرٌ منـافٍ للمنطـق!

فالعلـم التَّطبيقـي واقـعٌ ضمـن منظومـة الخلـقِ، وهـو منحـةٌ مـن الْخَالِـق أعطاهـا للإنسـانِ الأولِ؛ لينقلهـا إلى ذريَّتـه جيـلًا بعـد جيـلٍ؛ لذلـك لا بـدّ مـن وجـود إنسـانٍ أول قـام بتلقِّـي العلـم الكامـل مـن الْخَالِـق لحظـة خلقـه! إنَّ العلـم التَّطبيقـيَّ يُعـاد اكتشـافه ولا يُبتـدع!

فالخيـال التاريخـيّ للمعاصريـن بـأنَّ الْإِنْسَـان الأوَّل كان إنسـانًا بدائيًّـا، وتطـوَّر مـن أسـلافه القـرودِ؛ هـو أمـرٌ منـافٍ للمنطـق.

ولكـن الحقيقـة المنطقيَّـة تقـولُ إِنَّ الْإِنْسَـان ينحـدر ولا يتطورُ. فلـو تتبَّعنـا فرضيـة التطـور منطقيًّـا؛ لوصلنـا إِلَى نـوعٍ واحـدٍ مـن الكائنـات الحيَّـة الخارقـة، فـلا داعـي لوجـودِ هـذا التنـوُّع الكبـير في المخلوقـاتِ!

فالتطـورُ -بـلا أدنى شـكٍّ- يـؤدي إِلَى اختـزال التَّنـوعِ، وتحسـين الصِّفـات، وهـذا مـا نشـاهدُ عكسـه في حياتنـا!

ولـن نسـتطيعَ أن نرصـدَ حجـمَ التطوُّر الـذي وصلتـه الأمـمُ السَّـابقة، وهـل نحـن بالفعـل أمَّـةٌ متطـورةٌ أم منحـدرةٌ؛ لأن التأريـخ الْبَـشَرِيّ لا يُعطـي صـورة كاملـةً وشـاملة عـن الْـماضي، ومـدى تطـور الأمـم السَّـابقةِ؛ لأسـباب عديـدةٍ أولهـا أنَّ المـؤرخ كائـنٌ بـشريٌّ، مُعـرَّضٌ لتشـويه الحقائـقِ لحسـاب المصالِـح، وثانيهَـا الحقـب التَّاريخيَّـة المَفقُـودة!

والشَّـواهد عـلى مـدى تطـوُّر الأمـم السَّـابقة كثـيرةٌ، أَذكـرُ منهـا كيفيَّـة بنـاء الأهرامـاتِ التـي حـيَّرت عقـولَ علـماء العـصر الحديـثِ، عـلَى الرّغـمِ مـن التَّطـور العلمـيِّ والتكنولوجـيِّ الـذي وَصَلـوا إليـهِ!

ولم أجـد عالمًـا واحـدًا عـلى مـرِّ التاريـخ القديـم والحديثِ، يقـولُ إنَّ الأهرامـات جاءت بالصدفـة نتيجـةً لِانفجـارٍ تبعـه عمليَّـة تطورٍ! ولكنَّهُـم قالـوا إنَّ الْإِنْسَـان والكون جـاءَا بالصُّدفـة مـن خـلال عمليـةٍ عشـوائيةٍ! لقد حطَّمـوا العقلانيـة وعلـم الفَلْسَـفَة والمنطـق مـن جـذورهِ!

أمـا فيـما يخـصُّ علـمَ الغيـبِ؛ فالوحـي الإلهـيُّ هـو نقطـة البدايـةِ للتعـرُّف إِليـهِ، وليـسَ جهـاز الْوَعْـي والإدراك، أو العمليَّـة الْعَقْلِيّـة المعرفيَّـة لـدى البـشر.

ففلسـفةُ افـتراضِ الغيبيَّـات تُنتِـج الأسـاطيرَ والأوهـام، وتَخلـق إشـكالياتٍ وتسـاؤلاتٍ لامتناهيـة، وبالتَّـالي تُـؤدي إِلَى التخلُّـف الْفِكْـرِيّ والتَّخبـط العشـوائيّ، أمـا علـم التَّفَكُّـر بالوجـودِ؛ يُنتِـجُ اليقـين بقـدرة الْخَالِـق وإبداعـهِ، ويصـلُ بالْإِنْسَـان إِلَى العلـم النَّافـع الـلازم لتحقيـق الهـدفِ الرئيـسِ مـن خلقـهِ، وبالتـالي يـؤدي إِلَى التقـدُّم الحضـاريِّ والْإِنْسَـاني.

فالعقـل الْإِنْسَـانيُّ هـو عمليـةٌ تختـصُّ بدراسـة الواقـع مـن المخـزون المرجعـيِّ، أي ربـط المرجعيَّـات المكتسـبةِ مـن الواقـع بأخبـار الغيـبِ، ليصـل إِلَى تصديـق أخبـارِ الغيـب.

وأخبـار الغيـبِ لا تؤخـذ كجزئيـةٍ، وإنمـا بالكليَّـة، إن صلـحَ جـزءٌ منهـا صلُحـت بكُلِّيَّتهـا، فمصداقيَّتهـا لا تقبـلُ التجزئـةَ، فمنهـا جـزءٌ يوافـقُ القـدراتِ الْعَقْلِيّـة والمنطقيَّـةَ، وجـزءٌ آخَـر يفـوق تلـك القدرَة، فالأسـاس السَّـليم في بحـثِ علـمِ الغيـبِ؛ أنَّـه إذا تَوافقـت الأخبـارُ التـي تخاطـبُ قـدرةَ الْإِنْسَـان الْعَقْلِيّـة المنطقيَّـةَ المحـدودةَ مَـع واقعـهِ؛ وجـب عليـه

تصديـقُ أخبـار الغيـب، التـي تفـوقُ قدراتـه الْعَقْلِيّـة المنطقيَّـة[1].

وفي هـذا المعـرضِ؛ يجـبُ التَّفريـقُ بـين المعـارفِ والعلـومِ، فالمعرفـة تمثِّـلُ جـزءًا مـن العلـم، ذلـك أنَّ العلـم الكامـلَ يشـمل الرَّبـط الْعَقْـلِيّ للمرجعيَّـات الأساسـيَّة الآنِـف ذكرهـا، أمـا العلـمُ التجريبـي المحـض دونَ صبغـهِ بالضوابـطِ الفطريَّـة والغيبيَّـة؛ فيُعـدُّ علـمًا ناقصًـا، ويصنَّـف بأنّـه معرفـةٌ دنيويـةٌ فقـط.

- **العلم والدِّين:**

إنَّ القـول بتناقـضِ العلـم مـع الدِّيـن ينسـفُ فلسـفة الحيـاة مـن جذورِهـا! ذلـك أن العلـم هـو منحـة مـن الْخَالِـق للمخلـوقِ؛ ليعينـه عـلى الأسـباب الرئيسَـة لخلقـهِ، وهـي إعـمارُ الأرض مـن ناحيـةٍ، وتحقيـق العبوديَّـة للخالـق مـن ناحيـةٍ أُخـرى.

فإعـمار الأرضِ يحتـاج بـلا أدنى شـكٍّ إِلَى إعـمال العلـومِ، والعمـل والسّـعي لتحقيـق المنافـع الدنيويَّـة، وبالتـالي تحقيـق خلافـة المخلـوقِ للخالـق بأبهـى وأحسـن صورهـا.

ومـن جانـبٍ آخـر، فـإن التقـدُّم العلمـيَّ هـو مطلـبٌ ذو جوهـر دينـيٍّ بصبغـة دنيويـةٍ، فمنطقيًّـا؛ كلـما تقـدم الْإِنْسَـان في مجـال العلـومِ التجريبيـة والنظريَّـةِ؛ زاد يقينُـه بعظـم خالقـه وقدرتِـه، وأيقـن مـدى ضعفـه وقلَّـة حيلتـه في تغيـير الثَّوابـت الْكَوْنِيّـة، أو إطـلاق حـدود المتغـيّرات.

فالدِّيـن الصَّحيـح لا يشـكِّل عائقًـا أمـام تقـدُّم العلـوم التطبيقيّـةِ، بـل هـو محـركٌ أسـاسيٌّ لتقدمهـا وتطورهـا، لتحقيـق مطلـبٍ رئيـسٍ مـن خلـق الحيـاةِ، أَلا وهـو **اليقـين** بقـدرة الْخَالِـق وعظمتـهِ، وبالتـالي تحقيـق العبوديَّـة الغيبيَّـة اليقينيَّـة للخالـقِ، والتـي تعـدُّ أسـمى مراتـب العبوديَّـة.

إذَن؛ الدِّيـن الإلهـيُّ في ظـل فلسـفة الحيـاة بشـقّها الغيبـيِّ؛ لا بـدَّ أن يحثَّ عـلى العلم

(1) يَبـدَأُ المخلـوقُ بالتَّسـاؤل؛ مـن خلقنـي؟ وكيـف؟ ولمـاذا خُلِقـت؟ ومـا مصـيري بعـد المـوت؟ فـإذا عجِـزَ عـن الوصـول إلى (مَـن)؛ فَسـيعيش أسـيرًا لِكيـف ولمـاذا ولمـا حتـى نهايتـه. ومَـن وصـل إلى (مَـن)؛ وصـل بالـضَّرورة إِلَى كيـف ولمـاذا ولمـا، ومـن وصـل إلى الكيفيَّـة والسـببيَّة لوجـوده مـن مصـدرِ (مَـن) الـذي أوجـدهُ؛ وجـب عليـه الانصيـاعُ إلى مصـدر المعرفـةِ، فهـو المصـدر الوحيـدُ الـذي يجـدُ عنـده إجابـةً عـن كلِّ تسـاؤلاتهِ، مـما ينظـم تشريعـات حياتـهِ، وأخبـار مصـيره بعـد مماتـهِ. فـإذا كانـت الإشـكالياتُ تفـوق حـدود الإدراكِ والعقـل الْإِنْسَـانيِّ، وصـادرةً مِـن كيـف ولمـاذا، ومصدرهـا مَـنْ، فـإن (مَـن) هو مصـدر المعرفـةِ، ولا غنـى عنـه في حـلِّ المشـكلات وإجابـة التَّسـاؤلاتِ.

والتعلُّم بالضرورة المنطقيَّة، فالشقُّ الماديُّ العلمي من الحياة هو السَّبيل للوصول إِلَى اليقين بصحَّةِ ومصداقية الشق الغيبيّ منها.

أما إحلال العُلوم التَّطبيقيَّة بسبب تقدّمها مكان الْخَالِق، أو صبغ أَخبار الغيب بكُلِّيَّتها بالصّبغة العلميَّة؛ فَيدل على تكبُّر الْإِنْسَان على حقيقتِه وضعفه، وتقدُّمه العلميُّ في هذه الحالة يكونُ ظاهره التطوُّر، وباطنُه التَّقهقر والتَّخلُّف[1].

وعند النَّظر في فلسفة الدِّينِ، وربطها بفلسَفَة الخلقِ؛ يتبيَّن لنا أن الدِّين لا يقتصرُ على ممارسة الشَّعائر الدينيَّة ضمن إطار دور العبادةِ، وإنَّما هو شريعةٌ لتعاملات البشر اللحظيَّة في كلّ مكانٍ وزمانٍ، وبه تستقيمُ المفاهيمُ، وترتقي الأخلاقُ، ويعم العدلُ، وتتقدَّم العلومُ؛ لأنَّ المشرع إلهُ خيرٍ حكيمٌ، عالمٌ بمصالح خلقهِ، منزَّهٌ عن النواقصِ، متعالٍ عن المصالحِ، يحكم بالعدل.

- **فلسفة الابتلاءات والصَّبر**

الْخَالِق إلهُ خيرٍ حكيمٌ، وبالتالي فالشرُّ موجودٌ لحكمةٍ، وهي إزهاق الباطل بالحقِّ، وبما أنَّ الْإِنْسَان مستخلفٌ في الأرضِ، يحمل في داخله شهواتٍ ورغباتٍ، ومخيَّرٌ بحُريَّة الإرادة لفعل الخيرِ، أو إتيان الشُّرور، وبالنَّظر إِلَى أن الشرور مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بالشّهوات والرغبات والباطلِ؛ فهذا يدلُّ دلالةً قطعيَّةً أنَّ الدنيا دارُ ابتلاءٍ واختبار.

وما يعزز هذا الاستنتاج هو البعثُ والحسابُ كما أَثبتُّه فيما سلف، فبهذا تستوي المعادلة، أن الدنيا دار اختبار وابتلاء، والآخرة دار حسابٍ وجزاء، وبهذا يتحقق **عدل الْخَالِق الشمولي**.

إِذَن، وبناءً على ما سبقَ؛ فإن **الصَّبر** سيكون مطلبًا أساسيًّا لا غنى عنهُ لمن أراد أن يؤمن بالْخَالِق، ويعمل صالحًا في هذه الدنيا.

وبما أنَّ الإيمان بالْخَالِق العادل غيبيٌّ، فليس بالضرورة أن يجازَى المحسنُ على إيمانهِ وإحسانهِ بشكل مباشرٍ من ناحيةٍ، ولا الكافر المسيءُ على إساءتِه من ناحيةٍ

(1) التَّقدم العلميُّ في علم الذرة، لو صبغ بتشريعات الْخَالِق (إله الخير)؛ لما استُخدم في حروب الإبادةِ الْبَشَرِيّة، وهذا الفرق الرئيسُ بين العلمِ والمعرفةِ، فالمعرفة للجميعِ، أما العلم فهو لأهل الْخَالِقِ وخاصَّته، وهم أهل اليقينِ، وأجدر البشر بخشيَته.

أُخرى، ولكـن عـلى العكـس تمامًـا، فقـد يُبتـلى المؤمـنُ الصَّالـح ليَختـبر الْخَالِـقُ صـدقَ إيمانـه الغيبـيّ، وقـد يعطـي المـسيءَ فرصـةً للتوبـةِ، والعـودة لتشريعـات خالقـه.

وبلغـةٍ أخـرى؛ مـا يريـده الْخَالِـقُ مـن عبـاده هـو الإيمـان الغيبـيُّ بـهِ؛ طلبًـا لمرضاتـه ومغفرتـهِ، وتقرُّبًـا إليـه. ومـا يريـدُه العبـد مـن الْخَالِـق هـو عونُـه في أن يحقـق لـه السَّـعادة في الدنيـا والآخِـرة، لذلـك لـو كان الجـزاءُ يُعطَـى مـن الْخَالِـق بشـكلٍ مُبـاشرٍ؛ لعَبَـدَ النـاسُ الْخَالِـقَ مـن أجـل تحقيـق المصالـحِ الدنيويَّـة فقـط، ولأصبـح الغيـبُ يقينًـا، وهـذا لـن يحقق الغايـةَ الإلهيَّـة مـن الخلـق.

ولـو عاقـب الْخَالِـقُ المـسيءَ بشـكلٍ مبـاشرٍ؛ لَابتعـد النـاسُ عـن الـشرِّ والمعـاصي؛ خوفًـا عـلَى أنفسـهم في دنياهـم فقـط، وهـذا لـن يحقّـق الغايـةَ الإلهَّيـة مـن الخلـق.

إذَن؛ فمـن المنطـقِ أنـه كلـما زادت ابتـلاءاتُ المؤمـن الصالـح في الدُّنيـا، وصـبر يقينًـا بخيريـة الْخَالِـق؛ فـإن لـه جـزاءً عظيـمًا في الآخـرةِ، بقـدر ابتلائِـه وصـبره، وهـذا مـا يـورثُ الطّمأنينـة والرضـا في نفـس المؤمـنِ، عـلَى الرّغـم مـن البـلاء الواقـع عليـه.

وهـؤلاء الفئـة المبتـلاةُ حجـةٌ عـلى مَـن أنعـم الْخَالِـق عليهـم؛ ليحاسـبهم عـلى حسـن أو سـوء تصرفهـم في تلـك النعـم. فالابتـلاء ليـس في المنـعِ، بـل أيضًـا في العطـاء.

وأودُّ هنـا أن أَعـرجَ إلى مسـألةٍ ذات أهميـة كبـيرةٍ، ولهـا فلسـفةٌ شـبيهةٌ بمـا سـلف، وهـي مسـألة الدعـاء والاسـتجابة، فلـو كانـت اسـتجابة الدعـاء بكليَّتهـا لحظيَّـةً؛ لأصبـح الغيـب يقينًـا، ولمـا تحقَّـق المبـدأ الأسـاسيُّ مـن الخلـق.

إذن، فلسـفة الخلـق قائمـةٌ عـلى تحقيـق العبوديَّـة اليقينيَّـة للخالـقِ، مـن خـلال الإيمـان اليقينـيِّ، والعمـل الصالـحِ، طلبًـا **لمرضـاة الْخَالِـق**، فمـن رضي عنـه الْخَالِـقُ فـاز في الدُّنيـا والآخـرة، ولـن يظلـم مثقـال ذرة.

- **أهميّة الفَلْسَفَة:**

الفَلْسَـفَة الماديَّـة تبحـثُ عـن إجابـاتٍ لمـا كانَ، ومـا هـو كائـنٌ، ومـا سـيكونُ، فتجـد إجابـاتٍ مقتضبـةً عـما هـو كائـنٌ فقـط، ولا تجـد إجابـاتٍ عـمّا كان أو مـا سـيكون، لتصطَـدم

في نهايـة الأمـر بالسـؤال الأكـثر أهميـةً (**مَـن** وراء هـذه الكينونـة؟)، وعنـد هـذه المرحلـةِ؛ إذا تجاوزتَ (مـن) تعـود تلقائيًّا للسـؤال بكيـف ولمـاذا ومـا، وستسـتمر بالـدوران في حلقـةٍ لا نهائيَّـة، دون الوصـول إِلَى إجابـاتٍ واضحـة وقطعيـةٍ عـمَّا تبحـث عنـهُ، وهـذا مـا يضفـي صفـة التشـويش والتعقيـد عـلى علـم الفَلْسَـفَة الحـاليّ.

الفَلْسَـفَة لا تُغنـي عـن الوحـيِ وأخبـار الغيـبِ، ولكـن الفَلْسَـفَة ضرورةٌ أساسـيةٌ للوصـول إِلَى حقيقـة الغيـبِ، وبيـان ضرورتـهِ، وكيفيَّـة الوصـول لمصـدره ومصداقيتـه، إنَّ الفَلْسَـفَة وأخبـارَ الغيـبِ تُجنـب الإِنْسَـان التخبُّـطَ والتيـه، وتعطيـه تصـورًا واضحًـا عـن خلقـهِ، وعـن الخلـق مـن حولـه.

ولَيـس مـن شـؤون الفَلْسَـفَة أن تحـلَّ محـلَّ الْخَالِـق، أو أن تعـرفَ أخبـارًا غيبيـةً، ولكـن هدفهـا الأسـاسيّ الوصُـول عقليًّا إِلَى أنَّ مصـدر تلـك الأخبـار هـو الوحـي الإلهـيُّ، وأن الْخَالِـق واحـدٌ، وليـس لمخلـوقٍ أن يحـل محـلَّ خالقـه.

والهـدفُ الآخـر مـن الفَلْسَـفَة هـو التَّفَكُّـر في عظمـةِ الْخَالِـقِ، مـن خـلال التأمُّـل بقدرتـه البالغـةِ بالتَّحكُّـم بالثَّوابـت الْكَوْنِيّـة الخارجـةِ عـن نطـاق عمليَّـة العقـل الْبَشَرِيّـة.

إذن الفَلْسَـفَة التَّفَكُّريـة: هـي نتـاجُ دمـجِ الْوَعْـيِ المـاديِّ والْوَظِيفِـيّ في نطـاق لـبِّ الْقَلْـب النَّفْـسِيّ، بحضـور العمليَّـة الْعَقْلِيّـة، للوصـول إِلَى مصـدر الوحـي الإلهـيِّ، وصفـات الْخَالِـق، وبالتـالي دمـج تلـك المصـادر المرجعيَّـة الغيبيَّـة مـع المرجعيَّـات الماديَّـة، والتَّفَكُّـر بعظمـة الْخَالِـق، للوصـولِ إلى حقيقـة الوجـودِ وغاياتـهِ، وبالتـالي الإيمـان واليقـين، مـما يـؤدِّي إِلَى بلـوغ الحكمة.

أمَّـا الفَلْسَـفَة الماديَّـة المحضـة؛ فهـي فلسـفةٌ مختلـةٌ عقليًّـا، حيـث إنَّ الأدوات المرجعيَّـة للتفلسـف تعـاني نقصًـا أساسـيًّا، ألا وهـو أخبـارُ الغيـبِ، وهـذا الاختـلالُ يـؤدي إِلَى الهرطقــة.

- **إبداع الْخَالِق:**

إنَّ التَّبايـنَ الكبـير في أجناسِ المخلوقـاتِ عـلى وَجـهِ هَـذه الأرضِ بمختلـفِ نباتاتِهـا، وفي البشرِ بِاختـلافِ ألسـنتهم وأشـكالهم وألوانِهـم، ومـن حيوانـاتٍ بريـةٍ وبحريـةٍ وطيـورٍ

وحشراتٍ باختلافِ أشكالهَا وألوانِهَا وطرقِ عيشهَا؛ فمنهَا الماشي والسَّابح والطَّائر، يدعو إِلَى التأمُّل بأن القدرة على خلق وتصوير تلك المخلوقات أمرٌ يفوق قدرة العقلِ والمنطق لدى الْإِنْسَانِ، ذلكَ أنَّ عدم القدرة على الخلق والتَّصوير جزءٌ لا يتجزَّأ من عدم القدرةِ على معرفة كيفيَّتهما؛ لذلكَ فإن هذا التنوع الكبير والمُعجِز في المخلوقاتِ أوجده الْخَالِق لِأسبابٍ عديدَةٍ؛ منها:

١ - تسخير المخلوقات للإنسان للانتفاعِ بها في حياته.

٢- التأمُّل في تلكَ القدرات الإبداعيَّة للخالقِ، والتي تتعدَّى قدرات الْإِنْسَان الْعَقْلِيّة المحدودة.

فالْإِنْسَان كمخلوقٍ ليس له أن يخلقَ، أو يصوِّر ما في الأرحامِ، وإلا أصبح خالقًا! وهذا الأمر منافٍ لمبدأ الخلقِ بالكليَّة، فليس لمخلوقٍ أن يخلق ما يختصُّ به خالقهِ، وإلا خرج من صفته الأساسيَّة كمخلوقٍ لخالق، وهذا أمرٌ يهدِم نظام الخلق بأكمله، وهوَ أمر مستحيلٌ، أي عند إحالته للمنطق الْعَقْلِيّ؛ يكون منافيًا له كليًّا.

لذلكَ؛ فالْإِنْسَانُ مطالَبٌ بالتأمّل والتَّفَكُّر فيما حوله، ليصلَ إلى معرفة خالقهِ، من خلال إبداعه وتصويره المُعجز لخلقِه، ولِيصل إِلَى صفاتٍ أُخرى للخالقِ، إنَّه الْخَالِقُ البارِئُ المصوِّر البديع.

ومن لم يَستطِع الوصولَ بالتأمُّلِ في خلقِ نفسِه، والمَخلوقَات الأُخرى من حَوله إِلَى وجود خالقٍ مُبدع، تُعرف صفاته من خلال إبداعِه، فيستحيلُ عليه الوصولُ إِلَى ذلكَ بطريقةٍ أُخرى، فتأَمُّل إبدَاع الخالقِ وقُدرَته التي تفوقُ القدراتِ الْعَقْلِيّة الْإِنْسَانيَّة؛ هو مفتاحُ اليقينِ بوجود الْخَالِق، واستشعار عظمتِه، والتأمُّل بالواقعِ مع ربطه بأخباره الغيبيَّة؛ يصلُ بالْإِنْسَان إِلَى اليقين بخالقهِ، واليقين بأخبار الغيب الخارجةِ عن الواقع الماديِّ، وبالتالي السموّ إِلَى أعلَى مراتبِ الإيمان.

- **الحيوان والعَقل:**

هل الحيوان واعٍ؟

هل الحيوانُ مدركٌ؟

هل الحيوانُ يكوِّن المفاهيم السلوكيَّة؟

هل الحيوانُ لديه مرجعيَّة فطريَّة؟

هل الحيوانُ لديه مرجعيَّة تجريبيَّة؟

«عدم القدرةِ على إدراكِ الأمر حسيًّا لا يعني عدم وجودِه».

إذَن؛ هل الحيواناتُ تعبد الْخَالِق بطريقة لا نعلمها ؟ .

هل الحيوانُ يمتلك عاطفةً؟

هل الحيوان يمتلك أخلاقًا مثل الإخلاص؟

الإجابةُ عن كلِّ الأسئلة السابقة هي **نعم**

والحيوان أيضًا **يعقلُ**؛ لأن لديه قدرةً على ربط المرجعياتِ الفطريَّة بالأحداث الماديَّةِ للقيام بالعملِ، والحيوانُ لا يكتبُ ولا يقرأُ، ولكنَّه قابلٌ للتعلم.

إذَن ما الذي يميز الْإِنْسَان عن الحيوان؟

إنَّ ما يميِّزُه هو القدرةُ على التعلُّم، التي تعدُّ ضرورةً لوجوب التَّكليف، فهنا كانت بداية تكليف الْإِنْسَانِ، عندما أعطاه الْخَالِق القدرةَ على التعلُّم بالقلم.

إن ما يميز الْإِنْسَان عن بقيّة المخلوقات ليس الْوَعْي، ولا الإدراك، ولا العقل، إنما القدرة على تعلُّم القراءةِ والكتابةِ، التي هي أصلُ العلوم النَّظرية والتَّجريبية، وهي المدخل الأساسيُّ لإدراك وفهم العلوم الغيبيَّة، وهي أصلُ التكليف.

إذن التَّكليف بالخلافة في الأرض وإعمارِها، وتحقيق العبوديَّة؛ هو ما يميِّز الْإِنْسَان عن الحيوانِ، أما العقلُ في ظلِّ النظرية الْوَظِيفِيّزيائية؛ فيُعدُّ سمةً مشتركةً ما بين البشر والحيوانات. وسأوضح ما تقدَّم بالمثالِ الآتِي.

لو قام شخصٌ بِاقتناء كلبٍ للحراسةِ، وقام برعايتِه وتدريبِه؛ يكون في ذلك الكلبِ مرجعياتٌ غريزيةٌ أو فطريةٌ، فأنا لا أجد فرقًا بينهما، فكلاهما يعني مرجعيَّات

مجبولَـة مـع خلـق الحيـوانِ أو الْإِنْسَـانِ، تلـك المرجعيَّـة تدفـع الكلـبَ إِلَى أفعـال أخلاقيَّـةٍ تجـاه مُربِّيـهِ، بحيـثُ يقـوم بحمايَتِـه مـن الأخطـارِ، ويقـومُ بالدِّفـاع عنـهُ، وهـذا فعـلٌ عقـليٌّ؛ لأنَّ الكلـبَ في هـذه الحالـةِ قـد قـام بربـط مرجعيَّتـين؛ ليقـوم بذلـك العمـلِ (الدفـاع عـن راعيهِ):

- المرجعيَّة الأُولى: المَرجعيَّة الفطريَّة المتمثلة بالقاعدة دفع الضرر عمن يرعاك.
- المرجعيَّـة الثَّانيـة: المرجعيَّـة التجريبيَّـة والمتمثّلـة في أنَّ راعيـهِ قـدَّم لـه المـأوى والمَـأكلَ والمشربَ، فقـام بتكويـنِ مفهـومٍ مبنـيٍّ عـلى وعـيٍ وإدراكٍ عـن راعيـهِ.

يقـومُ الكلـبُ بربـط تلـك المرجعيَّـات مـع بعضِهـا البعـض؛ ليصـل إِلَى نتيجـةٍ عقليـةٍ بوجـوب الدفـاع عـن راعيـه إذا تعـرَّض للخطـر.

لذلـكَ؛ فـإنَّ مـا يميِّـز الْإِنْسَـانَ عـن الحيـوانِ هـو القـدرةُ عـلى التعلُّـم بالقلـمِ، والتـي تُعـدُّ المدخـل الرئيـسَ لإدراكِ الأخبـار الغيبيَّـةِ وفهمِهـا، وبالتَّـالي التَّكليف والخلافـة في الأرض.

فمـن تخـلَّى عـن أخبـار الغيـب سـيعيش كالحيوانـاتِ، مـع فـرق التَّقـدم الـذي سـينجزه في مجـال العلـوم التجريبيَّـةِ؛ بسـبب قدرتـه عـلى التعلُّـمِ، التـي تؤهلـه لِاكتشـاف قوانـين الطبيعـة الماديَّـة مـن حولـهِ، وسـيكون خـيره وشرُّه لا يختلـفُ عـن خـير الحيوانـاتِ وشرِّهـا، وسـيحكم بقانـون الغـابِ، أَمَّـا أخلاقياتـه الحسـنةُ؛ فلـن تتعـدَّى أخلاقيَّـات الكلـب في إخلاصـه لمربِّيـه.

وبإنــكاره للغيــبِ؛ فهــو كمثــل حــمارٍ يحمــل الكتــب عــلى ظهــرهِ، ولا يســتطيع الاسـتفادةَ منهـا في حياتِـه وآخرتـهِ، بـل هـو أضـلُّ سـبيلًا، ذلـك أنَّ الحمار لا يسـتطيع إمسـاكَ القلـمِ والتعلُّـم والقـراءة، أمـا الْإِنْسَـان فيتمتـع بتلـك القـدراتِ، ولكـن لا يسـتخدمها فيـما ينفعه.

لذلـك فـإنَّ مـن ينكـر أخبـار الغيـبِ سـيفقد المرجعيَّـة التـي تميِّـزه عـن الحيوانـاتِ، فيكـون مثلـه كمثـل الحـمارِ، بـل أضـلُّ سـبيلًا.

العدل الشموليُّ في البعثِ والحساب

إنَّ للعدالـة مفهومًـا أشـمل وأعمـق مـما اعتقـدَه البـشرُ والفلاسـفةُ، فَعـلى الرّغـم مـن اختـلاف تَعريفـاتِ مفهـومِ العدالـة بِاختـلافِ المُعـرِّف مـن الفلاسـفة والمفكِّريـن؛ إلا أنَّ المفهـومَ كان مقتـصرًا ومركّـزًا عـلى التَّعامـلات الْبَشَريّـةِ، ودلَّـت تلـكَ التّعريفـات في فحواهـا عـلى الإنصـافِ والمسـاواة. ولكـن للعدالـة مفهـومٌ أعمـق وأشـمل إذا نَظرنـا إلَى الحيـاةِ نظـرةً شـموليةً عميقـةً، بعيـدةً عـن المفاهيـم السَّـطحيَّة.

فلـو تأمَّلنـا الخلـق والوجـودَ، ولاحظنـا التَّفـاوت والتَّبايـن بـين البـشرِ مـن ناحيـة الصفـات الخلقيَّـة الأساسـيَّةِ؛ كالسـمع والبـصر عـلى سـبيل الذِّكـر لا الحـصر؛ لوجَدنـا أن هنـاك مـن يولـدُ بخلقـة كاملـةٍ، وآخَـر بنقـصٍ في إحـدى أو عديـدٍ مـن صفاتِـه الخلقيَّـة الْبَشَرِيّـة، فهنـاك الأعمـى والمبـصرُ، والمتكلـم والأبكـمُ، والسـامع والأصـمُّ.

ولـو تأملنـا الصفـات النَّفْسِـيّة والْعَقْلِيّـةَ؛ لوجدنـا مَـن هـو قـادر عـلى الإدراكِ والفهـم والعقـلِ، وآخريـن ذوي احتياجـاتٍ خاصـةٍ، لا يقـدرون عـلى شيء مـن ذاك القبيـل. وإذا تتبَّعنـا التبايـن الكبـيرَ بـين البـشر عـلى مسـتوى الـرزق الممنـوح مـن الْخَالِـق؛ سَـنجد الغنـي والفقـيرَ، والمنجـبَ والعقيم. وبتأمُّـل الجانـب الأخلاقـيِّ؛ نجـد الظـالمَ والعـادلَ، والطيِّـب والخبيـثَ، والمُحسـنَ والمـسيء.

وعنـد الرجـوع إلَى مـا أَثبتُّـه فيـما تقـدَّمَ؛ أن الْخَالِـق إلـهُ خـيرٍ، لا يـرضى الظُّـلم عـلى عبـادهِ؛ نسـتنتج أنَّـه لا بـدّ أن يسـتردَّ كلُّ ذي نقـصٍ كـمالَ صفاتـهِ؛ لـتحقيقِ العدالـة، ولكـن هـذا مـا لا نشـاهده في الدنيـا، فيمـوت الضَّريـر ضريـرًا، والأبكـم أبكـمًا، والظـالم ظالمًـا، والمحسـن محسـنًا في أغلـب الأحيـانِ!

إذَن؛ هـل المـوتُ ونهايـة الحيـاة تعـدُّ نهايـةً عادلـةً؟ بالتأكيـد لا؛ لذلـكَ، ولتحقيـق العـدل الشـموليِّ في الخلـق؛ لا بـدَّ مـن وجـود فصـلٍ آخر مـا بعـد المـوتِ، يعاقَـب فيـه الظالمُ عـلى ظلمـهِ، ويجـازَى فيـه المحسـنُ عـلى إحسـانه، ويكافَـأ فيـه صاحـبُ النَّقـص الجسـدي عـلى صبرهِ، ويحاسـب فيـه صاحـب الكـمال الجسـديِّ عـلى كمالـه.

فلا يوجد معادلةٌ صحيحةٌ بثابتٍ واحدٍ تعطي نتيجةً مختلفةً عن ثابتها.

١ لا يساوي ٢

ولكن ١+ ١ = ٢

وكلمة (معادلة) مشتقَّةٌ في أصلها من كلمةِ عدل؛ لذلك فإنَّ الدنيا وحدها لا تساوي العدل بكمالِه، والحياة بعد الموت دون الحياة الدنيا لا تساوي العدلَ بكماله، ولكن:

حياة دنيا + حياة بعد الموت = العدل الإلهي الكامل.

إذن؛ نستطيعُ تعريفَ العدل الشموليّ في الخلق على أنَّه: جزاء الْخَالِق للمخلوق على إحسانه، وعقاب كلِّ مسيءٍ على إساءتِه، ومحاسبة المخلوق على النِّعمِ، وتعويضه عن النِقَم بعد مفارقةِ الحياةِ؛ لذلك فإن الموتَ للمخلوق هو قمَّة العدل الإلهيِّ، فهو نهاية اختبار المخلوقِ، وبداية حسابه.

«وعاء النَّفس قلبٌ مبصرٌ، يحوي أصولَ الخير من مفاهيم ومرجعيَّات.

في لبِّه فطرةٌ وأخبار غيبٍ، وتجارب من العلمِ والنَّظريات.

يحملُ على ظهره أوزارَ الهوى من كبرٍ ورغبةٍ وقبيح الشَّهوات.

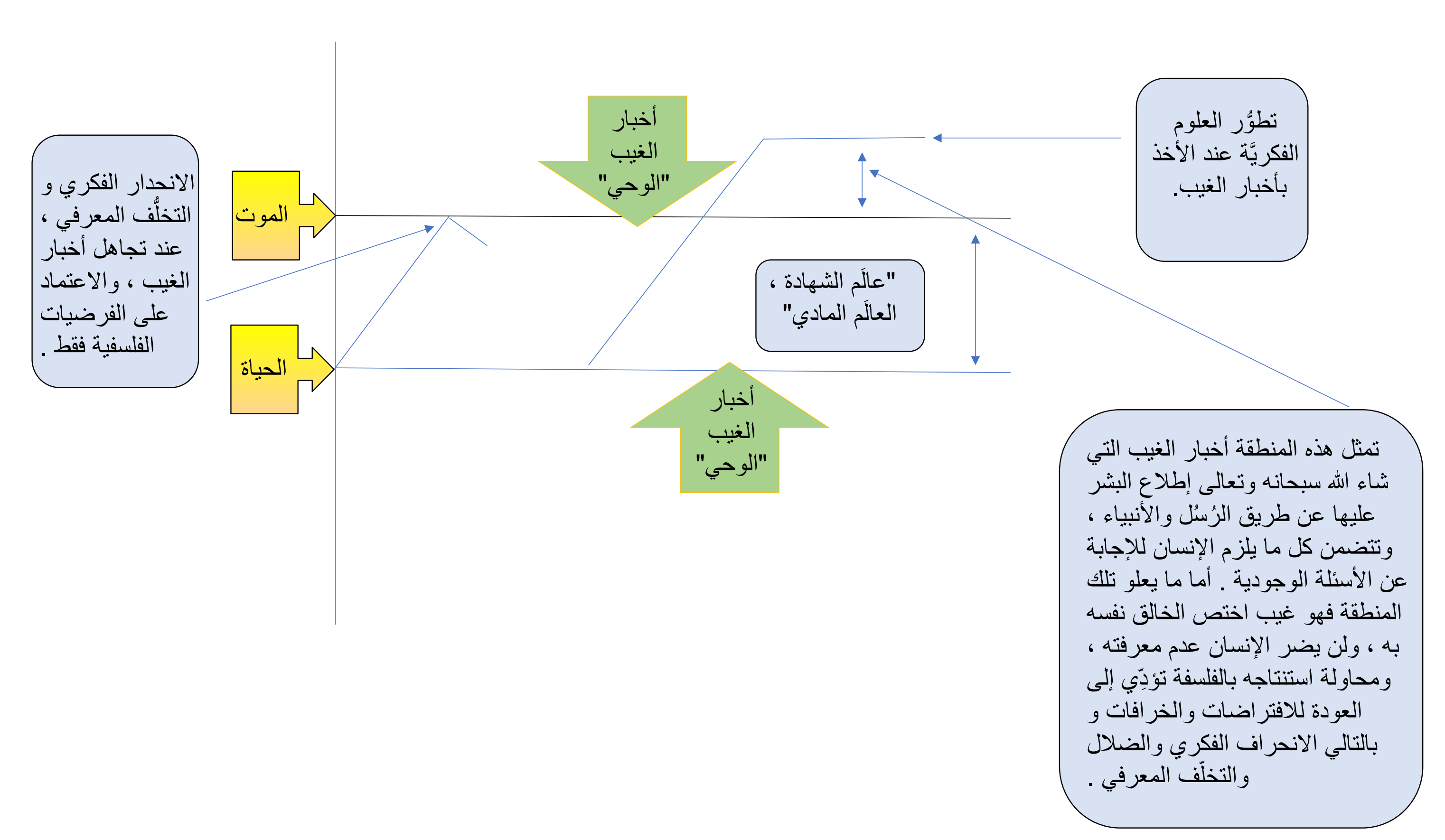
وعقلٌ يحلّق في سماء اللب هائمًا، يربطُ ما بين صحيح البينات.

وتفكيرٌ حائرٌ بين لبٍّ وقشرةٍ، يُرسل قرارَه للإرادة بالتَّقدُّم أو بالثَّبات.

فهنيئًا لمَن كان تفكيره تفكُّرًا، فقد أضحى حكيمًا حتى المَمات.

وويلٌ لمن كان فعله من قشر الهوى بعد عقلهِ، فسيعلم بعد حينٍ أنَّه غرقَ في بئر السبات».

(رسم توضيحي لنظام المعرفة والعلوم الوجودي في ظل النظرية الوظيفيزيائية)



ملخَّص المبحثِ:

هنـاك عـددٌ غـير محـدودٍ مـن الأدلَّـة المنطقيَّـة والْعَقْلِيّـة عـلى وجـود خالـقٍ حكيـمٍ لهـذا الكـون، وفي المقابـل لا يوجـد دليـلٌ واحـدٌ عـلى عـدم وجـوده!

ولـو ادَّعـى أحدُهـم أنَّنـا لا نـرى الْخَالِـق فـإذن هـو غـير موجـودٍ؛ فيكُـون السُّـؤالُ الـذي يطـرح نفسـهُ أنَّ عمليَّتَـي العقـل والتَّفْكِـير اللتـين كانتا السَّـببَ في هـذا الاسـتِنتاجِ لا نسـتطيعُ رؤيتَهـمَا! فهـل هـما غـير موجودَيـن أيضًـا؟!

الفصل الثالث

حوارِي مع آدَم

إنَّ الاستمرارَ في قراءةِ النَّفسِ الْإِنْسَانيَّة ونظريَّة البناء المعرفيّ من جهةٍ، وَاستنتاج صفات الْخَالِق من جهةٍ أُخرى؛ سيفضي بي إِلَى كتابةِ مئات الصَّفحاتِ؛ لذلكَ قرَّرتُ أن أتوقَّفَ عند هذه المرحلة إِلَى هذا الحدِّ، لأبحث عن المصدرِ الغيبيِّ الذي يطابقُ استنتاجاتي الْعَقْلِيّة عن تكوين الْإِنْسَانِ، والنظريَّة المعرفيَّةِ، وصفات الْخَالِق.

ولن أجدَ في هذه المرحلةِ أفضلَ من صديقي آدَم الذي شاركته مقاعدَ الدِّراسة سنواتٍ طويلةً، تجمعُني بهِ صداقةٌ كبيرةٌ علَى الرّغمِ من اختلافِ توجُّهاتنا الْفِكْرِيّة، فطالما كان آدم مهتمًّا بالنواحي الدينيَّةِ، والمصادر الغيبيَّة منذ نعومة أظافرهِ، حتى أكمل دراسته الجامعية بتخصُّص علم مقارنةِ الأديان، على عكسي تمامًا، فقد كنتُ دومًا أهتمُّ بعلم الفَلْسَفَة، والبحث عن الوسائل الْعَقْلِيّة والتجريبيَّة التي ستُوصلني إِلَى إجاباتٍ عن جميع الأسئلة المتعلقة بالخلق والوجود.

وعلَى الرغم مِن ذلك التَّباين في اهتماماتِنا وانتقادِنا لبعضنا البعض في توجُّهاتنا الْفِكْرِيّة؛ إلا أنَّ اختلافَ آرائنا لَم يُفسد ودَّنا، فلَطالما اتَّهمته أن اهتمامه بالمصادر الغيبيَّة لن يوصله للمعرفة الحقيقيَّة عن الوجودِ، ومن جهته تحدَّاني أنَّ العقل وحدَه لن يستطيعَ أن يوصلَني إلى المعرفة الكاملةِ عن هذا الوجودِ أيضًا!

وهَا نحن ذا، وبعد مرور ما يزيدُ عن سبع سنين من بحوثاتي الفَلْسَفِيّة؛ نلتقي مجددًا، ولكن هذه المرّة لأطرح عليه أسئلةً أبحثُ لها عن إجاباتٍ من وعائِه المَرجعيِّ الممتلِئِ بالمرجعيَّات الغيبيَّة. يقولُ آدم:

- هل أنت متأكدٌ أنك تلتقيني اليوم لأجيبَك عن أسئلةٍ دينيةٍ؟ هل عدت أخيرًا إلى رشدك وتركت التّفلسف؟

- لا بالطَّبع، لم أَترك التَّفلسف، مع تحفُّظي على ذلك المصطلحِ الذي أطلقته

علـيَّ، والـذي يرمـي إِلَى بُعـدٍ اسـتهزائيٍّ بعلـم الفَلْسَـفَة، ولكـن لا ضـير، أنـا أعلـمُ أَنـك تكـرهُ الفَلْسَـفَة، وتعدّهـا أمـرًا غـير ذي فائـدةٍ عـلى الإطـلاق! ولكـن لا تقلـقْ، هـذه المـرَّة سـيكون نقاشُـنا بأبعـادٍ مختلفـةٍ عـن المـرات السَّـابقةِ، فلـم آتِ لرؤيتِـك اليـومَ حتـى أنقـلَ لـك أقـوالَ فلاسـفة الغـربِ، الذيـن دعوتَهـم في مـرةٍ مـن المـرات بالهراطقـةِ، إنَّمـا جئـتُ لأناقـش معـك فلسـفَتي الخاصَّـة في هـذا الوجـودِ، والنَّظريَّـة المعرفيَّـة التـي توصلـتُ إليهـا.

- آها! إذَن أَنا هنا اليوم أناقشُ فيلسوفًا!

- دعـك مـن هـذا يـا آدم، مـا أريـدُه منـك أن تجيبَنـي عـلى بعـض الأسـئلةِ التـي توقَّفـت عندهـا خـلالَ بحثـي، ومـن ثـمَّ سـأعطيكَ وقتًـا كافيًـا لتسـخرَ منـي!

- هوِّن عليك يا صديقي، فأنا لا أسخرُ منك، إنما أمازحُكَ! هات ما عندك.

- بعـد أن تأمَّلـتُ بعمـقٍ في هـذا الخلـقِ والوجـود، توصَّلـتُ عقليًّـا وفَلْسَـفِيًّا إِلَى بعـض صفـات الْخَالِـق، التـي سـتوصلُني إِلَى المصـدر الغيبـيِّ الصَّحيـحِ، والصِّفـةُ الأُولَى التـي أثبتهـا فَلْسَـفِيًّا هـيَ الوحدانيَّـة، فالْخَالِـق واحـدٌ لا شريـك لـهُ، ولا ولـد، ولا صاحبة. فـما هـو المصـدرُ الغيبـيُّ الـذي يؤكِّـد هـذا الاسـتنتاجَ؟

- مممـم! هـذا أمـرٌ مثـيرٌ للاهتـمامِ يـا نـور! هنالـك ثلاثـةُ مصـادر أساسـيَّةٌ سـتكون محـور حديثنـا في هـذا الشـأنِ؛ الشريعتـان اليهوديَّـة، والمسـيحيَّة، والدِّيـن الْإِسْلَامِيّ، فهـي أَخبـار الغيـب التـي وصلَتنـا عـن طريـق الرسـلِ والأنبيـاءِ والكتـب السَّـماوية، وتلـك الشرائـعُ والدِّيـن الْإِسْلَامِيّ دعـت إِلَى التوحيـد، إلا أَنَّ التـوراة والإنجيـلَ قـد وقـعَ عليهـم تغيـيرٌ وتحريـفٌ بيـد البـشرِ، عـلى عكـس القـرآن الكريـم الـذي حُفـظَ إلى يومنـا هـذا، كـما نـزل عـلى نبـيِّ اللـه محمـد صَـلَّى اللـهُ عَلَيـهِ وَسَـلَّمَ، وقـد جـاءَ القـرآنُ الكريـمُ مصدقًـا لمـا صـحَّ في التـوراة والإنجيـلِ، ومتمِّـمًا لتلـك الشرائـع.

وقـد ذكـر اللـه تعـالى في القـرآن الكريـم أَنَّ الدِّيـن عنـد اللـهِ هـو الإسـلام، وأن اليهوديـة والمسـيحيَّة هـي أسـماء أَطلقهـا اليهـود والنصـارَى عـلى تلـكَ الشرائـع، فمصطلـح الأديـان السـماويَّة الثلاثَـة مصطلـحٌ خاطِئٌ، فاليهوديـة والنصرانيَّـة

شرائع وليست أديانًا، ولا يوجد شيءٌ اسمُه الأديان السماويَّة الثلاثَة! قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[آل عمران: 19]، إذَن ما هي اليهوديَّة والنصرانيَّة؟

أولًا: كُتبُهم اسمُها التوراة والإنجيل، وهي شرائع وكتبٌ سماويةٌ، وليسَت دياناتٍ، والدِّين واحدٌ فقط، وهو الإسلامُ، قال الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[المائدة: 48].

فالشَّرائع تختلفُ، حيثُ إنَّ كل شريعةٍ تختلف عن الأخرى في الحرام والحلالِ، ولكن الدِّين واحدٌ! فكل الأنبياء والرسل دينُهم واحدٌ، وهو الإسلامُ، أما الادِّعاء بأن اليهودية والنصرانيَّة ديانةٌ؛ فهذا أمرٌ ليس له أساسٌ من الصِّحة، فاليهود والنصارَى هم الذين سمّوا أنفسهم بذلكَ، ولم يسمِّهم اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- نصارى أو يهودًا! قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾ [المائدة:14] .

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ [البقرة:135].

فهم الذين أَطلقوا على أنفسهم تلك المسمَّيات، أما كلّ الأنبياء والرُّسلِ فَقَد قالوا إنا مسلمون، حتى فرعون قال ذلكَ حين أدركه الغرقُ في قوله تعالى: ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:90]. فلماذا لم يقل وأنا من اليهود؟! إنّ هذه الآيات تدلُّ على أنَّ الدِّين واحدٌ، وهو الإسلامُ، وليس ثلاث ديانات! قال نبيُّ الله نوح -عليه السلامُ- في قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:72].

وقال نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام لبنيه في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:132].

وقال نبي الله يوسُف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي

بِالصَّالِحِـينَ ﴾ [يوسـف:101].

وقـال نبـي اللـه مـوسى عليـه السـلام في قولـه تعـالى: ﴿ وَقَـالَ مُـوسَىٰ يَـا قَـوْمِ إِن كُنتُـمْ آمَنتُـم بِاللَّـهِ فَعَلَيْـهِ تَوَكَّلُـوا إِن كُنتُـم مُّسْـلِمِينَ ﴾ [يونـس: 84].

وقـال نبـي اللـه عيـسى عليـه السـلام في قولـه تعـالى: ﴿ فَلَـمَّا أَحَـسَّ عِيـسَىٰ مِنْهُـمُ الْكُفْـرَ قَـالَ مَـنْ أَنصَـارِي إِلَى اللَّـهِ قَـالَ الْحَوَارِيُّـونَ نَحْـنُ أَنصَـارُ اللَّـهِ آمَنَّـا بِاللَّـهِ وَاشْـهَدْ بِأَنَّـا مُسْـلِمُونَ ﴾ [آل عمـران: 52].

وتـأتي الآيـةُ الجامعـة لـكلِّ الأنبيـاء وهـم يُقـرّون بأنهـم مسـلمونَ قـي قولـه تعـالى: ﴿ قُولُـوا آمَنَّـا بِاللَّـهِ وَمَـا أُنـزِلَ إِلَيْنَـا وَمَـا أُنـزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيـمَ وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ وَيَعْقُـوبَ وَالْأَسْـبَاطِ وَمَـا أُوتِيَ مُـوسَىٰ وَعِيـسَىٰ وَمَـا أُوتِيَ النَّبِيُّـونَ مِـن رَّبِّهِـمْ لَا نُفَـرِّقُ بَـيْنَ أَحَـدٍ مِّنْهُـمْ وَنَحْـنُ لَـهُ مُسْـلِمُونَ ﴾ [البقـرة: 136].

وجـاء خاتـم النَّبيـين والمرسـلين؛ سـيِّدُنا محمـدٌ -صَـلَّى اللـهُ عَلَيـهِ وَسَـلَّمَ- يحمـل الشَّريعـة الْإِسْـلَامِيّةَ التـي تدعـو إلى دِيـن الإسـلامِ أيضًـا، ولكـن بمنهـجٍ مكمـلٍ لـكلِّ الشرائـعِ، فـكل مـن آمـن باللـهِ، وبـكل نبـيٍّ بُعـثَ؛ فهـو مسـلمٌ، ويشـهد أن لا إلـه إلا اللـه، أي أنَّـه مستسـلمٌ وخاضـع للـه وحـده إلهًـا واحـدًا لا شريـكَ لـه.

وأعـودُ إلى سـؤالكَ عـن الوحدانيَّـة، إذا عدنـا للكتـب السـماويَّة الثلاثَـة السـابق ذكرهـا؛ فيجـب أن نسـتبعد الإنجيـل في هـذه المرحلـةِ؛ لأنَّـه -بعـد تحريفـهِ- اعتنـقَ المسـيحيون معتقـدَ أن عيـسى ابـن مريـم هـو ابـن اللـهِ، وهـو اللـه في الوقـتِ نفسِـهِ، وأنَّ اللـه ثالـث ثلاثـة (الأَب، الابـن وروح القـدس) -الثالوث- تعـالى اللـه عـما يصفـون!

- مهـلًا يـا آدم، أنـا لا أفهـمُ كيـف توصَّلـوا إِلَى هــذا الأمـرِ، إنَّـه منـافٍ للمنطـق والعقل!

- هـذه نتائـجُ تحريـف الكتـب السـماويَّة التـي تُفـضي في نهايـة الأمـر إِلَى اللامنطـق، فتدَخُّـل البـشر في أمـر الْخَالِـق سـيؤدِّي إِلَى نتائـج غريبـةٍ وغـير منطقيَّةٍ؛ لذلـك فلنسـتبعد المسـيحيَّة مـن نقاشـنا. أما اليهوديَّـة فقـد ادَّعـت بعـد التحريـف أنَّ

عزيـرًا -عليـه السـلامُ- ابـن اللـه أيضًـا تعـالى اللـه عـما يصفـونَ، لذلـك فـإنّ الشريعة الوحيـدةَ التـي تمسَّـكت بالوحدانيـة هـي الديانـة الْإِسْلَامِيّةُ، والـشَّرط الأسـاسيُّ في اعتنـاق الإسـلامِ هـو شـهادةُ أَن لا إلـه إلا اللـه، وأنَّ محمـدًا عبـده ورسـوله عليـه الصَّـلاة والسـلام.

وأنـا عـلَى يقـينٍ تـامٍّ أنَّـك سـتجد إجابـاتٍ لـكلِّ أسـئلتك مـن القـرآن الكريـمِ، فهـو الدِّيـن الناسـخ والمتمِّـمُ والمهيمـنُ لـكلِّ مـا سـبقه مـن الشرائـع السـماويَّة، وقـد حفـظ اللـهُ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى القـرآن الكريـمَ مـن التَّغيـير والتبديـل والتَّحريـف وجعـل آياتـه تبيانًـا لـكلِّ شيء. قـال تعـالى: ﴿ إِنَّـا نَحْـنُ نَزَّلْنَـا الذِّكْـرَ وَإِنَّـا لَـهُ لَحَافِظُـونَ ﴾ [سـورة الحجـر:9].

ودَعْنِـي أَقـرأ عليـك بعـضَ النُّصـوص القرآنيَّـة المتعلّقـة بأمـر الوحدانيَّـةِ، وتنزيـه الْخَالِـق سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَـن أن يتَّخذ شريكًـا أو صاحبـــةً أو ولـــدًا، قـــال تعالى: ﴿قُـلْ هُـوَ اللَّـهُ أَحَـدٌ (1) اللَّـهُ الصَّمَـدُ (2) لَـمْ يَلِـدْ وَلَـمْ يُولَـدْ (3) وَلَـمْ يَكُـنْ لَـهُ كُفُـوًا أَحَـدٌ (4)﴾ [سـورة الإخـلاص:1-4].

﴿مَـا كَانَ لِلَّـهِ أَن يَتَّخِـذَ مِـن وَلَـدٍ سُـبْحَانَهُ إِذَا قَـضَىٰ أَمْـرًا فَإِنَّمَـا يَقُـولُ لَـهُ كُـن فَيَكُـونُ﴾ [سـورة مريـم: 35].

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ سورة [الجن :3].

﴿لَـوْ كَانَ فِيهِـمَا آلِهَـةٌ إِلَّا اللَّـهُ لَفَسَـدَتَا ۚ فَسُـبْحَانَ اللَّـهِ رَبِّ الْعَـرْشِ عَـمَّا يَصِفُـونَ (22)﴾ [الأنبيـاء:22].

- حسـبك يـا آدم، إنّهـا إجابـاتٌ أبلـغ وأسـمى مـما تخيَّلـتُ، يـا لعظمـة تلـكَ الآيات! هـل ذكـر القـرآنُ الكريـم أهميَّـةَ علـم الغيـبِ؟

- بالطبـع فهـذا أمـرٌ أسـاسيٌّ في الإيمـان، وقـد ذكـره اللـهُ -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- في مواضـع كثـيرةٍ في القـرآن الكريم، ففـي سـورة البقـرةِ، وهـي السُّـورة الثانيـة في القـرآن الكريـــــمِ حسب ترتيـب السُّــور التـي يبلـغ عددهـــا 114 سورةً؛ قال تعـــالى: ﴿الم (1) ذَٰلِـكَ الْكِتَـابُ لَا رَيْـبَ فِيـهِ هُـدًى لِّلْمُتَّقِـينَ (2) الَّذِيـنَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْـبِ

وَيُقِيمُـونَ الصَّلَاةَ وَمِـمَّا رَزَقْنَاهُـمْ يُنفِقُـونَ (3) وَالَّذِيـنَ يُؤْمِنُـونَ بِمَا أُنـزِلَ إِلَيْـكَ وَمَـا أُنـزِلَ مِـن قَبْلِـكَ وَبِالْآخِـرَةِ هُـمْ يُوقِنُـونَ (4) أُولَـٰئِكَ عَـلَىٰ هُـدًى مِّـن رَّبِّهِـمْ وَأُولَـٰئِكَ هُـمُ الْمُفْلِحُـونَ (5)﴾ [البقـرة: 1-5].

فالفـلاح والتقـوى مرتبـطٌ بالإيمـان بالغيـب بشـكلٍ أسـاسيٍّ ووثيـقٍ، والإيمـانُ باللـه وملائكتـه وكتبـه ورسـلهِ واليـوم الآخِـر والقضـاء والقـدر خـيره وشرّه هـي أركان الإيمـانِ في الإسـلام..

والاسـتنتاج الثَّالـثُ أنَّ الْإِنْسَـان مخلـوقٌ ضعيـفٌ، قـال تعـالى: ﴿ يُرِيـدُ اللَّـهُ أَن يُخَفِّـفَ عَنكُـمْ وَخُلِـقَ الْإِنْسَـان ضَعِيفًـا ﴾ [النسـاء: 28].

والاسـتنتاج الرابـعُ أَنّ الْخَالِـق غنـيٌّ لا يفتقـرُ، قـال تعـالى: ﴿ وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللَّـهَ غَنِـيٌّ حَمِيـدٌ ﴾ [البقـرة: 267]. ﴿ وَلِلَّـهِ خَزَائِـنُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِـنَّ الْمُنَافِقِـينَ لَا يَفْقَهُـونَ ﴾ [المنافقـون: 7].

والاسـتنتاج الخامـسُ أنَّ الْخَالِـق حـيٌّ لا يمـوتُ: ﴿ وَتَـوَكَّلْ عَـلَى ٱلْحَـىِّ ٱلَّـذِى لَا يَمُـوتُ وَسَـبِّحْ بِحَمْـدِهِ وَكَفَـىٰ بِـهِ بِذُنُـوبِ عِبَـادِهِ خَبِـيرًا ﴾ [الفرقـان: 58].

والاسـتنتاج السـادسُ أنّ الْخَالِـق لا يلهـو ولا يتعـبُ ولا يلعـبُ، تعـالى اللـه عـمَّا يصفـون علـوًّا كبيرًا: قـال تعـالى: ﴿ وَمَـا خَلَقْنَـا السَّـمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُـمَا لَاعِبِـينَ (16) لَـوْ أَرَدْنَـا أَنْ نَتَّخِـذَ لَهْـوًا لَاتَّخَذْنَـاهُ مِـنْ لَدُنَّـا إِنْ كُنَّـا فَاعِلِـينَ (17) بَـلْ نَقْـذِفُ بِالْحَـقِّ عَـلَى الْبَاطِـلِ فَيَدْمَغُـهُ فَـإِذَا هُـوَ زَاهِـقٌ وَلَكُـمُ الْوَيْـلُ مِـمَّا تَصِفُـونَ (18) ﴾ [الأنبياء: 16-18].

والاسـتنتاج السـابعُ أنَّ الْخَالِـقَ لا ينـام ولا يتعـبُ، قـال تعـالى: ﴿ اللَّـهُ لَا إِلَٰـهَ إِلَّا هُـوَ الْحَـيُّ الْقَيُّـومُ لَا تَأْخُـذُهُ سِـنَةٌ وَلَا نَـوْمٌ لَّـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ مَـن ذَا الَّـذِي يَشْـفَعُ عِنـدَهُ إِلَّا بِإِذْنِـهِ يَعْلَـمُ مَـا بَـيْنَ أَيْدِيهِـمْ وَمَـا خَلْفَهُـمْ وَلَا يُحِيطُـونَ بِـشَيْءٍ مِّـنْ عِلْمِـهِ إِلَّا بِمَـا شَـاءَ وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُـودُهُ حِفْظُهُـمَا وَهُـوَ الْعَـلِيُّ الْعَظِيـمُ ﴾ [البقـرة:255]. ﴿ وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا ٱلسَّـمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُـمَا فِي سِـتَّةِ أَيَّـامٍ وَمَـا مَسَّـنَا مِـن لُّغُـوبٍ﴾ [ق: 38] واللغـوبُ هـو التعـبُ.

والاستنتاج الثَّامن هو خلق الْإِنْسَان ونظرية البناء المعرفيّ، فقد ذكر الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- خلقَ الْإِنْسَان بالتَّفصيلِ، مبيِّنًا المكوّنات الأساسيَّة في الْإِنْسَانِ، قال تعالى:

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَان مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ(9) ﴾ [السجدة: 6-9].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَان مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ﴾ [المؤمنون: 12-14].

﴿ وَنَفسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا (7) فَأَلهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقوَىٰهَا (8) قَد أَفلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (9) وَقَد خَابَ مَن دَسَّىٰهَا (10) ﴾ [الشمس 7-10].

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: 85].

_ وفي الحقيقة إنَّ ما شرحتَه لي عن موضوع نظريَّة البناء المعرفيّ الْوَظِيفِيّزيائية، وتشريح النفس الْبَشَرِيّةِ، وخصوصًا الْقَلْب النَّفْسِيّ، وما يحويهِ من قشرةٍ ولبٍّ، وتفسير وظائفهما المعرفيَّةِ؛ أمرٌ مثيرٌ للاهتمام!

إنَّ ما توصَّلت إليه يا نور عقليًّا مطابقٌ تمامًا لما ورد في القرآن الكريمِ، وما توصَّلت إليه في سبع سنواتٍ؛ كنتَ تستطيع قراءَته في آيات القرآن الكريمِ في بضع ساعاتٍ، ولكنَّني لن أُقلِّل من مجهودك في تلكَ الاستنتاجاتِ. دعني أعترَف لكَ أنَّني كنتُ أقرأ القرآن يوميًّا، ولم أستطع فهمَ بعض الآياتِ وتدبُّرَها بالشَّكل الصحيحِ إلا من بعد أن شرحتَ لي استنتاجاتِك عن النظريَّة المعرفيّة.

أمَّا فيما يخصُّ العقل؛ فقد وردت مشتقَّات كلمةُ (عقل) في القرآن الكريم في

49 موضعًا كفعلٍ (تَعقِلون، عَقلوه ، يَعقِلون ، يَعقِلها ، نَعقِل...) ولم ترِد اسمًا بصيغة (عقل) البتَّة!

وهذا مطابقٌ لما توصَّلت إليه أن العقلَ هو عمليَّة فعليَّةٌ؛ (عملية ربط للمعارف، وليسَ كيانًا ذهنيًّا أو ماديًّا)، أمَّا المسؤولُ عن تكوين المعارف والمرجعيَّات كما ذكرت تمامًا هو القلب. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: 46]. ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾. [الأعراف: 179]

وقد ذكر الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- في الآيات الكريمةِ السَّابقة أنَّ القلوب تبصرُ، وأنَّ الآذان قد لا تسمعُ، وهذا يطابقُ مسألة الْوَعْي الْحِسِّيّ للنفسِ الْبَشَرِيّة، الذي ذكرته في استنتاجاتِك الفَلْسَفِيّة بأن النَّفس تسمع وتبصرُ!

أما قولهُ جلَّ وعلا: لهم قلوب يفقهون بها؛ فَيعني لغويًّا: الفهم والفطنة والتعلم والاستيعاب، وهذا -أيضًا- يدعمُ نظريتك، وقد قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: 97].

وجبريل -عليه السلامُ- هو الملاكُ الذي أَرسله الله -تعالى- إِلَى رسول الله محمدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بالرسالة والقرآن الكريم، وفي الآية الكريمة السابقة ذكرَ اللهُ تعالى أنَّه أنزل القرآنَ على قلب نبيِّ الله محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، وهذا دليلٌ قطعيٌّ أنّ المعرفةَ مكانها القلب.

إذن، وبحسب المصدر الغيبيِّ (القرآن الكريم)؛ فالْقَلْب هو المسؤول عن تكوين البناء المعرفيِّ في الْإِنْسَانِ، والعقل هو عمليَّة ربط لتلك المعارفِ، ويعمل في نطاق القلبِ[1].

(1) المقصود بالْقَلْب هنا ليس الْقَلْب النابض، بل الْقَلْب النَّفْسِّي.

ومـن ناحيـةٍ أخـرى؛ فـإنَّ اسـتنتاجك أن الْقَلْـب يتكـوّن مـن لـبٍّ يحـوي الحكمـة، وقـشرةٍ تحـوي الشـهوات والرغبـات أمـرٌ مبهـرٌ حقًّـا.

- وهل ذكر القرآنُ الكريمُ ذلك الأمر؟

- بالطَّبـع، لقـد قلـتُ لـك إنَّـك سـتجدُ إجابـاتٍ لـكل أسـئلتك في القـرآن الكريـمِ، قـال تعـالى: ﴿ وَنَزَّلْنَـا عَلَيْـكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَٰنًـا لِّـكُلِّ شَيْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً وَبُـشْرَىٰ لِلْمُسْـلِمِينَ﴾ [النحـل: 89]. بحسـب مـا ذكـرت في اسـتنتاجاتك عـن اللـبّ والحكمـةِ؛ فإنَّـه -وبالفعـلِ- الحكمـة بحسـب القـرآن الكريـم مختصـةٌ بـأولي الألبـابِ، قـال تعـالى: ﴿ يُـؤْتِى ٱلْحِكْمَـةَ مَـن يَشَـآءُ وَمَـن يُـؤْتَ ٱلْحِكْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِىَ خَـيْرًا كَثِيرًا وَمَـا يَذَّكَّـرُ إِلَّآ أُوْلُـواْ ٱلْأَلْبَٰـبِ ﴾ [البقـرة: 269].

أمَّـا فيـما يخـصُّ القـشرة القلبيَّـة، أو منطقـة الهـوى؛ فلـم يذكرهـا القـرآن الكريـمُ بمصطلـح القـشرةِ، ولكـن الـدلالات الْوَظِيفِيّـة لهـا أقـربُ مـا تكـون إِلَى القـشرة أو الغطـاءِ، وهـذا قريـبٌ جـدًّا مـن اسـتنتاجاتكَ واللـه تعـالى أولى وأعلـم!

قـال تعـالى: ﴿ خَتَـمَ ٱللَّـهُ عَـلَىٰ قُلُوبِهِـمْ وَعَـلَىٰ سَـمْعِهِمْ وَعَـلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِـمْ غِشَٰـوَةٌ وَلَهُـمْ عَـذَابٌ عَظِيـمٌ ﴾. [البقـرة: 7].

وَقـالَ: ﴿ أُوْلَٰٓئِـكَ ٱلَّذِيـنَ طَبَـعَ ٱللَّـهُ عَـلَىٰ قُلُوبِهِـمْ وَسَـمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِـمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُـمُ ٱلْغَٰفِلُـونَ ﴾ [النحـل: 108].

﴿ وَجَعَلْنَـا عَـلَى قُلُوبِهِـمْ أَكِنَّـةً أَنْ يَفْقَهُـوهُ وَفِي آذَانِهِـمْ وَقْـرًا وَإِذَا ذَكَـرْتَ رَبَّـكَ فِي الْقُـرْآنِ وَحْـدَهُ وَلَّـوْا عَـلَى أَدْبَارِهِـمْ نُفُـورًا ﴾ [الإسراء: 46]، أكنَّـة بمعنـى أغطيـة.

﴿ كَلَّا بَـلْ رَانَ عَـلَىٰ قُلُوبِهِـم مَّـا كَانُـواْ يَكْسِـبُونَ ﴾ [المطففـين:١٤] ران: هـو الذنـب عـلى الذنـب حتـى يسـود الْقَلْـب.

﴿ ثُـمَّ قَسَـتْ قُلُوبُكُـم مِّـن بَعْـدِ ذَٰلِـكَ فَهِـىَ كَٱلْحِجَـارَةِ أَوْ أَشَـدُّ قَسْـوَةً﴾. [البقـرة: 74]. وفي هـذه الآيـة الكريمـةِ؛ يشـبِّهُ اللـه -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- قلـوبَ الكافريـن مـن شـدَّة تراكـم ذنوبهـم بأَنَّهـا كالحجـارةِ، بـل أشـدُّ قسـوة.

إذا تأمَّلنا الآياتِ الكريمةَ السابقةَ؛ يتبيَّن لنا أنَّ تراكمَ الذنوب والمعاصي يؤدِّي إِلَى تكوين غطاء وغشاوةٍ، يؤدِّي تراكمُها مع الزَّمن إِلَى قسوة الْقَلْبِ، وبالتالي عدم القدرةِ علَى الوصول إِلَى اللبِّ المُفضي للحكمةِ كما ذكرت سابقًا، وبالتالي فإنَّ اتِّخاذَ القرارات يكون سطحيًّا من منطقة الهوى كما ذكرتَ في نظريتك. قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:23].

وهنا يذكر الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنَّ الضَّالين عن الهُدى يتبعون الهَوى؛ أي الشَّهوات والرَّغبات، فيختم اللهُ على قلبِهم وسمعهم وأبصارهم، فيفقدُون التَّواصل الجسديَّ النَّفْسِيّ بكفرهم وضلالهم، فيشاهدون ولا يبصرونَ، ويسمعون ولا يعونَ، ويعون حسيًّا ولا يعقلون نفسيًّا. قال تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 12].

أَعتقد أنَّ تلك الآيات الكريمة تعطيك إجابةً شافيةً عن استنتاجاتك، وهناكَ كثيرٌ من الآيات الكريمةِ التي تتحدَّث عن هذا الأمرِ، بإمكانك الرجوع إليها، ولا أنكر أنني لم أفهمها من قبل بطريقةٍ واضحةٍ إلا من بعدَما اطّلعت على نظريَّتك المعرفيَّة الحديثة التي قدَّمتها لي، بوركتَ.

من ناحيةٍ أُخرى؛ فقد ذكر الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- جزءًا آخر كنتُ أعتقد في بادئِ الأمر أَنَّه يمثِّل الْقَلْب النَّفْسِيَّ، ألا وهو (الفؤاد)، ولقد ذُكِر في عدد مراتٍ أقل من ذكر القلب، ولكن بعدَ قراءتي لفلسفتكَ؛ وجب عليَّ أن أتعمَّق بشكلٍ أكبر لفهم الدور الرئيسِ للفؤاد في عمليَّة البناء المعرفيِّ، وعلاقته بالْقَلْب النَّفْسِيّ، وَكما ذكرتُ لكَ؛ فالْقَلْبُ يعمى ويُبصر ويسمع، ويُصمُّ ويقسو ويسود. أما الفؤاد ، قد وصفَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنَّهُ يرى، قالَ الله عزَّ وجل: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم:11]. وفي موضعٍ أخر وصَفَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأفئدة أنَّها تَصْغَى (أي : تميل أو تَزيغ) ، قالَ الله عزَّ وجل: ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام:113]. وفي مواضع أخرى، جاء ذكرُه مقترنا مع

السـمع والبـصرِ؛ لتذكـير الْإِنْسَـان بتلـك النعـمِ، وأنـه مسـؤولٌ عنهـا، وسيُحاسـب عليهـا يـوم القيامـة، قـال تعـالى: ﴿ إِنَّ السَّـمْعَ وَالْبَـصَرَ وَالْفُـؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِـكَ كَانَ عَنْـهُ مَسْـئُولًا ﴾ [الإسراء: 36]. وقـال عـز وجـلَّ: ﴿ قُـلْ هُـوَ الَّـذِي أَنشَـأَكُمْ وَجَعَـلَ لَكُـمُ السَّـمْعَ وَالْأَبْصَـارَ وَالْأَفْئِـدَةَ قَلِيـلًا مَّـا تَشْـكُرُونَ ﴾ [الملـك: 23].

أمَّـا بَقيَّـة الآيـات الكريمـةِ التـي ذُكِـرَ فيهـا وصـفٌ للفـؤاد؛ وَصَفَـهُ اللـه - سـبحانه وتعـالى- بصفتـين؛ الأولى التثبيـت، والثانيـة وصـف حالـة الحـزن الشَّـديد والذهـول، وكأنَّ عملـه أقـرب مـا يكـون لعمـل الوعـاء المرجعـيِّ الـذي ذكرتـه في استـنتاجاتكَ، والــذي يحــوي المعلومــاتِ والذَّاكــرة المعرفيــة في الْإِنْسَــانِ، فقــد وصــف اللــهُ -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- الفـؤادَ بأنَّـه أشـبه مـا يكـون بشـعور الفـراغِ أو الهـواء عنـد دخـول الْإِنْسَـان في حالـة حـزنٍ شـديدٍ، أو عنـد تعرُّضـه لصدمـةٍ، فيصبـح عاجـزًا عـن التَّفْكِـير، وكأنمـا فقَـدَ كلَّ مـا لديـه مـن معلومـاتٍ في ذاكرتـهِ، ولا يسـتطيع الخـروج مـن دائـرة الحـزن أو الصدمـة التـي وقـع فيهـا.

ونلاحـظ ذلـكَ في وصـف اللـه سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى فـؤادَ أم مـوسى عليـه السـلام، عندمـا أَلقتـه في اليـمِّ وهـو رضيـعٌ، بأمـر مـن اللـه عـزَّ وجـلَّ؛ فقـد وصـفَ فؤادَهـا بأنَّـهُ أصبـح فارغًـا مـن الحـزن عـلى رضيعهـا! قـال تعـالى: ﴿ وَأَصْبَـحَ فُـؤَادُ أُمِّ مُـوسَىٰ فَارِغًـا إِن كَادَتْ لَتُبْـدِي بِـهِ لَـوْلَا أَن رَّبَطْنَـا عَـلَىٰ قَلْبِهَـا لِتَكُـونَ مِـنَ الْمُؤْمِنِـينَ ﴾ [سـورة القصص:10].

دعنـي أَذكـر لـك جـزءًا مـما ورد في تفسـير الآيـة الكريمـة: حدَّثنـا القاسـمُ قـال[1]: ثنـا الْحِسِّـيّن، قـال: ثنـي حجـاج، عـن أبي بكـر بـن عبـد اللـه، قـالَ: ثنـي الحسـن، قـال: أصبـح فارغـًا مـن العهـد الـذي عهدنـا إليهـا، والوعـدِ الـذي وعدناهـا أن نـردَّ عليهـا ابنَهـا، فنسـيت ذلـك كلـهُ، حتـى كادَت أن تُبْـدِي بـه لـولا أن ربَطنـا عـلى قلبهـا.

حدثنـا ابـن حميـد، قـال: ثنـا سـلمة، قـال: قـال ابـنُ إسـحاق: قـد كانـت أمُّ مـوسى ترفـع لـه حـين قذفتـه في البحـر، هـل تسـمعُ لـه بذكـرٍ؟ حتـى أتاهـا الخـبرُ بـأن فرعـون أصـابَ الغـداة صبيًّـا في النِّيـل في التَّابـوت، فعرفـت الصِّفـة، ورأت أنَّـه وقـع في يـدي عـدوّه الـذي فـرَّت بـه منـه، وأصبـح فؤادهـا فارغًـا مـن عهـد اللـه إليهـا

(1) تفسير الطبري

فيـهِ، قـد أنسـاها عظيـمُ البـلاء مـا كانَ مـن العهـد عندهـا مِـن اللـه فيـه.

نلحـظ مـما سـبق أنَّ الفـؤاد الجـزء المسـؤول عـن الثبـاتِ، وتذكُّـر العهـود، بنـاءً عـلى مـا ورد مـن التفاسـير، ومـن ناحيـةٍ أُخـرى نلاحـظُ أن اللـه -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- قـال عنـد مُصـاب الفـؤاد أنَّـه ربـط عـلى الْقَلْـبِ، أَي ثبـت الْقَلْـب، فثبـت الفـؤاد بثباتـهِ، ولم يقـل -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- ربطنـا عـلى فؤادِهـا، أَو ربطنـا عليـهِ! إذَن يظهـر أنَّ الفـؤاد هـو جـزءٌ داخـل الْقَلْـب النَّفْـسِيِّ، يثبـت بثبـات القلـب، وبلغـةٍ أُخـرى؛ فالْقَلْـب أَشـبه مـا يكـونُ بالجـدار المحيـطِ بالفـؤادِ، والـذي يحميـه مـن التَّقلبـات الْعَاطِفِيّـةِ، ونسـيان المواثيـق في حالـة الحـزنِ، والصَّدمـاتِ التـي قـد تـؤدي إِلَى الإتيـان بعمـلٍ غـير حكيـمٍ، مـن شـدة اليـأسِ أو الحـزنِ أو الخـوف أو عِظـم المسـؤوليَّةِ، وأقصـد بِعظـم المسـؤوليةِ مـا ذكـره اللـهُ -تعـالى- عـن نبيِّـه محمـد -صَلَّى اللـهُ عَلَيـهِ وَسَـلَّمَ- عندمـا قـال اللـهُ تعـالى: ﴿ وَقَـالَ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا لَـوْلَا نُـزِّلَ عَلَيْـهِ الْقُـرْآنُ جُمْلَـةً وَاحِـدَةً كَذَٰلِـكَ لِنُثَبِّـتَ بِـهِ فُـؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـاهُ تَرْتِيـلًا ﴾ [الفرقـان: 32]. وأقصـد بالخـوفِ ذلـك المشـهد الـذي ذكـره اللـه -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- واصفًـا بـه الكفـارَ، في قولـه تعـالى: ﴿ مُهْطِعِـينَ مُقْنِعِـي رُءُوسِـهِمْ لَا يَرْتَـدُّ إِلَيْهِـمْ طَرْفُهُـمْ وَأَفْئِدَتُهُـمْ هَـوَاءٌ ﴾ [إبراهيـم: 43]. وهنـا يصـف اللـهُ -عـزَّ وجـلّ- أفئـدة الكافريـنَ يـوم القيامـةِ بأنهـا هـواء، وذلـك أشـبه مـا يكـون بشـعور الضَّيـاع الـذي يرافـق الخـوفَ الشـديدَ، بحيـث يشـعر الْإِنْسَـان في تلـك اللحظـة بِضيـاع تلـك البوصلـة المعرفيَّـة التـي كان يمتلكهـا مـن قبـل.

وهنـا يجـبُ أَلَّا نتجـاوَز الـدورَ الْعَاطِفِـيّ الوثيـقَ مـا بـين حَاسَّـة الْوَعْـي الْعَاطِفِـيّ القلبيَّـة النَّفْسِـيّةِ، وارتباطِهـا مـع الفـؤادِ، والتـي تتحكَّـم بـرد الفعـل الناتـج عـن ذلـكَ الشُّـعُور في منطقـة الفؤاد. لقـد ذكـرتُ لـك يـا نـور أَنَّ الفـؤادَ مـكانُ الذاكـرةِ، وهـذا أَغلـبُ الظـنِّ، ولكـن دعنـا نتدبـر الآيـات الكريمـةَ التاليـةَ؛ لنفهـم الأَمـر بشـكلٍ أعمـق:

قـال تعـالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّـكَ لَهُـوَ الْعَزِيـزُ الرَّحِيـمُ (191) وَإِنَّـهُ لَتَنْزِيـلُ رَبِّ الْعَالَمِـينَ (192) نَـزَلَ بِـهِ الـرُّوحُ الْأَمِـينُ (193) عَـلَى قَلْبِـكَ لِتَكُـونَ مِـنَ الْمُنْذِرِيـنَ (194) بِلِسَـانٍ عَـرَبِيٍّ مُبِـينٍ (195)﴾ [الشـعراء: 191-195].

وقـال اللـه تعـالى: ﴿ وَقَـالَ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا لَـوْلَا نُـزِّلَ عَلَيْـهِ الْقُـرْآنُ جُمْلَـةً وَاحِـدَةً كَذَٰلِـكَ لِنُثَبِّـتَ بِـهِ فُـؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـاهُ تَرْتِيـلًا ﴾ [الفرقـان: 32].

إذَن، تنـزُّلُ الوحـيِ بالقـرآن الكريـم يكـون عـلى الْقَلْـبِ، ليثبـت اللـه بـه الفـؤاد، فالْقَلْـب هـو المسـتقبل للوحـيِ، وهـو المسـؤول عـن التَّأثـير المبـاشرِ في ثبـات الفـؤاد الْعَاطِفِـيّ، أمـا مـكان الذَّاكـرة بالتحديـد فهـو الْقَلْـبُ، ولكـن لا أسـتطيع الجـزمَ بشـكلٍ قاطـعٍ إن كانـت الذاكـرة تقـع داخـل الفـؤاد تحديـدًا أم لا؛ إلا إذا عُدنـا إلَى مـا ذكـره المفـسرون -مـما ذكرتـه فيـما تقـدم- أن فؤادهـا أصبـح فارغًـا، أي نسـيت العهـودَ، فهـذا يعنـي أنَّ الفـؤاد هـو مـكان الذاكـرةِ، وهـذا هـو الأقـرب للصَّـوابِ، ولكـن أكـرِّر أَنَّنـي لا أسـتطيع الجـزم قطعيًّـا بهـذا الأمـرِ، ومـا ذكرتـه مـا هـو إلا اجتهـاد قـد يفتـح أبوابًـا للتدبُّـر كانـت مغلقـةً مـن قبـل، هـذا واللـه تعـالى أولَى وأعلـم.

- والـذي نفـسي بيـدهِ إنَّـه لكتـابٌ معجـزٌ يـا آدم، فيـه بيـانٌ عظيمٌ، هـل ذكـرتَ لي أن رسـول اللـه محمـدًا -صَـلَّى اللـهُ عَلَيـهِ وَسَـلَّمَ- كان أميًّـا؟!

- نعم، إنَّه نبيٌّ أميٌّ.

- يـا للعجـبِ! أشـهد أنَّـه رسـولٌ مـن عنـد الْخَالِـق، وأشـهد أنَّ القـرآن الكريـم كلام الْخَالِـق.

- لم ننتـهِ بعـد يـا نـور! سـتجد كثـيرًا مـما يشـفي صـدرك، ويجيـب عـلى تسـاؤلاتكَ جميعِهـا بـإذن اللـهِ فيـما سـيَأتي، فهـذا كلام الْخَالِـق يعلـو ولا يُعـلا عليـه!

بالمناسـبةِ؛ هـذه مقولـة الوليـد بـن المغـيرة، وهـو مـن كفـار قريـش، وهـم قـوم نبيِّنـا محمـد صَـلَّى اللـهُ عَلَيـهِ وَسَـلَّمَ، قالهـا عندمـا سـمعَ نبيَّنـا محمـدًا -صَـلَّى اللـهُ عَلَيـهِ وَسَـلَّمَ- يتلـو القـرآنَ، فقـال: «إنَّ لـه لحـلاوة؛ وإنَّ عليـه لَطَـلاوة، وإنّـهُ يعلـو ولا يُعـلى عليـه»[1].

(1) - أخرجـه الحاكـم في مسـتدركه، كتـاب التفسـير، بـاب تفسـير سـورة المدثـر (550/2ح3872)، وقـال هـذا حديـث صحيـح الإسـناد عـلى شرط البخـاري ولم يخرجـاه، وأخرجـه البيهقـي في شـعب الإيمـان (287/1ح133).

- وصفٌ جميلٌ! وهل آمنَ بأنه كلام الْخَالِق؟

- لا، لم يؤمـنْ، بَـل كـذبَ حتـى بعـد مـا عقـل إعجـازَ القـرآن الكريمِ؛ اسـتكبارًا وخوفًـا عـلى مكانتـه عنـد قومـهِ، فقـد كان سـيدًا مـن سـادة قريـش، وكـما ذكـرت في اسـتنتاجاتكَ؛ أنَّ العقـل عمليـةٌ أساسـيةٌ للهدايـة إِلَى الصـوابِ، ولكـن الْإِنْسَـانَ قـد يعقـل ويهتـدي، أو يعقـل ويضـلُّ، ويعتمـد ذلـك بشـكلٍ رئيـسٍ عـلى مرحلـة التَّفْكِـير التـي تسـبقُ اتخـاذ القـرار، وعـلى الإرادة الْإِنْسَـانِيَّة الحـرة في الاختيـارِ، والتـي لا تتعـدَّى بـأي حـالٍ مـن الأحـوال إرادةَ اللـهِ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى[1].

قـال تعـالى في وصـف كفـار بنـي اسرائيـل: ﴿ أَفَتَطْمَعُـونَ أَنْ يُؤْمِنُـوا لَكُـمْ وَقَـدْ كَانَ فَرِيـقٌ مِنْهُـمْ يَسْـمَعُونَ كَلَامَ اللَّـهِ ثُـمَّ يُحَرِّفُونَـهُ مِـنْ بَعْـدِ مَـا عَقَلُـوهُ وَهُـمْ يَعْلَمُـونَ ﴾ [البقــرة: 75]. وبالعـودة إِلَى موقـفِ الوليـد بـن المغـيرة؛ قـال تعـالى في وصفـه: ﴿ ذَرْنِي وَمَـنْ خَلَقْـتُ وَحِيـدًا (11) وَجَعَلْـتُ لَـهُ مَـالًا مَمْـدُودًا (12) وَبَنِـينَ شُـهُودًا (13) وَمَهَّـدْتُ لَـهُ تَمْهِيـدًا (14) ثُـمَّ يَطْمَـعُ أَنْ أَزِيـدَ (15) كَلَّا إِنَّـهُ كَانَ لِآيَاتِنَـا عَنِيـدًا (16) سَـأُرْهِقُهُ صَعُـودًا (17) إِنَّـهُ فَكَّـرَ وَقَـدَّرَ (18) فَقُتِـلَ كَيْـفَ قَـدَّرَ (19) ثُـمَّ قُتِـلَ كَيْـفَ قَـدَّرَ (20) ثُـمَّ نَظَـرَ (21) ثُـمَّ عَبَـسَ وَبَـسَرَ (22) ثُـمَّ أَدْبَـرَ وَاسْـتَكْبَرَ (23) فَقَـالَ إِنْ هَـذَا إِلَّا سِـحْرٌ يُؤْثَـرُ (24) إِنْ هَـذَا إِلَّا قَـوْلُ الْبَـشَرِ (25)﴾ [المدثـر: 11-25].

---

(1) منـح اللـهُ الْإِنْسَـان حريـة الاختيـارِ مـا بـين الهدايـة والضَّـلال، ولكـن الإرادةَ والمشـيئة الإلهيَّـة تعلـو وتهيمـنُ عـلى الإرادةِ الْإِنْسَـانيةِ؛ لذلـكَ فـإن اللـه -سبحانه وتعـالى- يُسـبِّب الأسـباب بنـاءً عـلى اختيـار الْإِنْسَـان في تحقيـق رغبـة الْإِنْسَـانِ، أو عـدم تحقيقهـا، بنـاءً عـلى تقديـره جـلَّ وعـلا، فهـو العزيـز الحكيـم: ﴿يُضِـلُّ اللَّـهُ مَـنْ يَشَـاءُ وَيَهْـدِي مَـنْ يَشَـاءُ﴾ [المدثـر:31]. وعَـنِ النَّبـيِّ -صَلَّى اللَّـهُ عليـه وسـلَّمَ- فِيـما رَوَى عَـنِ اللـهِ تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى، أنَّـهُ قـالَ: «يـا عِبَـادِي، إنِّي حَرَّمْـتُ الظُّلْـمَ عـلَى نَفْـسِي، وَجَعَلْتُـهُ بيْنَكُـمْ مُحَرَّمًـا، فـلا تَظَالَمُـوا، يـا عِبَـادِي، كُلُّكُـمْ ضَـالٌّ إلَّا مَـن هَدَيْتُـهُ، فَاسْـتَهْدُونِي أَهْدِكُـمْ، يـا عِبَـادِي، كُلُّكُـمْ جَائِـعٌ إلَّا مَـن أَطْعَمْتُـهُ، فَاسْـتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُـمْ، يـا عِبَـادِي، كُلُّكُـمْ عَـارٍ إلَّا مَـن كَسَـوْتُهُ، فَاسْتَكْسُـونِي أَكْسُـكُمْ، يـا عِبَـادِي، إنَّكُـمْ تُخْطِئُـونَ باللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ، وَأَنَـا أَغْفِـرُ الذُّنُـوبَ جَمِيعًـا، فَاسْـتَغْفِرُونِي أَغْفِـرْ لَكُـمْ، يـا عِبَـادِي، إنَّكُـمْ لَـنْ تَبْلُغُـوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَـنْ تَبْلُغُـوا نَفْعِـي فَتَنْفَعُـونِي، يـا عِبَـادِي، لـو أنَّ أَوَّلَكُـمْ وَآخِرَكُـمْ، وإنْسَـكُمْ وَجِنَّكُـمْ، كَانُـوا عـلَى أَتْقَـى قَلْـبِ رَجُـلٍ وَاحِـدٍ مِنكُـمْ؛ مـا زَادَ ذلـكَ في مُلْـكِي شـيئًا، يـا عِبَـادِي، لـوْ أنَّ أَوَّلَكُـمْ وَآخِرَكُـمْ وإنْسَـكُمْ وَجِنَّكُـمْ، كَانُـوا عـلَى أَفْجَـرِ قَلْـبِ رَجُـلٍ وَاحِـدٍ؛ مـا نَقَـصَ ذلـكَ مِـن مُلْـكِي شـيئًا، يـا عِبَـادِي، لـو أنَّ أَوَّلَكُـمْ وَآخِرَكُـمْ وإنْسَـكُمْ وَجِنَّكُـمْ، قَامُـوا في صَعِيـدٍ وَاحِـدٍ فَسَـأَلُونِي، فأعْطَيْـتُ كُلَّ إنْسَـانٍ مَسْـأَلَتَهُ؛ مـا نَقَـصَ ذلـكَ مـمَّا عِنـدِي إلَّا كـما يَنْقُـصُ المِخْيَـطُ إذَا أُدْخِـلَ البَحْـرَ، يـا عِبَـادِي، إنَّمـا هـي أَعْمَالُكُـمْ أُحْصِيهَـا لَكُـمْ، ثُـمَّ أُوَفِّيكُـمْ إيَّاهَـا، فمَـن وَجَـدَ خَـيْرًا فَلْيَحْمَـدِ اللَّـهَ، وَمَـن وَجَـدَ غـيرَ ذلـكَ فـلا يَلُومَـنَّ إلَّا نَفْسَـهُ، وفي روايـةٍ: إنِّي حَرَّمْـتُ عـلَى نَفْـسِي الظُّلْـمَ وعـلَى عِبَـادِي، فـلا تَظَالَمُـوا»، أخرجـه مسـلم في صحيحـه كتـاب البر والصلـة والآداب، بـاب تحريـم الظلـم (1994/4ح2577)، والبيهقـي في شـعب الإيمـان (300/9ح6686)، والبيهقـي في سـننه الكـبرى (154/6ح11503).

والعياذ بالله ...

إنَّ هـذا المشـهدَ في الآيـات الكريمـة السَّـابقة يبـيِّن أنَّ العقـل أمـرٌ مختلـفٌ تمامًـا عـن التَّفْكِـير، ذلـك أنَّـه بعدَمـا عقـلَ الوليـد أن القـرْآنَ الكريـمَ كلامٌ معجـزٌ، ليـس لبـشرٍ أن يـأتي بمثلِـه؛ فكّـر وقـدرَ، واتخـذ قـراره بنـاءً عـلى هـواهُ؛ تكـبرًا وخشـيةً مـن قومـهِ، ولم يتخـذه قـرارًا حكيـمًا مـن اللب بالإيمـان والاعـتراف بالحـقِّ الـذي عقلـه في قلبـه، فبالفعـلِ؛ التَّفْكِـير مرحلـةٌ تسـبق اتخـاذ القـرار بلحظـاتٍ معـدودةٍ، وبنـاءً عليـه يكـون قـرارُ الْإِنْسَـان النهـائي.

- مدهش يا آدم! وهل ذكَر الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- مكانَ الْقَلْب النَّفْسِيّ؟

- نعـم، لقـد ذكـر اللـه سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى أنَّ مكانـــه في صـدر الْإِنْسَـانِ، قـال تعـالى: ﴿أَفَلَـمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُـونَ لَهُـمْ قُلُـوبٌ يَعْقِلُـونَ بِهَـا أَوْ آذَانٌ يَسْـمَعُونَ بِهَـا فَإِنَّهَـا لَا تَعْمَـى الْأَبْصَـارُ وَلَٰكِـن تَعْمَـى الْقُلُـوبُ الَّتِـي فِي الصُّـدُورِ ﴾ [الحـج: 46].

وورد في السـنة النبويـة الشريفـة حديـثٌ رواه النعـمان بـن بـشر، قـال: سَـمِعْتُ رَسـولَ اللـهِ صَـلَّى اللـهُ عَلَيـهِ وَسَـلَّمَ يقـولُ: وأَهْـوَى النُّعْـمانُ بإصْبَعَيْـهِ إلَى أُذُنَيْـهِ، إنَّ الحَـلالَ بَـيِّنٌ، وإنَّ الحَـرامَ بَـيِّنٌ، وبيْنَهُـما مُشْـتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُهُـنَّ كَثِـيرٌ مِـنَ النَّـاسِ، فَمَـنِ اتَّقَـى الشُّـبُهاتِ اسْـتَبْرَأَ لِدِينِـهِ، وعِرْضِـهِ، ومَـن وقَـعَ في الشُّـبُهاتِ وقَـعَ في الحَـرامِ، كالرَّاعِـي يَرْعَـى حَـوْلَ الحِمَـى، يُوشِـكُ أنْ يَرْتَـعَ فِيـهِ، ألا وإنَّ لِـكُلِّ مَلِـكٍ حِمًـى، ألا وإنَّ حِمَـى اللـهِ مَحارِمُـهُ، ألا وإنَّ في الجَسَـدِ مُضْغَـةً، إذا صَلَحَـتْ، صَلَـحَ الجَسَـدُ كُلُّـهُ، وإذا فَسَـدَتْ، فَسَـدَ الجَسَـدُ كُلُّـهُ، ألا وهـي القَلْـبُ[1].

إِذَن هل الْقَلْب النَّفْسِيّ مكانه الْقَلْب النابض؟

بنـاءً عـلى مـا ورد مـن آيـاتِ القُـرآنِ الكريـمِ والسـنة النبويـة الشَّريفـة؛ فـإن ذلـك هـو مكانـهُ، واللـه تعـالى أولى وأعلـم.

- لفـت انتباهـي أمـرٌ مهـمٌّ في الحديـث النبـويِّ الشَّريـف السَّـابق يـا آدم، ألا وهـو الشـبهات! أتعلـمُ أنّ نظـام الإيمـان الغيبـيّ يقتـضي وجـودَ المُحكـم والمتشـابه،

(1) الـراوي: النعـمان بـن بشـير، أخرجـه مسـلم في صحيحـه، كتـاب المسـاقاة، بـاب أخـذ الحـلال وتـرك الشـبهات (1219/3ح1599)، وأخرجـه البخـاري بنحـوه كتـاب الإيمـان، بـاب فضـل مـن اسـتبرأ لدينـه (20/1ح52).

والمطلوب من الْإِنْسَان الوصولُ إِلَى اليقين عن طريق المحكماتِ لدمغ المتشابهات، فلو طغت المتشابهاتُ على المحكماتِ ستتزعزع أركان اليقينِ، وتشتعلُ نار الشكوكِ؛ لتلتهم الإيمانَ شيئًا فشيئًا حتى تقضي عليه كاملًا.

- هذا صحيح يا نور، وهل تعتقد أَن القرآنَ الكريم لم يذكر هذا الأمر؟! قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: 7].

- مذهلٌ! أكمل يا آدم، أنا متشوّقٌ لسماع المزيد.

- حسنًا، لعلَّ أكثر ما أثار دهشَتي وعجبي استنتاجُك أنَّ الحيوانات تدركُ وتفهمُ وتعقل! في الحقيقة لو أَخبرتَني بذلكَ قبل أن تقرأ عليَّ جميعَ استنتاجاتكَ؛ لنعتُّك بالجنونِ! ولكن استنتاجاتِك وتحليلَك لعملية البناء المعرفيِّ جعلتني أتوقَّف عند هذا الأمرِ، وأبحثُ عنه في آيات القرآن الكريمِ، وأعتقدُ أن ما وجدتُه سوفَ يسرُّك، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38].

وقالَ: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾. [الإسراء: 44].

وقالَ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: 18].

تصفُ الآية الكريمة السابقةُ مشهدًا لنبي الله سليمان -عليه السلامُ- الذي آتاه الله ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدهِ، فكان يحكمُ الأرضَ من إنسٍ وجانٍّ وحيواناتٍ وطيورٍ، وآتاه الله من كل شيءٍ. في ذلك المشهدِ، رأت نملةٌ نبيَّ الله سليمان وجيشه يتقدمونَ، فحذَّرت النملَ، وأمرتهم أن يدخلوا بيوتهم؛ كي لا

يحطِّمهـم نبـيُّ اللـه سـليمان وجنـوده، وهـذا يـدل عـلى فعـل عاقـلٍ، ذلـك أنَّـه يدفـع الـضررَ، ويجلـب المنفعـةَ، ونابـعٌ عـن وعـيٍ وإدراكٍ وفهـم، إذَن هـذا يؤكِّـد اسـتنتاجَك أن الحيوانـات تعقـل!

ومـا يميـز الْإِنْسَـان عـن بقيّـةِ المخلوقـاتِ ليـس العقـل، وإنَّمـا العلـمُ، الـذي بـدأ بالقلـمِ، وهـو أسـاس التكليـفِ واللـه تعـالى أولى وأعلـم، ذلـك أنـه جـاءه الحـقُّ وهـو في غـار حـراء، فجـاءه المَلَـكُ، فقـال: اقـرأ، قـال: «مـا أنـا بقـارئٍ»، قـال: «فأخـذني فغطّنـي، حتـى بلـغ منـي الجهـد، ثـم أرسـلني، فقـال: اقـرأ، قلـت: مـا أنـا بقـارئ، فأخـذني فغطنـي الثانيـة حتـى بلـغ منـي الجهـد، ثـم أرسـلني، فقـال: اقـرأ، فقلـت: مـا أنـا بقـارئ، فأخـذني فغطنـي الثالثـة ثـم أرسـلني، فقـال: ﴿ اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّـكَ الَّـذِي خَلَـقَ (1) خَلَـقَ الْإِنْسَـان مِـنْ عَلَـقٍ (2) اقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الْأَكْـرَمُ (3) الَّـذِي عَلَّـمَ بِالْقَلَـمِ (4) عَلَّـمَ الْإِنْسَـان مَـا لَـمْ يَعْلَـمْ (5)﴾[1] [العلـق: 1-5].

- أشهد أنَّ هذا الكِتاب ما هو بكلام بشرٍ، أشهدُ أَنَّه كلامٌ منزلٌ من الْخَالِق.

- مـا أجملهـا مـن شـهادةٍ يـا نور! فهـذه شـهادة إيمـانٍ بيقـينٍ راسـخٍ، يفـوقُ إيمـان الوراثـة، زادك اللـه بسـطة في العلـم والدِّيـنِ، ونفـع بـك. قـال تعـالى: ﴿ شَـهِدَ اللّـهُ أَنَّـهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ وَالْمَلاَئِكَـةُ وَأُوْلُـواْ الْعِلْـمِ قَآئِمًا بِالْقِسْـطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيـمُ ﴾ [آل عمـران: 18].

وقـال: ﴿ هُـوَ الَّـذِي أَنْـزَلَ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ مِنْـهُ آيَـاتٌ مُحْكَـمَاتٌ هُـنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ وَأُخَـرُ مُتَشَـابِهَاتٌ فَأَمَّـا الَّذِيـنَ فِي قُلُوبِهِـمْ زَيْـغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَـا تَشَـابَهَ مِنْـهُ ابْتِغَـاءَ الْفِتْنَـةِ وَابْتِغَـاءَ تَأْوِيلِـهِ وَمَـا يَعْلَـمُ تَأْوِيلَـهُ إِلَّا اللَّـهُ وَالرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْـمِ يَقُولُـونَ آمَنَّـا بِـهِ كُلٌّ مِـنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا وَمَـا يَذَّكَّـرُ إِلَّا أُولُـو الْأَلْبَـابِ (7) رَبَّنَـا لَا تُـزِغْ قُلُوبَنَـا بَعْـدَ إِذْ هَدَيْتَنَـا وَهَـبْ لَنَـا مِـنْ لَدُنْـكَ رَحْمَـةً إِنَّـكَ أَنْـتَ الْوَهَّـابُ (8)﴾ [آل عمـران: 7-8]. أسـأل اللـه العظيـم أن نكـون منهـم يـا نـور.

---

(1) أخرجـه البخـاري في صحيحـه كتـاب بـدء الوحـي كيـف كان بـدء الوحـي إلى رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم (7/1ح3)، ومسـلم في صحيحـه كتـاب الإيمـان، بـاب بـدء الوحـي إلى رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم (139/1ح160). جـاءه الحـقُّ وهـو في غـار حـراء، فجـاءه المَلَـكُ : أيْ أن جبريـل -عليـه السـلام- جـاء رسـول اللـه -صـلى اللـه عليـه وسـلَّم- وهـو يتعبَّـد في غـار حـراء.

وفيـما يخـصُّ مسـألة الحيوانـات والعقـلِ والتكليـفِ؛ فقـد وصـف اللـهُ -سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى- مَـن لا يؤمنـون بـه -سـبحانهُ- بأنَّهـم كالأنعـامِ، بـل أضـلُّ سـبيلًا، وفي موضـعٍ آخـر وصفهـم تعـالى بالحمـير التـي تحمـل الكتـبَ عـلى ظهرِهـا، ولا تفقـهُ شـيئًا منهـا، وذلـك بسـبب تكذيبهـم لآيـاتِ اللـه تعـالى، قـال تعـالى: ﴿ أَمْ تَحْسَـبُ أَنَّ أَكْثَرَهُـمْ يَسْـمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُـونَ إِنْ هُـمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـمِ بَـلْ هُـمْ أَضَـلُّ سَـبِيلًا﴾. [الفرقـان: 44].

وقـال تعـالى: ﴿ مَثَـلُ ٱلَّذِيـنَ حُمِّلُـواْ ٱلتَّوْرَىٰـةَ ثُـمَّ لَـمْ يَحْمِلُوهَـا كَمَثَـلِ ٱلْحِـمَارِ يَحْمِـلُ أَسْـفَارًا بِئْـسَ مَثَـلُ ٱلْقَـوْمِ ٱلَّذِيـنَ كَذَّبُـواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّـهِ وَٱللَّـهُ لَا يَهْـدِى ٱلْقَـوْمَ ٱلظَّٰلِمِـينَ ﴾ [الجمعـة: 5].

أمـا عـن معضلـة الخـير والـشرِّ؛ فهـي مسـألةٌ دقيقـةٌ جـدًّا، إذ هـي أصـلُ الحيـاةِ، والغايـةُ مـن الوجود! وجميـع اسـتنتاجاتك الْعَقْلِيّـة الفَلْسَـفِيّة صحيحـةٌ، ومطابقـة لمـا جـاء بـه المصـدر الغيبـيُّ، فبالفعـلِ لقـد خلـقَ اللـهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- الْإِنْسَـانَ، وأودع فيـه حريـة الإرادةِ، وأعطـاه قـدرة التَّمييـز بـين الخـير والـشرِّ فطريًّـا. قـال تعـالى: ﴿ لَقَـدْ خَلَقْنَـا الْإِنْسَـان فِي كَبَـدٍ (4) أَيَحْسَـبُ أَنْ لَـنْ يَقْـدِرَ عَلَيْـهِ أَحَـدٌ (5) يَقُـولُ أَهْلَكْـتُ مَـالًا لُبَـدًا (6) أَيَحْسَـبُ أَنْ لَـمْ يَـرَهُ أَحَـدٌ (7) أَلَـمْ نَجْعَـلْ لَـهُ عَيْنَـيْنِ (8) وَلِسَـانًا وَشَـفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَـاهُ النَّجْدَيْـنِ (10) ﴾ [البلـد: 4-10]. والنجديـن هـما طريـق الخـير، وطريـق الـشر.

هـذا هـو المـراد بالنَّجديـن؛ أي الطَّريقـين؛ لأن اللـه -جـلَّ وعـلا- بـيَّن لعبـاده الطَّريقـين؛ طريـق الـشرِّ، ويعنـي الـشرك والمعـاصي والعمـل الفاسـد، ونهاهـم عـن ذلـك، وبـيَّن لهـم طريـق الخـير، ويعنـي التَّوحيـدَ والطَّاعـاتِ والعمـل الصالـحَ، ودعاهـم إليـهِ، وبـيَّن لهـم ذلـك بالتفصيـل عـلى أيـدي الرُّسـل والأنبيـاء، وفي الكتـب المنزلـة مـن التَّـوراة والإنجيـل والزبـور والقـرآنِ، وغيرهـا مـمَّا لا نعلـم. وفي موضـعٍ آخـر، قـال تعـالى: ﴿ إِنَّـا هَدَيْنَـاهُ السَّـبِيلَ إِمَّـا شَـاكِرًا وَإِمَّـا كَفُـورًا ﴾ [الْإِنْسَـان: 3].

واللـه سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى إلـه خـيرٍ مطلـق، ذلـك أنَّـه -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- حذَّر مـن إتيـان الـشرِّ، ووضـع لذلـك عقابًـا، وهـوَ نـار جهنَّـم، وجحيـمٌ خالـدٌ، وأمـر بإتيـان الخـيرِ، وجعـل لذلـك ثوابًـا، وهـو جنـات ونعيـمٌ خالـد. وقـد ذُكِـر هـذا الأمـرُ الجلل

في كثيرٍ من المواضع في القرآن الكريم، ولعلي أذكر لكَ ما ذكره الله -تعالى- في سورة الْإِنْسَان، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (4) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(31) ﴾ [الإنسان: 1-31].

إنَّ هذه الآيات الجميلة المُعجزة ما هي إلا جزءٌ بسيطٌ مما ذُكر في وصف نعيم المؤمنين الموحِّدين من أهل الخير، وجحيم الكافرين المُشركين من أهل الشرّ، ومما لا شك فيه أن الله خلق الْإِنْسَان وأراد له الخيرَ، قال تعالى: ﴿ وَمَا

تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: 20].

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ [الأنبياء: 73].

وقال تعالى ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ [الحج: 77].

ولكن بعض البشر أبوا أن يتَّبعوا طريق الخيرِ، وظلموا أنفسَهم، ذلك أنهم اختاروا إنكار وجود الْخَالِقِ، وإتيان الشرورِ، متجاهلين ضعفهم، فاستكبروا، ورفضوا فعل الخيرِ، وأصروا على فعل الشرِّ، متناسين الموت والحسابَ والثواب والعقاب. لقد صدق اللهُ -تعالى- في وصف البشرِ عندما قال تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: 4]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: 118].

أما أصل الشرورِ؛ فبدأ مع بداية خلق آدم، والقرآن الكريمُ يُخبرنا القصّة كاملَةً، لَقد جاءت شريعةُ الْخَالِق موافقةً للفطرة الْإِنْسَانية بشكلٍ تامٍّ، حيثُ إِنَّ إتيان الشرور يسمَّى ذنبًا، ويعاقب عليه المذنبُ، وأما فعل الخير فيقابله الثوابُ، وبهذا تكون معادلة الخلق معادلةً تتوافق مع المنطق الْعَقْلِيّ، أما المخلوقُ الداعي إلى الشرِّ الذي ذكرتَه في استنتاجاتكَ؛ فهو بالفعل موجودٌ منذ خلق الله -عز وجلَّ- أبانا آدم عليه السَّلام، وإليك القصَّة الكاملة لخلقِ آدم، التي أخبرَنا بها الله -عز وجلَّ- في القرآنِ الكريم.

لقد أخبرنا الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنَّه خلقَ آدم ليَخلفهُ في الأرضِ، أي لِيُحقَّ الحقَّ، ويُزهق الباطل، ولكن بداية الحكاية لم تكن في الأرضِ، بل كانت في السماءِ، عندما خلق الله -عز وجلَّ- آدم من ترابٍ، ونفخ فيه من روحهِ، فسواه بشرًا، ومن ثمَّ علَّم آدم الأسماء كلها، وأمرَ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الملائكةَ بالسجود لِآدم؛ تكريمًا لهُ، وطاعةً لرب العالمين، وكان من ضمن المأمورين مخلوقٌ من الجنِّ اسمُه إبليس، أمره الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بالسجود

لِآدم أيضًا، بأمرٍ مخصصٍ كما ذكر القرآن الكريمُ، لكنَّه أَبى، واستكبرَ، ورفض السجودَ، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (76) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85)﴾ [ص: 71-85].

ومن ثم أسكن اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- آدمَ وزوجَه حواء الجنَّةَ، وسخَّر لهما كل ما فيها من ملذاتٍ، وأمرهُما بعدم الاقترابِ من شجرةٍ، وهذا تحقيقًا لطاعتِه -عزَّ وجلَّ- ولكن إبليسَ بدأ يوسوسُ لهما، ويدعوهما إِلَى الأكلِ من تلك الشجرةِ، ويمنِّيهما بخيرٍ عظيمٍ، حتى أزلَّهما، وعصيا أمر اللهِ، وأكلا منها، فبدت لهما سوءاتُهما، وبدءا يغطِّيانها بورقٍ من الجنة واستغفرَ آدمُ ربَّه لذنبِهِ، فتاب الله عليهِ، وأنزله هو وحوّاء وإبليس إِلَى الأرضِ لأجَلٍ مُسمّى، وجعل لآدَم نسلًا من سلالةٍ من ماءٍ مهينٍ.

قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (8)﴾ [السجدة: 6-8].

- وهل ذكر القرآنُ الكريمُ كلَّ هذه الأحداث؟

- بالتَّأكيد، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبرنا كلَّ شيءٍ عن خلقنا، وعن البدايةِ والغاية والتَّشريعات والنِّهاية والمصير بعد الموتِ بالتَّفصيل في القرآن الكريم.

- ولكن يا آدم أنتَ قلتَ إنَّ الله أمر الملائكةَ بالسُّجود لآدَم، وذكرتَ أنَّ إبليس من الجنِّ، فكيف تفسِّرُ ذلك الأمرَ؟

- ملاحظة جيدةٌ يا نور، والقرآن الكريم يجيبُ عن هذا التَّساؤل، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:12].

- فهذا يعني أنَّه كان هناك أمرٌ مخصصٌ لإبليس بالسجودِ، لكنه استكبرَ، وعصى الله عز وجل.

- أشكُرك يا آدم، الآن أَصبح الأمرُ واضحًا، وما قولُك بِاستِنتاجاتي بما يخصُّ مبحث العلوم؟

- بالنِّسبة لمبحث العلومِ، واستنتاجاتك الْعَقْلِيّة الفَلْسَفِيّة فيما يخصُّه؛ لَقَد جعلتني أتفكَّرُ مجددًا في كثيرٍ من آيات القرآنِ الكريمِ، فتعريفُك للاسمِ أنه مفهومٌ كاملٌ عن الحدثِ، ومجموع الأسماء دلالةٌ على كمال العلومِ أمرٌ غايةٌ في الأهمية. قال تعالى في القرآن الكريم عند خلق آدم في سورة البقرة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (33)﴾

[البقرة: 31-33].

في الحقيقةِ؛ كنتُ أَتَسأل دومًا عن الحكمةِ في اختيار مصطلحِ الأسماء للدّلالة على العلومِ في الآية الكريمةِ، والآن أَصبحَ الأمرُ واضحًا بالنسبة لي، وبالفعلِ؛ إنَّ تصويرَ أنَّ الْإِنْسَانَ أصله من القرودِ، ثمَّ تطوَّر حتى وصلَ إِلَى ما وصل إليه حاليًّا؛ هو تصورٌ عجيبٌ، ومثيرٌ للسخريةِ، بعد أن وصلَ الْإِنْسَان إِلَى كلِّ هذا التقدُّم العلميِّ!

فمن الآية الكريمة السَّابقة يظهر جليًّا أنَّ آدم -عليه السلامُ- وهو الْإِنْسَانُ الأوَّل على هذه الأرضِ؛ تلقَّى العلم كلَّه من العليم الخبيرِ، خالق الكونِ، بشكلٍ مباشرٍ، وهذا يدلُّ على أنَّه كان أعلمَ أهل الأرضِ، حتى أنَّه فاقَ الملائكة علمًا

بـإرادة اللـه عـزَّ وجل. فكـما ذكـرت في اسـتنتاجاتكَ؛ الْإِنْسَـان الأوَّلُ امتلـك العلـمَ الكامـلَ، ومـن ثـم ومـع تعاقـب الأجيـالِ؛ بـدأ الْإِنْسَـانُ بالانحـدارِ علميًّـا شـيئًا فشـيئًا؛ ولذلـك أرسـلَ اللـه -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- الرُّسـلَ والأنبيـاءَ – عليهـم السـلام - عـلى أوقـاتٍ زمنيّـةٍ متتابعـةٍ؛ لإعـادة إصـلاح مـا فسـدَ، ولإعـادةِ إحيـاء تلـك العلـوم. ومـن الأدلَّـة الأُخـرى مـا ذكـرَه اللـهُ -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- في سـورة الـروم، قـال تعـالى: ﴿ أَوَلَـمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُـرُوا كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الَّذِيـنَ مِـن قَبْلِهِـمْ كَانُـوا أَشَـدَّ مِنْهُـمْ قُـوَّةً وَأَثَـارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَـا أَكْثَرَ مِـمَّا عَمَرُوهَـا وَجَاءَتْهُـمْ رُسُـلُهُم بِالْبَيِّنَـاتِ فَـمَا كَانَ اللَّـهُ لِيَظْلِمَهُـمْ وَلَٰكِـن كَانُـوا أَنفُسَـهُمْ يَظْلِمُـونَ ﴾ [الـروم: 9].

هنـا يذكـرُ اللـهُ -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- أنَّ الأمـمَ السَّـابقة كانـت أكـثرَ قـوَّةً، وأثـاروا الأرض وعمروهـا أكـثر ممَّـن لحقهـم مـن الأمـمِ، وفي هـذا عـبرةٌ للأمـم اللاحقـةِ، قـال تعـالى في سـورة التـين:

﴿ لَقَـدْ خَلَقْنَـا الْإِنْسَـان فِي أَحْسَـنِ تَقْوِيـمٍ (4) ثُـمَّ رَدَدْنَـاهُ أَسْـفَلَ سَـافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ فَلَهُـمْ أَجْـرٌ غَـيْرُ مَمْنُـونٍ(6) فَـمَا يُكَذِّبُـكَ بَعْـدُ بِالدِّيـن (7) أَلَيْـسَ اللَّـهُ بِأَحْكَـمِ الْحَاكِمِـينَ (8)﴾ [التـين: 4-8]. ولقـد ذهـب أكـثرُ المفسِّريـن أنَّ (أحسـن تقويـمٍ) تعنـي أحسـن صـورة وهيئـةٍ، أي أنَّ الْإِنْسَـان في شـبابه وقوَّتـه يكـون في أحسـن صـورةٍ وهيئـةٍ، وعنـد شـيخوخته يُـردُّ ليصبـح بهيئـةٍ رثَّـةٍ ضعيفـةٍ، فيكـون أسـفلَ سـافلين، ولكـن لـو تفكَّرنـا قليـلًا، وتدبَّرنـا الآيـة الكريمـة السَّـابقة، أن اللـه اسـتثنى فئـةَ المؤمنـين الذيـنَ آمنـوا وعملـوا الصالحـاتِ، فتتكـوَّن لنـا صـورةٌ مختلفـةٌ عـن التَّأويـل الأوَّل لتلـك الآيـةِ الكريمـةِ، ذلـك أنَّ الشَّـبابَ والشـيخوخة أمـرٌ لا يُسـتثنى منـه الكافـرُ ولا المؤمـن، أمـا لـو نظرنـا إِلَى الأمـر مـن ناحيـة أنَّ أحسـن تقويـم تعنـي أحسـنَ علـمًا وفكـرًا وصلاحًـا، وربطناهـا مـع الآيـات الكريمـةِ السَّـابقة؛ فَسـنجد أن اسـتثناءَ فئـة المؤمنـين مـن أن يكونـوا أسـفلَ سـافلين أمـرٌ منطقـيٌّ، يوافـق نظريَّـة الانحـدار العلمـيِّ والْفِكْـرِيّ التدريجـيّ لـدى البـشرِ، هـذا واللـه تعـالى أولى وأعلـم.

ولكـن لأكـون أمينًـا وصادقًـا فيـما أنقلـهُ؛ أنـا لسـتُ صاحـبَ رأيٍ شـخصيٍّ، فأنـا أتحـدَّث في آيـاتِ القـرآن الكريـمِ، وهـذا أمـرٌ عظيـمٌ؛ لذلـك وجـبَ لي أن أذكـرَ في

هـذا المعـرضِ أنَّـه -وبالتأكيـدِ- الْإِنْسَـان الأوَّل كان يملـكُ العلـمَ، وهـذا مـا ذكـرَه اللـه -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- بشـكل صريـحٍ وواضـحٍ، ففكـرة الْإِنْسَـان البـدائيّ فرضيَّـةٌ فاسـدةٌ بكُلِّيَّتهـا، أمـا مسـألة أنَّ آدم -عليـه السـلامُ- كان يملـكُ العلـم الكامـلَ؛ فـلا أَسـتطيعُ أن أجـزم بهـا، فهـي اجتهـادٌ شـخصيٌّ مـن خـلال تدبُّـري وفهمـي للآيـة الكريمـةِ، والعلـمُ عنـد اللـه عـزَّ وجـلَّ.

- أَشـكرُكَ عـلى أمانتِـك في نقـل المعلومـة يـا آدم، وأُوافقُـك الـرَّأيَ، فنحـن -واللـه- نبحـث عـن الحـقِّ، ولا شيءَ غـير الحـقِّ، ولسـنا بأصحـاب رأيٍ شـخصيٍّ، أو افتراضـاتٍ غـير مبنيَّـةٍ عـلى أسـسٍ برهانيَّـة، والـذي نفـسي بيـدهِ، مـا كنـتُ أتصـوَّر أن أجـد كلَّ تلـك الإجابـاتِ في القـرآن الكريـمِ يـا آدم!

- مهلًا يـا نـور! مـا ذكرتُـه لـك هـو بضـع آيـاتٍ كريمـةٍ مـن القـرآن الكريـم! إنَّ عـدد آيـات القـرآن الكريـم 6166 آيـة كريمـةً كـما ورد عـن ابـن عبـاس -رضي اللـه عنـه-[1]، موزَّعـة عـلى 114 سـورةً، والآيـة في اللغـةِ تعنـي العلامـة والأمـارة، أو المعجـزة، ففـي كل آيـةٍ سـتجد أمـرًا يبهـركَ، ولعـلَّ أكـثر مـا يبهـر هـو أنَّ القـرآن محفـوظٌ من التَّغيـير والتَّحريـف إِلَى يـوم القيامـةِ؛ لأنَّ اللـه -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- تعهَّـد بحفظـهِ، قـال تعـالى: ﴿إِنَّـا نَحۡـنُ نَزَّلۡنَـا ٱلذِّكۡـرَ وَإِنَّـا لَـهُۥ لَحَٰفِظُـونَ﴾ [الحجـر:9].

- وفيـما يخـصُّ صفـات الْخَالِـق وماهيّتـه عـزَّ وجـلّ؛ فقصَّـةُ صانـع السَّـاعات التـي ذكرتَهـا -وللـه المثـلُ الأعـلى- قـد أَعجبَتنـي بحـقّ! فهـي تعطـي تصـوُّرًا عميقًـا عـن ضعـف الْإِنْسَـان في تخيُّـل الـذاتِ الإلهيَّـة وماهيَّتهـا، قـالَ تعـالى: ﴿ فَاطِرُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَـلَ لَكُـم مِّـنْ أَنفُسِـكُمْ أَزْوَاجًـا وَمِـنَ الْأَنْعَـامِ أَزْوَاجًـا يَذْرَؤُكُـمْ فِيـهِ لَيْـسَ كَمِثْلِـهِ شَيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ الْبَصِـيرُ﴾ [الشـورى:11].

وهنـاك كثـيرٌ مـن الآيـات القرآنيَّـةِ التـي ذكَـرت أسـماءَ اللـه -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- وصفاتـه، وسـأذكرُ لـك بعضَهـا، قـال تعـالى: ﴿ هُـوَ اللَّـهُ الَّـذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ عَالِـمُ الْغَيْـبِ وَالشَّـهَادَةِ هُـوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيـمُ (22) هُـوَ اللَّـهُ الَّـذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الْمَلِـكُ الْقُـدُّوسُ السَّـلَامُ الْمُؤْمِـنُ الْمُهَيْمِـنُ الْعَزِيـزُ الْجَبَّـارُ الْمُتَكَـبِّرُ سُـبْحَانَ اللَّـهِ عَـمَّا يُشْرِكُـونَ (23) هُـوَ اللَّـهُ الْخَالِـق الْبَـارِئُ الْمُصَـوِّرُ لَـهُ الْأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى يُسَـبِّحُ لَـهُ

(1) كتاب: التعريف بالإسلام.

مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيـمُ (24) ﴾ [الحـشر:22-24]

أمَّـا عـن اسـتنتاجات عـدل الْخَالِـق، فقـد قـال تعـالى: ﴿ إِنَّ اللّـهَ لاَ يَظْلِـمُ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَـكُ حَسَـنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ [النسـاء:40]

وقـال تعـالى : ﴿ فَمَـن يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ خَـيْرًا يَـرَهُ (7) وَمَـن يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَـرَهُ (8) ﴾ [الزلزلـة: 7-8].

وقـالَ تعـالى مخـبرًا عـن لقـمان أنَّـه قـالَ: ﴿ يَـا بُنَـيَّ إِنَّهَـا إِنْ تَـكُ مِثْقَـالَ حَبَّـةٍ مِـنْ خَـرْدَلٍ فَتَكُـنْ فِي صَخْـرَةٍ أَوْ فِي السَّـمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَـأْتِ بِهَـا اللَّـهُ ﴾ [لقـمان:16]. أمـا عــن مبحــث فلسـفة الحيـاةِ (الصـبر، الابتـلاء، العبادة)؛ فبالفعــل يــا نــور، تحليلُـك لمعطيـات الحيـاة وفلسـفتِها موافـقٌ تمامًـا لمَـا جـاء في القـرآن الكريـمِ، فَالحيـاة هـي دار ابتـلاءٍ واختبـارٍ، والآخـرةُ دار الجـزاء والقـرارِ، قـال تعـالى: ﴿ تَبَـارَكَ الَّـذِي بِيَـدِهِ الْمُلْـكُ وَهُـوَ عَـلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيـرٌ (1) الَّـذِي خَلَـقَ الْمَـوْتَ وَالْحَيَـاةَ لِيَبْلُوَكُـمْ أَيُّكُـمْ أَحْسَـنُ عَمَـلًا وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْغَفُـورُ(2)﴾ [الملـك: 1-2].

وكـما ذكـرتَ في شرحـك لفلسـفةِ الابتـلاء؛ فالمؤمـن غـير معصـومٍ عـن الابتـلاءِ، بـل إنَّ اللـه -تعـالى- ذكـر ذلـكَ في أكـثر مـن آيـةٍ في القـرآن الكريـمِ، وحـثَّ المؤمنـين عـلى الصَّـبر عنـد البـلاء، ولعـلَّ الابتـلاءات التـي تعـرَّضَ لهـا أنبيـاءُ اللـه -عـزَّ وجـلَّ- ورسـلُه -عليهـم السـلامُ جميعًـا- هـي أكـبرُ دليـلٍ أنَّ اللـه يريـد مـن عباده الصَّالحـين المؤمنـين الصَّـبرَ، والشُّـكر للـه عـلى كل حـالٍ مـن الأحـوالِ، لمـا ينتظرهـم مـن جـزاء عظيـمٍ يـوم القيامـةِ، قـال تعـالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُـمْ بِـشَيْءٍ مِـنَ الْخَـوْفِ وَالْجُـوعِ وَنَقْـصٍ مِـنَ الْأَمْـوَالِ وَالْأَنْفُـسِ وَالثَّمَـرَاتِ وَبَـشِّرِ الصَّابِرِيـنَ (155) الَّذِيـنَ إِذَا أَصَابَتْهُـمْ مُصِيبَـةٌ قَالُـوا إِنَّـا لِلَّـهِ وَإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِعُـونَ (156) أُولَئِـكَ عَلَيْهِـمْ صَلَـوَاتٌ مِـنْ رَبِّهِـمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَئِـكَ هُـمُ الْمُهْتَـدُونَ (157)﴾ [البقـرة: 155-157].

ومـن ناحيـةٍ أُخـرى، فالمؤمنـون مُعرَّضُـون للفـتن في كلِّ وقـتٍ وحـينٍ، وذلـك ليختـبرَ اللـه صـدق إِيمانهـم، قـال تعـالى: ﴿ أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُـوا الْجَنَّـةَ وَلَـمَّا يَأْتِكُـمْ مَثَـلُ

الَّذِيـنَ خَلَـوْا مِـنْ قَبْلِكُـمْ مَسَّـتْهُمُ الْبَأْسَـاءُ وَالـضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُـوا حَتَّـى يَقُـولَ الرَّسُـولُ وَالَّذِيـنَ آمَنُـوا مَعَـهُ مَتَـى نَـصْرُ اللَّـهِ أَلَا إِنَّ نَـصْرَ اللَّـهِ قَرِيـبٌ ﴾. [البقـرة: 214].

وقـالَ تعـالى : ﴿ أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُـوا الْجَنَّـةَ وَلَـمَّا يَعْلَـمِ اللَّـهُ الَّذِيـنَ جَاهَـدُوا مِنْكُـمْ وَيَعْلَـمَ الصَّابِرِيـنَ﴾ [آل عمـران: 142].

وقـــالَ تعـــالى : ﴿أَحَسِـبَ النَّـاسُ أَنْ يُتْرَكُـوا أَنْ يَقُولُـوا آمَنَّـا وَهُـــــمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَـدْ فَتَنَّـا الَّذِيـــنَ مِـنْ قَبْلِهِـمْ فَلَيَعْلَمَـنَّ اللَّـهُ الَّذِيـنَ صَدَقُـوا وَلَيَعْلَمَـنَّ الْكَاذِبِـينَ (3)﴾ [العنكبـوت: 2-3].

وقـد ذكـر اللـه -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- أنَّـه مَـن أَرادَ ثـوابَ الدُّنيا يعجّـل لـه فيها، قـال تعـالى: ﴿ مَّـن كَانَ يُرِيـدُ ثَـوَابَ ٱلدُّنيَـا فَعِنـدَ ٱللَّـهِ ثَـوَابُ ٱلدُّنيَـا وَٱلۡأخِـرَةِ وَكَانَ ٱللَّـهُ سَـمِيعًا بَصِيـرا ﴾ [النسـاء: 134].

وقـالَ: ﴿ مَـنْ كَانَ يُرِيـدُ الْعَاجِلَـةَ عَجَّلْنَـا لَـهُ فِيهَـا مَـا نَشَـاءُ لِمَـنْ نُرِيـدُ ثُـمَّ جَعَلْنَـا لَـهُ جَهَنَّـمَ يَصْلَاهَـا مَذْمُومًـا مَدْحُـورًا (18) وَمَـنْ أَرَادَ الْآخِـرَةَ وَسَـعَى لَهَـا سَـعْيَهَا وَهُـوَ مُؤْمِـنٌ فَأُولَئِـكَ كَانَ سَـعْيُهُمْ مَشْـكُورًا (19) كُلًّا نُمِـدُّ هَـؤُلَاءِ وَهَـؤُلَاءِ مِـنْ عَطَـاءِ رَبِّـكَ وَمَـا كَانَ عَطَـاءُ رَبِّـكَ مَحْظُـورًا (20) انْظُـرْ كَيْـفَ فَضَّلْنَـا بَعْضَهُـمْ عَـلَى بَعْـضٍ وَلَلْآخِـرَةُ أَكْـبَرُ دَرَجَـاتٍ وَأَكْـبَرُ تَفْضِيـلًا (21) ﴾ [الإسراء: 18-21].

وقـد وعـد اللـهُ المؤمنـين الصَّالحـين بالحيـاة الطَّيبـةِ، والجـزاء العظيـمِ في الآخـرة، قـال تعـالى: ﴿ مَـنْ عَمِـلَ صَٰلِحًـا مِّـن ذَكَـرٍ أَوْ أُنثَـىٰ وَهُـوَ مُؤْمِـنٌ فَلَنُحْيِيَنَّـهُ حَيَـوٰةً طَيِّبَـةً وَلَنَجْزِيَنَّهُـمْ أَجْرَهُـم بِأَحْسَـنِ مَـا كَانُـواْ يَعْمَلُـونَ﴾. [النحـل: 97].

لذلـك تـرى كثـيرًا مـن المؤمنـين المبتلـين الرّاضـين المطمئنـين بقضـاء اللـهِ، ومـن جهـةٍ أُخـرى تـرى كثـيرًا مـن الكافريـن آتاهـم اللـهُ مـن كلِّ شيءٍ، ولكنهـم يعيشـونَ في ضيـقٍ. قـال تعـالى:

﴿ وَمَـنْ أَعْـرَضَ عَـنْ ذِكْـرِي فَـإِنَّ لَـهُ مَعِيشَـةً ضَنْـكًا وَنَحْـشُرُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ أَعْمَـى (124) قَـالَ رَبِّ لِـمَ حَشَرْتَنِـي أَعْمَـى وَقَـدْ كُنْـتُ بَصِـيرًا (125) قَـالَ كَذَلِـكَ أَتَتْـكَ آيَاتُنَـا فَنَسِـيتَهَا وَكَذَلِـكَ الْيَـوْمَ تُنْسَى (126) وَكَذَلِـكَ نَجْـزِي مَـنْ أَسْرَفَ وَلَـمْ يُؤْمِـنْ

بِآيَاتِ رَبِّـهِ وَلَعَـذَابُ الْآخِـرَةِ أَشَـدُّ وَأَبْقَـى (127)﴾ [طـه: 124-127].

أَمَّـا عـن علاقَـةِ **العلـم والديـن؛** فبـما أنَّـك عميـقُ التَّفْكِـير يـا نـور؛ فَسـأذكُر لـك آيـةً واحـدةً أتوقَّـع أن تكـونَ كافيـةً لتفهـم علاقـةَ العلـم بالدِّيـن، وتختـصر مـا شرحتـهُ في فلسـفتكَ عـن هـذا الأمـرِ، قـال تعـالى: ﴿ إِنَّمَـا يَخْـشَى اللَّـهَ مِـنْ عِبَـادِهِ الْعُلَـمَاءُ﴾ [فاطـر: 28]، وهنـا يجـب أن تقـرأ الآيـة بتشـكيلها الصحيـحِ (العلـماءُ) فاعـلٌ، فالخشـية مـن اللـه صفـةٌ لهـم، وهـذا توجيـهٌ صريـحٌ مـن اللـه -تعـالى- للعلـم والتعلُّـمِ، الـذي يـؤدي إِلَى معرفـة عظمـةِ الْخَالِـقِ، ويُبـيِّن للإنسـانِ مـدى ضعفـه أَمـامَ خالقـهِ، وسـأزيدُ وعـاءَك المرجعـيَّ بآيـاتٍ أُخـرى، قـال تعـالى:

﴿ أَمَّـنْ هُـوَ قَانِـتٌ آنَـاءَ اللَّيْـلِ سَـاجِدًا وَقَائِمًـا يَحْـذَرُ الْآخِـرَةَ وَيَرْجُـو رَحْمَـةَ رَبِّـهِ قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الَّذِيـنَ يَعْلَمُـونَ وَالَّذِيـنَ لَا يَعْلَمُـونَ إِنَّمَـا يَتَذَكَّـرُ أُولُـو الْأَلْبَـابِ ﴾ [الزمـر: 9].

وقـال تعـالى: ﴿ فَتَعَـالَى اللَّـهُ الْمَلِـكُ الْحَـقُّ وَلَا تَعْجَـلْ بِالْقُـرْآنِ مِـن قَبْـلِ أَن يُقْـضَىٰ إِلَيْـكَ وَحْيُـهُ وَقُـل رَّبِّ زِدْنِي عِلْـمًا ﴾ [طـه: 114].

_ وقـد لَفَـتَ نظـري يـا نـور مـا ذكرتَـهُ في اسـتنتاجاتك عندمـا قُمـتَ بالتفريـق مـا بـين العِلـمِ والمعرفـة ، فهـذا أمـرٌ مثـيرٌ للإهتـمام ، فأنـا أوافِقُـك الـرأي أن العلـم الحقيقـي هـو مجمـوع المعـارِف الناتجـة عـن مَـزْجِ المرجعيـات (الفطريـة ، والغيبيـة، والتجريبيـة) ذلـك أن الناتـج يكـون علـماً نقيـاً ذو طابـع و نظـرةٍ شـاملة لحيـاة الإنسـان بِشـقَيها (الدنيـا والأخـرة)، و بذلـك سـيعود ذلـك العلـم بالخـير والمنفعـة عـلى البشريـة دون أدنى شـك.

قـال تعـالى : وَقُـلِ ٱلْحَمْـدُ لِلَّـهِ سَـيُرِيكُمْ ءَايَٰتِـهِ فَتَعْرِفُونَهَـا وَمَـا رَبُّـكَ بِغَٰفِـلٍ عَـمَّا تَعْمَلُـونَ ﴾ [النمـل:93].

و قـال سُـبحانه : ﴿ وَتِلْـكَ الْأَمْثَـالُ نَضْرِبُهَـا لِلنَّـاسِ وَمَـا يَعْقِلُهَـا إِلَّا الْعَالِمُـونَ ﴾ [العنكبـوت:43].

إذا : المعرفة + معرفة الحق + العقل = العلم النقي.

ويجب التنويه في هذا المَعرِض أن الوصول للعلم النقي لا يُعتبر خط النهاية، قال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة : 75].

هنا وصف لنفرٍ من بني إسرائيل ، بأنهم يعقِلون و يعلمون ولكنّهم ليسوا علماء،لأنهم لم يهتدوا واتبَّعوا الهوى فضلُّوا عن سواء السبيل .

أمَّا في الآية الكريمة من سورة الشعراء ، قال تعالى : قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197)﴾ يقول تعالى ذكره: أولم يكن لهؤلاء المعرضين عما يأتيك يا محمد من ذكر ربك, دلالةٌ على أنك رسول رب العالمين, أن يعلم حقيقة ذلك وصحته علماء بني إسرائيل. وقيل: عني بعلماء بني إسرائيل في هذا الموضع: عبد الله بن سلام ومن أشبهه ممن كان قد آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل في عصره[1].

وفي قولهِ تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: 28] نلاحظ في الآيتين الكريمتين السابقتين أنَّ صِفة العِلم راسخة و ثابتة و مرتبط بمعرفة الحق الذي يؤدي بالضرورة إلى الإيمان وخَشيةِ الله عزَّ و جلَّ.

لذلك صِفةُ الرسوخ في العِلم تُحدَّد بالفعل الذي يرافِقُها وهو الهِداية و يليها الثبات ، فليس لضَّالٍ أن يتَّصف بصفةٍ ثابتةٍ من صفاتِ الله عزَّ و جل .

هذا والله تعالى أولى و أعلم .

أَتعلمُ يا آدم، كل آيةٍ من الآياتِ التي ذكرتَها يمكن أَن تُنتج فلسفةً كاملةً إذا فهمتها! بالفعلِ؛ الآن أدركتُ لمَ سُمِّيت آيات، بالفعل فهي معجزاتٌ في بلاغتها، وعمق معانيها، وما هذا بكلام بشرٍ، إنما هو كلامُ ربِّ البشر.

- صدقتَ يا نور، أَنت تسمِّيها فلسفة، واللهُ علَّمَنا أَنَّها تُسمى تدبُّرًا، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: 24].

- أوَكُلَّما ذكرتُ لك أمرًا جئتَني بآيةٍ! يا للعجبِ!

(1) تفسير الطبري.

- لقد ذكرتُ لك يا نور أنَّ القرآن الكريم تبيانٌ لكل شيءٍ، هذا ما أخبرَنا به اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكنَّه يحتاجُ مَن يُقبل عليهِ بالتَّدبُّرِ والفهمِ؛ ليذوق حلاوتَه، ويستخرجَ كنوزه وأسرارَهُ، دعني أذكر لك أمرًا آخرَ من السُّنة النبويَّةِ، فهي -أيضًا- لا تقلُّ أهميةً عن القرآن الكريمِ، قال تعالى في حقِّ نبيِّه محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في سورة النجم: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4)﴾ [النجم: 3-4]، فاتباع السنة النبويَّةِ، والتمسك بها؛ أمرٌ واجبٌ أيضًا، قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: 80]. فقد ثبت عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه افتدى بعضَ أسرى معركة بدر بتعليم صبيان المُسلمين، وهذا يدلُّ على اهتمام الدِّين الْإِسْلَامِيّ بالعلم والتَّعلم. والتَّاريخ يزخرُ بالشواهد على النقلة النوعيَّة التي شهدها العرب بعد الإسلامِ، فكان عصرُ قبلَ بعث رسولِ الله محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يُسمَّى عصر الجاهليَّة! ولك أن تتتبَّعَ التّاريخَ الْإِسْلَامِيّ الزاخر بالعلم والعلماءِ بعد انتشار الإسلامِ في جزيرةِ العربِ وما حولها، ولكن دعْني أذكُر لك أمرًا مُهمًّا؛ في الحقيقة لا يوجد تعارضٌ بين الدِّين والعلمِ، بل هما يشدَّان أزر بعضِهما، ولكن المشكلةَ بكيفيَّة فهم الدِّين وتطبيقِه بشكلٍ صحيحٍ من البشر الذين حملوا الرسالة. فالمشكلة ليسَت في الدِّين، بل في كيفيَّة فهمه وتطبيق تعاليمِه وتشريعاتهِ بالشَّكل السليمِ، ومن ناحيةٍ أُخرى فالعلم التَّجريبيُّ القائم على منهجٍ علميٍّ تجريبيٍّ سليمٍ، ابتداء بالملاحظةِ، فالفرضيَّة، ثم التجربة، وصولًا إِلَى نظريَّةٍ مبرهنةٍ شاملةٍ؛ لا ضير فيه، والدِّين لا يتعارضُ معه البتة، طالما كان الوصولُ لتلك العلوم ضمنَ الضَّوابط الشرعية؛ كعلوم الرياضيَّات والفيزياء والكيمياء والطبّ والصيدلة والهندسة وعلوم الحاسوب، وغيرها.

أمَّا العلومُ القائمةُ على الاستقراء الافتراضيِّ غير المبرهن تجريبيًّا، والذي لا يتَّخذ منهجًا علميًّا دقيقًا واضحًا، كعلوم الفضاءِ، ونشأة الحياةِ، ونشأة الكونِ؛ فهي علومٌ غيبيَّةٌ، وغير مثبتةٍ بالتجربة الْحِسِّيّة، لذلك قبل المصادقة عليها؛ يجب توخِّي الحذر، والنَّظر إِليها تحت مجهر الدِّين وأخبار الغيبِ؛ لفحص مصداقيَّتها، فهذه العلوم خاصَّةٌ بالْخَالِق -جلَّ وعلا- وليست من اختصاص

المخلـوق، قـالَ تعـالى : ﴿ مَّـا أَشْـهَدتُّهُمْ خَلْـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْـقَ أَنفُسِـهِمْ وَمَـا كُنـتُ مُتَّخِـذَ الْمُضِلِّـينَ عَضُـدًا ﴾ [سـورة الكهـف: 51].

- هل ذكر الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- كيفيَّة خلق السماوات والأرضِ؟

- بالطَّبـع يـا نـور! خلـقُ الْإِنْسَـانِ، وخلـقُ السـمَاواتِ والأرضِ ذكـره اللـه -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- بالتَّفصيـل في عديـدٍ مـن آيـات القـرآن الكريـمِ، ومنهـا قولـه تعـالى في سـورة فصّلـت: ﴿ قُـلْ أَئِنَّكُـمْ لَتَكْفُـرُونَ بِالَّـذِي خَلَـقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَـيْنِ وَتَجْعَلُـونَ لَـهُ أَنْـدَادًا ذَلِـكَ رَبُّ الْعَالَمِـينَ (9) وَجَعَـلَ فِيهَـا رَوَاسِيَ مِـنْ فَوْقِهَـا وَبَـارَكَ فِيهَـا وَقَـدَّرَ فِيهَـا أَقْوَاتَهَـا فِي أَرْبَعَـةِ أَيَّـامٍ سَـوَاءً لِلسَّـائِلِينَ (10) ثُـمَّ اسْـتَوَى إِلَى السَّـمَاءِ وَهِـيَ دُخَـانٌ فَقَـالَ لَهَـا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَـا طَوْعًـا أَوْ كَرْهًـا قَالَتَـا أَتَيْنَـا طَائِعِـينَ (11) فَقَضَاهُـنَّ سَـبْعَ سَـمَوَاتٍ فِي يَوْمَـيْنِ وَأَوْحَـى فِي كُلِّ سَـمَاءٍ أَمْرَهَـا وَزَيَّنَّـا السَّـمَاءَ الدُّنْيَـا بِمَصَابِيـحَ وَحِفْظًـا ذَلِـكَ تَقْدِيـرُ الْعَزِيـزِ الْعَلِيـمِ(12) ﴾ [فصلـت: 9 - 12].

لقـد علّمَنـا اللـه سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى فِي القـرآنِ الكريـم آدابَ الاسـتئذانِ، وآدابَ الطعـام والـشرابِ، فكيـفَ لا يذكـرُ لنـا أمـرًا جلـلًا كخلـقِ السَّـماوات والأرض، وخلق أنفسِـنا! ولكننـي أَقـترحُ عليـكَ أن يكـونَ هـذا موضـوع نقاشِـنا في الجلسـة القادمـةِ بـإذن اللـه، ذلـكَ أنَّ الأمـر عظيـمٌ، ويحتـاج إِلَى تفصيـلٍ كبـيرٍ، فـرؤوس الأقـلام لـن تنفـعَ في هـذا المبحـثِ، لا سـيما أن فيـه حقائـق قـد تصيبُـك بالصَّدمـة والذّهـولِ!

أمـا فيـما يخـص الغايـة مـن الخلـقِ؛ فكـما ذكـرت في مقدماتـك، فهـي عبـادةُ اللـه سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، وإعـمارُ الأرضِ، قـال تعـالى: ﴿ وَمَـا خَلَقْـتُ الْجِـنَّ وَالْإِنْـسَ إِلَّا لِيَعْبُـدُونِ (56) مَـا أُرِيـدُ مِنْهُـمْ مِـنْ رِزْقٍ وَمَـا أُرِيـدُ أَنْ يُطْعِمُـونِ (57) إِنَّ اللَّـهَ هُـوَ الـرَّزَّاقُ ذُو الْقُـوَّةِ الْمَتِـيْن (58) ﴾ [الذاريـات: 56-58].

وقـال تعـالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُـودَ أَخَاهُـمْ صَالِحًـا قَـالَ يَـا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللَّـهَ مَـا لَكُـمْ مِـنْ إِلَـهٍ غَـيْرُهُ هُـوَ أَنْشَـأَكُمْ مِـنَ الْأَرْضِ وَاسْـتَعْمَرَكُمْ فِيهَـا فَاسْـتَغْفِرُوهُ ثُـمَّ تُوبُـوا إِلَيْـهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيـبٌ مُجِيـبٌ ﴾ [هـود: 61].

وهنـاك أمـرٌ مهـمٌّ ذكرتَـه في بحثـك يـا نـور، وهـو أنَّ عـدم تذكُّـر الـشيء لا يعنـي

عـدم حدوثـهِ، إنَّ هـذه المقولـة جعلتنـي أقـف متدبـرًا آيتـين كريمتَـين في غايـة الأهميَّـة، قـال تعـالى: ﴿ إِنَّـا عَرَضْنَـا الْأَمَانَـةَ عَـلَى السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَأَبَـيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَـا الْإِنْسَـان إِنَّـهُ كَانَ ظَلُومًـا جَهُـولًا ﴾ [الأحـزاب: 72].

وقـال تعـالى: ﴿ وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّـكَ مِـن بَنِـي آدَمَ مِـن ظُهُورِهِـمْ ذُرِّيَّتَهُـمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَـلَىٰ أَنفُسِـهِمْ أَلَسْـتُ بِرَبِّكُـمْ قَالُـوا بَـلَىٰ شَـهِدْنَا أَن تَقُولُـوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّـا كُنَّـا عَـنْ هَٰـذَا غَافِلِـينَ (172) ﴾ [الأعـراف: 172].

وَهـذا لا يـدعُ شـكًّا عـلى الإطـلاقِ أنَّ اللـه -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- عـرض علينـا جميعًـا أمانـة التكليـفِ، وقبِلنـا بهـا بكيفيَّـةٍ وعلـم غيبـيٍّ لا يعلمـه إلا اللـه، ومـن ثـمَّ أخرجَنـا أَحيـاء مـن بطـون أمهاتنـا، فسـخَّر لنـا مـا في الكـون جميعًـا، ومنحنـا القـدرةَ عـلى التَّعلُّـمِ، وأرسـل لنـا الرسـل والأنبيـاء والكتـب السـماويَّة ليرشـدونا إِلَى طريـق الحـقِّ والنجـاةِ، ومـن ثـم أعطانـا حريَّـةَ الاختيـارِ، لينظـر كيـف نصنَـع في تلـك الأمانـةِ التـي قبلنـا حملهـا، وهـو أَعلـم بمـا سـنصنعُ، ولكـن لتَكُـون تلـك الأعـمالُ حجـةً لنـا أَو علينـا، وبهـا ننـالُ إمـا الثـواب أو العقـابَ.

و عـن سـعيد بـن جبـير، عـن ابـن عبـاس قـال: أهبـط آدم حـين أهبـط، فمسـح اللـه ظهـره، فأخـرج منـه كل نسـمة هـو خالقهـا إلى يـوم القيامـة، ثـم قـال (ألسـت بربكـم قالـوا بـلى) ، ثـم تـلا (وإذ أخـذ ربُّـك مـن بنـي آدم مـن ظهورهـم ذريتهـم)، فجـفَّ القلـمُ مـن يومئـذ بمـا هـو كائـن إلى يـوم القيامـة[1].

- يـا لَـه مـن أمـرٍ مدهـشٍ يـا آدم! يجعلُنـي أقـف متعجِّبًـا مـن قـصر هـذه الحيـاة الدُّنيـا، مـا بـين غيبـي الأزلِ والخلـودِ!

- ألـك أَن تخـبرَني يـا آدم عـن الأخلاقيَّـات التـي دعـا إِلَيهـا القـرآنُ الكريـم؟ ذلـكَ أنهـا مـن أكـثر المباحـث الفَلْسَـفِيّة التـي تـمَّ البحـثُ فيهـا عـلى مـرِّ العصور!

- بالطَّبـع يـا نـور، ولكـن لا يسـعُني أن أَذكـرَ لـك كل مـا ورد عـن الأخـلاقِ في معـرِض

(1) تفسير الطبري

حديثنـا هـذا، فالأخـلاق والتَّعامـلات في القـرآن الكريـم تحتـاجُ شرحًـا مسـتوفيًا، قـد يأخـذ منّـا أيامًـا عديـدةً! ولكـن سـأذكر لـك بعضًـا مـن أهـم الأخلاقيّـات الْإِنْسَـانية المذكـورة في القـرآن الكريـمِ؛

الأخـلاقُ في القــرآنِ الكريــم ... لــو عَرفــتَ مــن أيــن تبــدأ بالحديــث عنهــا ســيصعُب عليــك أن تَجــدَ نهايــة لهــذا الحديــث، فالقــرآن الكريــم موســوعة لا تَنضَـب ودسـتور يعلـو ولا يُعلى عليـه مـن الأخـلاق الفاضلـة التـي تسمو بالإنسـان الى مرتبـة المخلـوق المكـرَّم بـين باقـي المخلوقـات عـلى وجـه الأرض، لقـد أسّـسَ القـرآنُ الكريـم بنـاءً أخلاقيًّـا متكامـلًا، بأسـسٍ متينـةٍ، وقواعـدَ راسـخةٍ، بنـاءً قويًّـا متماسـكًا، أصلـهُ ثابـتٌ، وفرعـه يصـلُ عنـانَ السـماء، نَهـى عـن الرذائـلِ، وحـذَّر حتـى مـن الاقـتراب منهـا، وحـثَّ عـلى الفضائِـل، وفِعـلِ الخـيراتِ؛ ومنهَـا العفـوُ، والتسـامُح، والتّعـاون، والأمانـة، والصِـدق، والكَـرَم، والشـجاعة، والصْـبر، والإحسـان، والعَـدل، والإيثـار، والتواضُـع، وتوقـير الكبـير، ورحمـةُ الصغـير، وبـرُّ الوالديـن، وصِلةُ الرَّحِـم، والإحسـانُ لليتيـمِ والمسـكينِ وابـنِ السـبيلِ، والأمُـر بالمعـروفِ، والنهـيُ عـن المُنكـرِ بجميـع صُـورِه.

ومـن ناحيـةٍ أُخـرى، مَقـتُ العنصريـةِ؛ فَـلا فـرقَ بـينَ عـربيٍّ ولا عجمـيّ إلَّا بالتقـوى، والنَّهـيُ عـن السُّـخرِية والتنمُّـر، ونبـذُ التجسُّـس، والتحذيـرُ مـن الغيبـةِ والنَّميمـة والحسـدِ وشـهادة الـزورِ، والكثـير الكثـيرُ مـما لا يسـعُني ذِكـرُه لضيـقِ الوقـتِ في هـذا المَعـرِض.

نظـام أخلاقـيٌ مُتكامـلٌ، يتميَّـز بـأنَّ مُشرِّعَـهُ هـو الخالـقُ عـزَّ وجـلَّ، وهـو العليـمُ الخبـيرُ بِعبـادِه ومصالِحهـم، وهـذا مـا يُضفـي عـلى هَـذا النظـامِ صِفـةَ العـدلِ والمسـاواةِ المطلقـةِ، ويجعـلُ مِـن الالتـزام بـه أمـرًا مُرتبطًـا ارتباطًـا وَثيقًـا بالرَّقابـة الذَّاتيـةِ، وليـس بِرقابـة السـيفِ؛ لأن مـشرّع النظـامِ والمراقـب للإنسـانِ في الـسرِّ والعلَـن هـو اللـه عـزَّ وجـلَّ، وهـو سـبحانهُ العـالمُ بخائنـةِ الأعـينِ، ومـا تخفـي الصُّـدورُ، ولا يَخفـى عليـهِ شيءٌ في الأرض ولا في السـماءِ، وقـد جعـلَ اللـه -سـبحانهُ وتعـالى- الممارسـاتِ الأخلاقيَّـةَ مرتبطـةً بنظـام العقـابِ والثَّـوابِ بشـكلٍ وثيـقٍ، وهـذا مـن عظيـم كرمـه وفضلِـه، فحامـلُ القـرآنِ يتحـلَّى بالأخـلاقِ الحسـنةِ، ويفعـلُ

الخـيرَ، وينبـذُ الرذائـلَ والـشرورَ، ويتجنَّبهـا، وبذلـك ينـالُ الخيريــن؛ خـيرَ الدنيـا والآخـرةِ.

تعجـزُ الكلـماتُ البشريـة عـن وصـف شـموليَّة هـذا النظـامِ ومتانتـه، ولـو بَحثـتَ عـلى أرفـفِ المكتبـاتِ؛ لوجـدتَ العـشرات، بـل المِئـات مـن المؤلّفـات خُطَّـت في بيـانِ أخـلاقِ حامـلِ القـرآن الكريـمِ، وآهٍ لـو كانـت في قلـوبِ البـشرِ بـدلًا مـن تلـك الأرفـفِ!

ودعنـي أتْـلُ عـلى مسـامِعك بعضًـا مـن الآيـاتِ الكريمـةِ، التـي تتحـدَّثُ عـن دُسـتورِ الأخـلاق القرآنيـة، في وصايـا لقـمان لإبنه؛

قـال تعـالى : ﴿ يَـا بُنَـيَّ أَقِـمِ الصَّـلَاةَ وَأْمُـرْ بِالْمَعْـرُوفِ وَانْـهَ عَـنِ الْمُنكَـرِ وَاصْـبِرْ عَـلَىٰ مَـا أَصَابَـكَ إِنَّ ذلـكَ مِـنْ عَـزْمِ الْأُمُـورِ (17) وَلَا تُصَعِّـرْ خَـدَّكَ لِلنَّـاسِ وَلَا تَمْـشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًـا إِنَّ اللـهَ لَا يُحِـبُّ كُلَّ مُخْتَـالٍ فَخُـورٍ(18) وَاقْصِـدْ فِي مَشْـيِكَ وَاغْضُـضْ مِـن صَوْتِـكَ إِنَّ أَنكَـرَ الْأَصْـوَاتِ لَصَـوْتُ الحَمِـيرِ(19) ﴾. [القـمان:17-19]

قولـه تعـالى في سـورة الجمعـة: ﴿هُـوَ الَّـذِي بَعَـثَ فِي الْأُمِّيِّـينَ رَسُـولًا مِّنْهُـمْ يَتْلُـو عَلَيْهِـمْ آيَاتِـهِ وَيُزَكِّيهِـمْ وَيُعَلِّمُهُـمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِن كَانُـوا مِـن قَبْـلُ لَفِـي ضَـلَالٍ مُّبِـينٍ (2) ﴾ . [الجمعــة:2].

قـول اللـه تعـالى في سـورة آل عمـران: ﴿ وَسَـارِعُوا إِلَى مَغْفِـرَةٍ مِـنْ رَبِّكُـمْ وَجَنَّـةٍ عَرْضُهَـا السَّـمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِـدَّتْ لِلْمُتَّقِـينَ (133) الَّذِيـنَ يُنْفِقُـونَ فِي الـسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِـينَ الْغَيْـظَ وَالْعَافِـينَ عَـنِ النَّـاسِ وَاللَّـهُ يُحِـبُّ الْمُحْسِـنِينَ (134) وَالَّذِيـنَ إِذَا فَعَلُـوا فَاحِشَـةً أَوْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ ذَكَـرُوا اللَّـهَ فَاسْـتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِـمْ وَمَـنْ يَغْفِـرُ الذُّنُـوبَ إِلَّا اللَّـهُ وَلَـمْ يُـصِرُّوا عَـلَى مَـا فَعَلُـوا وَهُـمْ يَعْلَمُـونَ (135) أُولَئِـكَ جَزَاؤُهُـمْ مَغْفِـرَةٌ مِـنْ رَبِّهِـمْ وَجَنَّـاتٌ تَجْـرِي مِـنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِدِيـنَ فِيهَـا وَنِعْـمَ أَجْـرُ الْعَامِلِـينَ (136) ﴾ [آل عمـران:136-133].

قـول اللـه تعـالى في سـورة البقـرة : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَـا مِيثَـاقَ بَنِـي إِسْرَائِيـلَ لَا تَعْبُـدُونَ إِلَّا اللَّـهَ وَبِالْوَالِدَيْـنِ إِحْسَـانًا وَذِي الْقُـرْبَىٰ وَالْيَتَامَـىٰ وَالْمَسَـاكِينِ وَقُولُـوا لِلنَّـاسِ حُسْـنًا

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾

[سورة البقرة: 83].

قول الله تعالى في سورة فصلت: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (34).

وقوله عزّو جل في سورة الفرقان :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) ﴾ [سورة الفرقان: 63- 76].

- ولم يترك القرآنُ الكريم شيئًا إلا تحدَّث عنه، ومن ذلك المُحرَّمات التي حرَّمها الله - سُبحانَهُ و تَعَالَى - على الْإِنْسَان من أجل حفظ الضَّرورات الخمس، وهي حفظُ الدِّين والنفس والمال والعقل والعِرض.

- قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُم مِّنْ إمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ

بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153) ﴾. [الأنعام: 151-153].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة: 8]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ [النحل: 90].

وقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: 2].

قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: 28]، وقال تعالى:

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: 77].

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ(12) ﴾ [الحجرات: 11- 12].

وقد وصفَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- نبيَّه محمدًا -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بوصفٍ جامعٍ موجزٍ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4]. وعندما سُئلت السيدة عائشة -رضي الله عنها- عن خلق الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ

وَسَـلَّمَ- قالـت: «كان خلقـه القـرآن»[1].

وقـال الرسـول -صَـلَّى اللـهُ عَلَيـهِ وَسَـلَّمَ-: «مـا شيءٌ أثقـلُ في ميـزانِ المؤمِـنِ يـومَ القيامـةِ مِـن خُلُـقٍ حسَـنٍ، فـإنَّ اللَّـهَ تعـالى ليُبغِـضُ الفاحـشَ البَـذيءَ»[2].

وقـال الرسـول -صَـلَّى اللـهُ عَلَيـهِ وَسَـلَّمَ-: «ألا أحدِّثُكُـم بأحبِّكـم إليَّ وأقربِكُـم منِّـي مَجلسًـا يـومَ القيامـةِ؟ ثـلاثَ مـرَّاتٍ يقولُهـا قـالَ: قلنـا: بـلى يـا رسـولَ اللَّـهِ قـالَ: فقـالَ: أحسـنُكُم أخلاقًـا»[3].

وهذا غيضٌ من فيضٍ يا نور.

وأدعـوك أن تقـرأَ القـرآن الكريـمَ، وكتـب الأحاديـث النبويَّـة الشريفـةِ، لا سـيما سـيرَة رسـول اللـه صَـلَّى اللـهُ عَلَيـهِ وَسَـلَّمَ؛ لتـدركَ مـدى جـمال الشريعـة الْإِسْلَامِيّة، وعظيـم حكمـةِ الْخَالِـق عـزَّ وجـلَّ، ورفعـة أخـلاق رسـول اللـه محمـدٍ صَـلَّى اللـهُ عَلَيـهِ وَسَـلَّمَ، ولتنهـل كنـوزًا لا تنفـدُ، لـن تجدهـا في أي كتـابٍ آخـر عـلى وجـهِ الأَرض. ولا بـد لي أن أعتـذرَ، منـك يـا نـور فلـن أَسـتطيعَ شرحَ القـرآن الكريـم كاملًا في جلسـة واحـدةٍ؛ لأني لـن أعطيـه حقـه،

قـال تعـالى: ﴿ قُـلْ لَـوْ كَانَ الْبَحْـرُ مِـدَادًا لِكَلِـمَاتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْـرُ قَبْـلَ أَنْ تَنْفَـدَ كَلِـمَاتُ رَبِّي وَلَـوْ جِئْنَـا بِمِثْلِـهِ مَـدَدًا ﴾ [الكهـف: 109].

وقـال تعـالى: ﴿ وَلَـوْ أَنَّمَـا فِي الْأَرْضِ مِـن شَـجَرَةٍ أَقْـلَامٌ وَالْبَحْـرُ يَمُـدُّهُ مِـن بَعْـدِهِ سَـبْعَةُ أَبْحُـرٍ مَّـا نَفِـدَتْ كَلِـمَاتُ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ عَزِيـزٌ حَكِيـمٌ ﴾ [القـمان: 27].

أنـا هنـا لأعطيـك رؤوس أقـلامٍ فقـط، وأنـت عليـك الإبحَـار في جـمالِ القـرآن الكريمِ

(1) أخرجـه أحمـد في مسـنده، مسـند الصديقـة عائشـة بنـت الصديـق رضي اللـه عنهـما (15/43ح25813) وقـال الأرنـؤوط حديـث صحيـح، وهـذا إسـناد فيـه انقطـاع، الحسـن - وهـو البـصري - إنمـا سـمعه مـن سـعد بـن هشـام، عـن عائشـة وبقيـة رجالـه ثقـات رجـال الشـيخين، والبيهقـي في شعب الإيمـان كتـاب حـب النبـي صلى اللـه عليـه وسـلم فصـل في خلـق رسـول اللـه صلى اللـه عليـه وسـلم وخلقـه (23/3ح1360)، والطـبراني في معجمـه الأوسـط (30/1ح72).

(2) أخرجـه الترمـذي كتـاب أبـواب الـبر والصلـة بـاب مـا جـاء في حسـن الخلـق (362/4ح2002) وقـال حديـث حسـن صحيـح.

(3) أخرجـه أحمـد في مسـنده، مسـند المكثريـن مـن الصحابـة مسـند عبـد اللـه بـن عمـرو بـن العـاص رضي اللـه عنهـما (609/11ح7035) وقـال الأرنـؤوط حديـث حسـن.

وعظَمتِـه، واسـتخراجِ كنـوزه، أنـا هنـا أقـدّم لـك مـا تبحـثُ عنـهُ، حَيـثُ المصـدر الغيبـيّ الصحيـح، وأدلـك عـلى الطريـقِ القويـمِ، وأنـت عليـك إكـمال الرِّحلـة.

- بالطبـع يـا آدم، أنـا أتفهَّمُـكَ، أنـتَ لا تريـدُ منـي أن أَعتقـدَ أنَّ مـا ذكرتَـه هـو كلّ شيء، أنـا أعلـم أنَّ مـا قدمتـه لي مجـرّد مقدمـاتٍ تشـكِّل نـورًا يرشـدُني إِلَى الـصِّراط المسـتقيم، وأنَّ دوري الحقيقـيّ يبـدأ بعـد انتهـاء هـذا اللقـاء.

- أتعلـم يـا نـور؟ وأنـا أيضًـا أَعجبنـي أسـلوبُك الفَلْسَـفِيّ في تفسـير الأمـورِ، وسـأبدأ رحلتـي الشـخصيَّة أيضًـا لأخـدم شريعـة اللـه مـا اسـتطعتُ عـلى وجـه هـذه الأرضِ، طلبًـا لـرضى اللـه سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، فـلا ضـير مـن الفَلْسَـفَة إذا كانت ضمـن الضَّوابط الشرعيـة! ولكـن سـؤالي لـك يـا نـور؛ هـل أنفـع أن أكـونَ فيلسـوفًا هههـه؟

- بِالطَّبـع يـا آدم، وسـتكونُ مـن أعظـمِ الفلَاسـفةِ بإِذن اللـهِ، فـما ذكرتَـه لي في بضـع سـاعاتٍ اسـتغرقَ منـي ٧ سـنين مـن البحـثِ والتأمُّـلِ! إنَّ لديـك كنـزًا، وأصبـح الآنَ لدينـا معًـا، في داخـل كلّ إنسـانٍ فيلسـوف، ومـا يحتاجُـه فقـط هُـو أن يوقظـه، ولكـن دعنـا نتفـق أن نسـتبدل مصطلـح (علـم الفَلْسَـفَة) ضمن إطـار الضَّوابـط الشرعيَّـة بمُصطلـحِ (علـم التَّفكُّـر والتدبّـر).

- مصطلـح جميـلٌ يـا نـور، اسـمع مـا سـأتلوه عـلى مسـامعِك، وتدبَّـر وتأمَّلْ، قـال تعـالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِـلَافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لَآيَـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ (190) الَّذِيـنَ يَذْكُـرُونَ اللَّـهَ قِيَامًـا وَقُعُـودًا وَعَـلَى جُنُوبِهِـمْ وَيَتَفَكَّـرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْـتَ هَـذَا بَاطِـلًا سُـبْحَانَكَ فَقِنَـا عَـذَابَ النَّـارِ (191) رَبَّنَـا إِنَّـكَ مَـنْ تُدْخِـلِ النَّـارَ فَقَـدْ أَخْزَيْتَـهُ وَمَـا لِلظَّالِمِـينَ مِـنْ أَنْصَـارٍ (192) رَبَّنَـا إِنَّنَـا سَـمِعْنَا مُنَادِيًـا يُنَـادِي لِلْإِيمَـانِ أَنْ آمِنُـوا بِرَبِّكُـمْ فَآمَنَّـا رَبَّنَـا فَاغْفِـرْ لَنَـا ذُنُوبَنَـا وَكَفِّـرْ عَنَّـا سَـيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَـا مَـعَ الْأَبْـرَارِ (193) رَبَّنَـا وَآتِنَـا مَـا وَعَدْتَنَـا عَـلَى رُسُـلِكَ وَلَا تُخْزِنَـا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّـكَ لَا تُخْلِـفُ الْمِيعَـادَ (194) فَاسْـتَجَابَ لَهُـمْ رَبُّهُـمْ أَنِّي لَا أُضِيـعُ عَمَـلَ عَامِـلٍ مِنْكُـمْ مِـنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَـى بَعْضُكُـمْ مِـنْ بَعْـضٍ فَالَّذِيـنَ هَاجَـرُوا وَأُخْرِجُـوا مِـنْ دِيَارِهِـمْ وَأُوذُوا فِي سَـبِيلِي وَقَاتَلُـوا وَقُتِلُـوا لَأُكَفِّـرَنَّ عَنْهُـمْ سَـيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُـمْ جَنَّـاتٍ تَجْـرِي مِـنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ ثَوَابًـا مِـنْ عِنْـدِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ

عِنْـدَهُ حُسْـنُ الثَّـوَابِ (195) ﴾ [آل عمـران: 190-195].

بمـا أَنَّنـا نتحـدَّثُ عـن الأخـلاقِ؛ دعنـا نحتَـسِ فنجانًـا مـن القهـوةِ، لأسرد لـكَ قصـة شـاهين؛

شـاهين هـوَ غـلامٌ يعيـش في كنـف عائلـةٍ بسـيطةٍ مـن إحـدى القبائـلِ البدويَّـةِ، تجني تلـك العائلـةُ رزقهـا مـن رعـيِ الأغنـامِ، وبيـع الأجبـانِ، وكان شـاهين يرافـقُ والـدَه مـن حـينٍ لآخـر إلى قريـةٍ مجـاورة، ليقومـوا بمقايضـة بضائعهـم مـن اللحـوم والأجبـان بالقمـح والشّـعير والخضـار وغيرهـا، كان حلـم شـاهين امتـلاك منـزلٍ طينـيٍّ، مثـل ذلـك الـذي في القريـةِ، بـدلًا مـن خيمتِهـم الباليـة المهترئَـة، وهـذا كان جـلَّ اهتمامـه كلـما زار ذلـك المـكانَ، وفي إحـدى الزيـارات إلى تلـك القريـةِ؛ لاحـظ أحـدُ المزارعـين نشـاط وهمَّـة شـاهين العاليـةَ، ولا سـيما ذكاءه وفطنتـه، فلـم يـتردَّد في أن يطلبـه للعمـلِ لديـه في مجـال الزراعـة والحصـادِ، فعـرض الوالـدُ عليـه فكـرة الانتقـال إلَى تلـك القريـةِ للعمـل، ولم يـتردَّد شـاهين في قبـول ذلـك العـرض، علَى الرّغـم مـن حجـم الصعـاب التـي سـيواجهُها عنـد الانتقـالِ إلى القريـةِ؛ لفراقـه عائلتـه وأصدقائـه وذكرياتـهِ، ولكـن حبّـه وأملـه أن يسـكن بيتًـا طينيًّـا بـاتَ حلـمًا لا يفـارق مخيّلتـه البتَّـة، ودفعَـهُ إلَى الذّهـاب للاسـتقرار في تلـك القريـة.

أخـذ شـاهين يعمـل بجـدٍّ وتفـانٍ منقطـع النّظـيرِ، ليـلًا ونهـارًا، صيفًـا وشـتاءً، صابـرًا عـلى كلِّ أذى، يجمـع النقـود بحـرصٍ شـديدٍ، مانعًـا نفسـه مـن تبذيرهـا في أيٍّ مـن الملهيـات، فهـو لا يـرَى أمامـه إلا ذلـك البيـت الطيني. وبعـد سـنتين مـن العمـلِ اسـتطاع بصـبره وتصميمـه أن يبنـي بيتًـا طينيًّـا، واسـتقدَم عائلتـه إلى القريـةِ، وبالفعـل قـام بتحقيق حلمـه.

وفي تلـك المـدَّة مـن الزمـن، كان شـاهين يرافـقُ صاحـب المزرعـة مـن حـينٍ لآخـر إلى المدينـةِ؛ لتوريـد الخـضراوات إلى بعـض التُّجـار، ومـا كان ملفتًـا لـه -كالمعتـادِ- هـو تلـك المبـاني الجميلـة، والحَيـاة الرَّاقيـة في المدينـة، مـما أدخـل الحـسرةَ في قلبـهِ؛ لِأنـه يمتلـك بيتًـا طينيًّـا متواضعًـا في قريـةٍ متواضعـةٍ! فعـاد حلمُـه بالتَّجـدد أمـلًا في أن يمتلـك شـقةً في المدينـة تطفـئُ نـار تلك الحـسرة.

وبعـد مـرور أَربعـة أَعـوامٍ مـن إِقامتـه في القريـة؛ تعـرَّض صاحـب المزرعـة لوعكـةٍ

صحيـةٍ أَفقدتـه القـدرة عـلى المـشي، فطلـب مـن شـاهين أن يقـوم بـإدارة الأعـمال نيابـةً عنـهُ، وكانـت هـذه فرصـة لـه بالـتَّردد الدّائـم إلى المدينـةِ ليتابـع الأعـمالَ، واضعًـا نُصـبَ عينيـه هـدفَ امتـلاك الشـقَّة، واسـتطاع خـلالَ مـدّةٍ وجيـزةٍ تحقيـق هدفـه بامتـلاك شـقةٍ صغـيرةٍ في المدينـة، في مـكانٍ متواضـعٍ بعـض الـشيء، فالشُّـقق هنـاك باهظـة الثمـن، ولكـن الحـسرةَ لم تفارقـه هـذه المـرَّة، وذلـك لحلمـه امتـلاك شـقَّة أكـبر في بـرجٍ فخـم في وسـط المدينة! فقـرر أن يكافـح ويصـبرَ، ويجمـع الأمـوال للوصـول إلى ذلـك الهـدف، فاتَّجـهَ إلى العمـل في تجـارة الأقمشـة والمـواد التموينيَّـة، حيـث اسـتمرَّ بمتابعـة أَعـمال المزرعـةِ، مـع نقـل الأقمشـة والمـواد التموينيَّـة مـن المدينـة إلى قريتـه والقـرى المجـاورةِ، وبيعهـا، فكانـت السَّـاعة التـي لا يعمـل فيهـا يقضيهـا بالتَّفكـير في العمـلِ؛ ليحقِّـق حلمـه بامتـلاك تلـك الشُّـقة الفارهـة المكوّنـة مـن طابقـين في بـرجٍ شـاهق الارتفـاعِ، يطـلُّ عـلى مركـز المدينـة.

وتشـاء الأقـدار أن يقـضي صاحـب المزرعـة نحبَـه بعـد صراعٍ طويـلٍ مـع المـرض، ليتـزوّج شـاهين ابنتَـه الوحيـدة، التـي ورثـت ثـروةً لا بـأس بهـا، علَى الرّغـم مـن أنهـا قبيحـة المظهـرِ، سـيِّئة الخُلـق، عـلى عكـس شـاهين تمامًـا، الـذي كان يتباهـى بوجهِـه الوسـيمِ، وجسـده المتناسـقِ، ولا سـيما أخلاقـه الحميـدة! ولكنـه قـرَّر أن يصـبر عـلى قبحهـا وسـوء خُلقهـا مـن أجـل تحقيـق هدفِـه.

ولم تختلـف هـذه المـرَّة عـمَّا سـبقها، وبالفعـل امتلـك تلـك الشُّـقة بعـد أن أقنـع زوجتَـه ببيـع أمـلاك والدهـا، والانتقـالِ للعيـش في المدينـة، وقـام بِاسـتثمار مـا تبقَّـى مـن أمـوالٍ مـع صديـقٍ لـه في تجـارة اسـتيراد الأقمشـة وبيعهـا.

وفي يـومٍ مـن الأيـام، قـام شريكـه بدعوتِـه إلى بيتـه في زيـارةٍ عائليـةٍ؛ لتنـاول طعـام العشـاء، فاصطحَـب شـاهين زوجتَـه، وانطلقـا في سـيارتِهما إلى الضَّاحيـة الغربيَّـة مـن المدينـة، كانَ الطّريـق معبـدًا، محفوفًـا بأشـجار الصّنوبـر مـن الجانبـين، وتترامـى القصـورُ الفاخـرة الجذابـة عـلى جنباتـه، ذلـك المنظـر المهيـب لتلـك القصـورِ الفارهـة، كاد يقـذفُ بقلبـه خارج صـدره مـن شـدّة الخفقـان والحـسرة؛ لامتلاكـه شـقةً متواضعـةً في مركـز المدينـة، وكانـت الفاجعةُ عندمـا وصـل الى أعـلى تلـك التلـة الخـضراء، ليلمـح بطـرف عينيـهِ تلـك البوَّابـة الحَديديَّـة المهِيبـة، والتـي يتعـدَّى طولهـا ثلاثـة أمتـار، والمُزيَّنـة بالزَّخـارف الذهبيـة البرَّاقـة،

وعندمـا فُتحـت البوابـةُ؛ شـعر بسَـهمَين مـن الحـسرة والقهـر يخترقـان قلبـهُ عنـد رؤيتـه الحديقـة الأماميَّـة بأشـجارها وأزهارهـا وعصافيرهـا، وصـوت نغـمات المياه العذبـةِ الصـادرة مـن نوافيرهـا، ومـن أمامـه ذلـك الرّخـام الأبيـض اللـون الجـذّاب، الـذي تكتـسي بـه جـدرانُ ذلـك القـصر الجميـل وأَعمدتـه. كان شـاهين عـلى معرفـةٍ تامـةٍ أنَّ قلبَـه معلـقٌ بجـمال البيـوت منـذ صغـرهِ، ولكنَّـه في هـذه المـرة شـعر بأحاسـيس غريبـةٍ، تتلاطـم كأمـواج هائجـةٍ في جنبـات قلبـه، شـعر بهـا، ولكنـه عجـز عـن تفسـيرها.

بعـد تنـاول طعـام العشـاء، الـذي بالـكاد كان يستسـيغ طعمَـه، وهـو ينظـر إلى فخامـة المائـدة بأوانيهـا الفضّيَّـة البرّاقـة مـن جهـةٍ، وتلـك المـرأة الحسـناء آيـة الجـمال التـي تجلـسُ أَمامـه مـن جهـةٍ أُخرى، تسـيطرُ عليـهِ رغبتُـه الجيَّاشـة بالتأمُّـل في حسـنها، والنظـر إليهـا تـارةً، ويمنعُـهُ ضمـيرهُ، أو ربمـا خوفـه مـن صديقـه أو زوجتـه أن يلاحظـا تلـك النَّظـرات، تـصرع عينَيـه، فيشـيح بنظـرهِ تـارةً أُخـرى.

أذنـاه لا تسـمع إلا همسـاتٍ خافتـة لأطـراف حديـثٍ متبـادلٍ، تتخاطفـه أصـداء طـرق الملاعـق والصّحـون آتيـة مـن مـكانٍ بعيـدٍ، وبينـما هـو مهلهـلٌ بـين هـذا وذاكَ، وإذ بصديقـه يربـت عـلى كتفـه ويقـول لهُ:

- ما بك شارد الذهن ولا تأكلُ؟

قـال شـاهين مرتبـكًا ومبتسـمًا بعـد أن وضـع سـكينه وملعقتـه عـلى طـرفي صحنـه، والتقـط منديـلًا، وقربَـهُ إلى وجهـه دون أن أدري هـل ليمسـحَ بـه بقايـا الطعـامِ مـن عـلى فمـهِ، أم ليخفـي تعابـير وجهـه التـي قـد تظهـر خفايـا نفسِـه:

- أبـدًا! لقـد أكلـتُ مـا يزيـد عـن حاجتـي، شـكرًا يـا كريـم، لقـد كان عشـاءً رائعًـا، أشـكرك يـا سـيدة هنـاء عـلى صنعـك هـذا الطعـام اللذيـذ!

قالت هناء متلعثمةً، مع ابتسامة براقةٍ:

- العفو سيد شاهين، ولكن لستُ أنا من قام بالطبخِ، بل الطاهي الخاص بنا.

صرخَ صوتٌ في نفس شاهين: يا لكم من متعجرفين! لكنّهُ تمالك نفسهُ، وغطى تلك الصرخةَ بابتسامةٍ رقيقةٍ، وغرس المنديل في فمه متظاهرًا أنه يمسح بقايا الطعام مرةً أُخرى.

وما أنقذه من ذلك الموقفِ هو صوتُ زوجته الجهوري التي استدركت وقالت:

- لا بدَّ لكم أَن تستبدلوه بطاهٍ آخر، فالطَّعام لم يكن مطهوًّا بشكلٍ جيِّدٍ.

وأَسنَدت ظهرها السَّمين إِلى الكرسيِّ، ونظرت الى زوجة كريم مباشَرةً، وقالت بنبرةٍ متعجرفةٍ:

- عندما كنتُ أعيش مع والديّ في قصرنا؛ طردنا طاهيًا لأنّه تأخر عن تحضير الطعام خمس دقائق، يا له من غبيٍّ! هكذا يجبُ أن يُعامَل هؤلاء البشر!

وأرجعت رأسها، وفتحت فمها الغليظَ على مصراعيهِ، وأطلقت ضَحِكةً ارتجَّت لها أركان القصر!

«يا لوقاحتكِ! كيف تكذبين وأنت تنظرين إِلَى عيني تلك الحسناء البرَّاقتين مباشرةً»، هذا ما حدثتهُ به نفسُ شاهين، لكنّه بالتأكيد لن يَستطيع البوح بما يجول في خاطرهِ؛ بسبب الخوف من العواقب، أو ربما احترامًا لتلك الوضيعة في نَظَرِه!

استدرك كريم الموقفَ، فنهضَ، وطلب منهم التوجُّه إِلى غرفة الجلوس لتناول الشاي! «لديهم غرفة جلوس لتناول الشاي! يا لهم من متعجرفين! هل هم فعلًا متعجرفون؟»

استمرَّت زوجةُ شَاهين بإطلاق النكات والسَّخافات والضحكات المستفزَّة، إِلى أن أنقذَهُ كريم للمرة الثانية، إذ دعاهُ للجلوس في غرفة المكتب الخاصّ به، «بالتأكيدِ دعاني للذهاب إِلى هناك لكي يتباهى بذلكَ، يا له من متكبرٍ! أعتقد أنني لن أقوم بزيارته مرةً أخرى»، قالَ شاهين:

- يا له من مكتب جميل وفخمٍ! لديك عديدٌ من الكتب، هل تقرأُها أم هي

لأغـراض الديكـور؟

ضحـك كريـم، والتـفَّ وراء مكتبـهِ، وجلـس عـلى كرسـيه، قـال شـاهين في نفسـه: لمـاذا يضحـك؟ هـل قلـت شـيئًا مضحـكًا؟ يـا لـه مـن سـاذج».

- - لا، إنَّهـا ليسـت بغـرض الديكـور، إنمـا أنـا مهتـمٌّ بأمـور أخـرى بعـد انتهـائي مـن أعـمالي اليوميـة.

- «آهـا! عمـلٌ أخـر يُـدِّرُ لـه أَرباحًـا طائلـةً! هـذا مـا قالـهُ الصـوتُ الَّـذِي لا ينفـك يَهمِـس في نفـسِ شـاهين ، واسـتدركَ قائـلًا:

- - أَي نوعٍ من الأعمال؟ البورصة أم تجارة الذهبِ؟

- هههههههـه، لا هـذا ولا ذاكَ، فأنـا لا أعمـل إلا في تجـارة الأقمشـة في النهـار معـك، وأعمـل للجـزء الآخـر مـن حيـاتي في الليـل.

- - أيَّ جزءٍ آخَر؟

- «يبـدو أَن هـذا اللعـين متـزوجٌ مـن امـرأة أخـرى، ويـأتي إلى مكتبـه للحديـث معهـا عَـبرَ الهاتـف، بالفعـل الإنسـان لا يعـرف قيمـةَ مـا يملكـهُ، لـو كنـت أملـك تلـك الحسـناءَ لفرشـت لهـا الأرض ورودًا».

- أقصد بالجزء الآخر أي (الدار الآخرة).

«لقد ظننت به ظنًّا سيئًا، يا لوقاحتي! لا، أَنا لست وقحًا، هو مَن لم يوضّح لي الأمر!»

- بصراحـةٍ يـا كريـم لقـد فاجأتنـي، فأنـت لَديـك مـن كلّ شيءٍ، ومـا زلـت شـابًّا، وتهتـم بهذه الأمورِ؟

ردَّ كريم بتواضعٍ وخجلٍ:

- الحمد لله، هذا من فضل ربِّي سبحانه وتعالى.

وأردف قائلًا:

- أَتعلـم يـا شـاهين؟ عندمـا أَنظـر حـولي إلى مـا رزقنـي اللـه بـهِ؛ أشـعرُ بالسَّـعادة للحظـةٍ، فأتذكَّـر قولـه تعـالى في سـورة التكاثـر: ﴿ ثُـمَّ لَتُسْـأَلُنَّ يَوْمَئِـذٍ عَـنِ النَّعِيـمِ ﴾ [التكاثـر: 8]. فيدمـغ خـوفي سـعادتي عندمـا أعلـم أنَّ هـذا لـن يـدومَ، وأننـا إلى ربِّنـا راجعـون، وعـمَّا اكتسـبنا مسـؤولون.

«لقد بدأت حفلة النفاق! أنا أكره مناقشة هذه الأمور ولكنِّي مضطر إلى ذلك».

- هـوِّن عليـك يـا كريـم، لمَ كل هـذا الخوف؟! مـا عليـك إلا أن تكـون صاحـبَ أخـلاقٍ طيبـةٍ، وسـتدخل الجنـة!

لم يُعلِّق كريم، واستكمل قائلًا:

- أخـاف عندمـا أسـمع قولـه تعـالى: ﴿ كُلُّ نَفْـسٍ ذَائِقَـةُ الْمَـوْتِ وَإِنَّمَـا تُوَفَّـوْنَ أُجُورَكُـمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ فَمَـنْ زُحْـزِحَ عَـنْ النَّـارِ وَأُدْخِـلَ الْجَنَّـةَ فَقَـدْ فَـازَ وَمَـا الْحَيَـاةُ الدُّنْيَـا إِلاَّ مَتَـاعُ الْغُـرُورِ﴾ [آل عمـران: 185]. وقولـه تعـالى: ﴿انظُـرْ كَيْـفَ فَضَّلْنَـا بَعْضَهُـمْ عَـلَىٰ بَعْـضٍ وَلَلْآخِـرَةُ أَكْـبَرُ دَرَجَـاتٍ وَأَكْـبَرُ تَفْضِيـلًا﴾ [الإسراء: 21] . مـا هـذه الدرجـات التـي أعدَّهـا اللـه للمؤمنـين في الجنـةِ؟ ومـا هـو مـدى تفاوتهـا؟! هـل عمـلي سـيزحزحني عـن النَّـار؟ أم سـيدخلني الدَّرجـات العـلا مـن الجنة؟ أتعلـم يـا شـاهين؛ أَنـا أشـعر بالرهبـة الشـديدة أيضًـا عندمـا أسـتحضر في ذهنـي ذلـك المشـهد العظيـم مـن مشـاهد يـوم القيامـة، بقولـه تعـالى في سـورة الزُمَـر: ﴿ أَنْ تَقُـولَ نَفْـسٌ يَـا حَسْرَتَـا عَـلَى مَـا فَرَّطْـتُ فِي جَنْـبِ اللَّـهِ وَإِنْ كُنْـتُ لَمِـنَ السَّـاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُـولَ لَـوْ أَنَّ اللَّـهَ هَـدَانِي لَكُنْـتُ مِـنَ الْمُتَّقِـينَ (57) أَوْ تَقُـولَ حِـينَ تَـرَى الْعَـذَابَ لَـوْ أَنَّ لِي كَـرَّةً فَأَكُـونَ مِـنَ الْمُحْسِـنِينَ(58)﴾ [الزمـر:56-58] . ذلـك المشـهد العظيـم، يـوم تـزلُّ القـدم، ولا ينفـع النـدم، لا للمسـيء عـلى إسـاءته، ولا للمحسـن عـلى عـدم ازديـادِه مـن الإحسـان.

وضع شاهين رِجلًا على رجلٍ، وقالَ:

- لا عليكَ، استمتع بما لديكَ، فما زال العمر طويلًا، ونحن في النهاية مُسيَّرون وغير مُخَيَّرين.

- وما أدراك أن العمر طويلٌ؟ قال تعالى: ﴿ وَما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدًا وَما تَدْري نَفْسٌ بِأيِّ أرضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير﴾ [القمان: 34].

«يا له من رجعيٍّ متخلفٍ، لا يقدِّر النعمة! كل هذا النَّعيم ويفكر في الجنةِ، أنت تعيش أصلًا في الجنة أيها الغبيّ! لو أدري أنّ هذا ما أراد أن يحدثني به ما قبلت دعوته إلى العشاء! أنا الآن أفكر في أمرٍ واحدٍ فقط، كيف سأحصلُ على قصر مثل قصرِه، وزوجةٍ مثل زوجته».

وأكمل كريم بعد أن بدأت تظهر على وجهه ملامح استنكارية:

- من قال لك إننا مسيَّرون ولسنا مخيَّرين؟ أنا لديَّ يقينٌ تامٌّ لا شكَّ فيه أن مشيئتنا لا تتعدَّى مشيئة خالقنا -عز وجلَّ- ولكن يجب أن تعلم أمرًا مهِمًّا، أَن الله قد خلق الإنسان مُخيرًا بامتلاكه حريَّة الإرادة التي منحها الله تعالى له، قال تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:3] قال تعالى:

- ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد:10]، والنجدين: هما طريق الخير والشرّ. وفي سورة الكهف قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: 29] فالإنسان مُخَّير باختيار طريق الهدى، أَو طريق الضّلال، ولكن تحت مشيئة الله الكليَّة في الخلق، قال تعالى في سورة التكوير: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[التكوير: 29] فأنت حرٌّ في اختياراتكَ، ولكن لن تتم هذه الاختيارات إلا بمشيئة الله عزَّ وجلَّ، سأضرب لك مثالًا لتوضيح ذلك؛ لو قررت في لحظةٍ من اللحظات أن تقوم بالسَّرقة، هنا الأمر بيدكَ، أنت من اخترت بحُرِّيةٍ إرادتك

أن تـسرق، ولكـن القيـام بتلـك العمليـة مـا كان ليحـدث لـولا أن منحـك اللـه وقتًـا لتعيـشَ وتقـوم بهـا مـن ناحيـة، ومـن ناحيـةٍ أخـرى تهيّـأت لـك الأسـباب مـن اللـه عـزَّ وجـل بنـاءً عـلى اختيـارك!

فالأفعـال السَّـيئة الشريـرة لا يقبلهـا اللـه سـبحانه وتعـالى، وينهَـى عنهـا، وفي المقابـل فإنَّـه -سـبحانه وتعـالى- إلـه خـيرٍ، يأمـرك ويحثُّـك عـلى فعـل الخـيراتِ، ولكنـه شـاء لـك أن تقـوم بهـذه الأعـمال بنـاءً عـلى اختيـارك، فأنـت مـن تختـارُ، وأنـت مـن تُحاسَـبُ، وأنـت مـن تظلـم نفسـك، ولهـذا خلقـك اللـه بـإرادةٍ حـرةٍ، وجعـل يـوم الحسـاب ليثـاب المحسـنُ عـلى إحسـانهِ، ويعاقـب الظـالم عـلى ظلمـهِ، إذَن أنـت مخـيَّر تحـت مظلـة المشـيئة الإلهيـةِ، قـال تعـالى: ﴿ إِنَّ الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ يَهْدِيهِـمْ رَبُّهُـمْ بِإِيمَانِهِـمْ تَجْـرِي مِـنْ تَحْتِهِـمُ الْأَنْهَـارُ فِي جَنَّـاتِ النَّعِيـمِ ﴾ [يونـس: 9]. وقـال تعـالى: ﴿ ذَٰلِـكَ بِمَـا قَدَّمَـتْ يَـدَاكَ وَأَنَّ اللَّـهَ لَيْـسَ بِظَـلَّامٍ لِّلْعَبِيـدِ ﴾ [الحـج: 10] أرجـو أَن تكـون قـد فهمـت مـا أقصـد يـا شـاهين.

رد شاهين بعبارةٍ تفوح منها رائحة النفاق:

- بالتَّأكيـد فهمتـكَ، وقـد لامـس كلامـك قلبـي! ولكـن أنـا أفكِّـر بطريقـةٍ أقـلّ تعقيـدًا مـن تفكـيرك، فكـما أخبرتـك مـن قبـل الأمـر لا يسـتدعي كلّ هـذا القلـق! في هـذه الحيـاة عليـك التـزام الخلـق الحسـن، وامتـلاك قلـب طيـبٍ، وسـتدخل الجنـة.

- لا أَستطيع فهمك بوضوحٍ يا شاهين، هل تقصد أنَّك لا تؤمن بالله؟!

قال شاهين مرتبكًا بعد أَن عدّل جلستهُ:

- لا، أَنا أؤمـن، ولكـن مـن وجهـة نظـري أنَّ الديـن للتعبُّـد فقـط، أمـا مـا يخـص تشريعـات الحيـاة، فالأخـلاق الإنسـانيّة كافيـةٌ لِـردع الشّـخص عـن القيـام بالأفعـال الخاطئـةِ، ولا أَرى ضرورةً لاتبـاع الشَّريعـة الدينيَّـة في هـذا الأمـر!

- أَختلـف معـك في هـذه النقطـة تمامًـا يـا شـاهين، فمنظومـة الحيـاة تحتـاج مشرِّعًـا حكيـمًا مـن خـارج هـذه الكينونـةِ، يعـرفُ مَصالـح خلقـهِ، ويُـشرِّع القوانـين والأخـلاق

الحسـنةَ والعادلـة، ولـن تجـد أقـوى مـن الـوازع الدينـيِّ، أي رقابـة اللـه لـك في الـسر والعلـن في منعـك مـن إتيـان الـشرور، أمـا القوانـين الأخلاقيَّـة الوضعيَّـة البشريـة، فتتلـوَّن بصبغـة المصالـح البشريَّـة، والمـبرّرات النفسـيَّة، فهـي أخـلاقٌ نسـبيَّةٌ.

«يـا لـه مـن رجعـيٍّ متخلـفٍ، انظُـر إلى أيـن وصلـت بنـا العلـوم والتقـدم الحضـاريّ، ولا زال يعتقـد أن الـوازع الدينـيَّ هـو الـرادع للبـشر، عـلى الأغلـب أنَّـه لا يقـرأ كتـب الفلسـفة الغربيَّـة، فعقلـه الصَّغـير لـن يسـتوعب الفكـر الغـربيَّ المعـاصر، لقـد اكتشـفتُ أنـه رجعـيّ منـذ لحظـة رؤيتـي لتلـك الحسـناء وهـي ترتـدي ذلـك الحجـابَ، هـل مـا زالَ إلى يومنـا هـذا هنـاك أُنـاسٌ يؤمنـون بهـذه الأمـور الغريبـةِ! لا بـدّ أنـه هـو مـن أجبرهـا عـلى ارتـداء الحجـاب، ولكـن لأكـون صادقًـا، فالصـدق أمانـةٌ أَخلاقيَّـةٌ! لقـد كان وجههـا منـيرًا كالبـدر في ذلـك الحجـابِ، فكيـف لـو خلعتـه؟!».

- بالمناسـبة، كـم كلّفـك بنـاء هـذا القـصر الجميـلِ؟ فأنـا أفكِّـر أن أَقتنـي واحـدًا مثلـه في المستقبل.

- حقًّـا! لقـد أسـعدَني أنَّـه أعجبـك، لا عليـكَ، إذا عقـدت العـزم، فسـأقوم بمسـاعدتكَ، فقـد أصبحـتُ صاحـب خـبرةٍ في أمـور البنـاء، ولـديَّ علاقـاتٌ عديـدةٌ في هـذا المجـال.

- لم تخبرني كم كلفك!

«هـذا الحقـير لا يريـد أَن يخـبرني كـم كلفـه بنـاء القـصرِ، إنـه يخـاف مـن الحسـد، أنـا بطبيعتـي لسـت حسـودًا، فهـذا ليـس مـن أخلاقـي، ولكـن مـن الجيـد أنَّنـي عرفتـه عـلى حقيقتـه، إنـه مريـضٌ نفسـيٌّ، وأخلاقـي لا تسـمح لي بـأن أَدعـوه بالحقـير، ولكنـه هـو مَـن اضطـرني إلى ذلـكَ، هـو السـبب! يجـب أن أُنهـي شراكتـي معـه في أقـرَب وقـتٍ».

- أَتوقَّع أَنه كلفك المليون؟!

- نعـم ، مليـون ومئتـان وخمسـون ألفًـا تقريبًـا، ولكـن هـذا كان قبـل عـشر سـنواتٍ، فـلا بـد أن الأسـعار قـد تغـيَّرت وارتفعـت.

«آهـا، الأسـعار ارتفعـت! يريـد أن يرهبنـي مـن الأمـرِ؛ حتـى لا أبنـي قـصرًا مثلـهُ، يـا لـه من وغـدٍ حسـودٍ!».

- سـأقوم بعمـل دراسـةٍ كاملـةٍ لـك إذا أحببـتَ، وإذا عقـدتَ النيـة عـلى البـدء بمـشروع البنـاء قريبًـا؛ فأنـا أدَّخـر مبلغًـا مـن المـال ليـس بي حاجـةٌ إليـهِ، فيمكننـي إقراضـه لـك متـى شـئت.

«لديـه مبلـغ إضـافيٌّ مـن المـال، مـن أيـن يـأتي بهـذه الأمـوال؟ ويريـد الدرجـات العـلا مـن الجنـة! يـا لـه مـن جشـعٍ، وأكـرر هـو مـن اضطـرني إلى وصفـه بهـذا الأوصـافِ».

- عـلى أي حـالٍ، أَنـا مـا زلـت أفكّـر في الأمـر، وعندمـا أُقـرر البـدء بتنفيـذ المـشروع سـأخبرك بذلـك.. أوه! لم أَشـعر بمـرور الوقـتِ، إنهـا الحاديـة عـشرة، لا بـد لنـا مـن الانـصرافِ، أشـكرُك عـلى حسـن ضيافتِـك يـا كريـم.

خَـرَجَ شـاهين مـن غرفـة المكتـبِ ، وقـال في نفسِـه وهـو يختلـسُ نظـرةً إلى هنـاء: يالهـا مـن ابتسـامة رقيقـةً في وجـه الحسـناء ! تُخفـي وراءهـا آثـارَ انهيـار عصبـيٍّ مـن أثـر تلـك القذائـف التـي أطلقتهـا البدينـة في وجههـا.

- هيا بنا يا حبيبتي لقد تأخر الوقت.

- ما زال الوقت باكرًا..

هذا ما قالته الحسناء، «يا لذوقها الرفيع!».

- أشـكرك يـا هنـاء، لقـد سـعدت بالحديـث معـكِ، بالمناسـبة.. إذا احـترق البيـتُ، أو حدثـت لكـم مصيبـةٌ؛ لا تقـولي إنَّنـي السـبب في ذلـكَ، فقـد طرقـت الخشـبَ!

وأطلقـت ضحكتهـا المسـتفزَّة مـرة أُخـرى، وضربـت عـلى كتـف الحسـناء، وحضنتهـا حتـى كادت تكـسر ضلوعَهـا الرقيقـة.

- ويُخبِرُنا شاهين قائِلاً:

في طريـق العـودة إلى المنـزلِ، اسـتمرت المعانـاةُ، فرصيـد الثرثـرة لـدى البدينـة لا ينفـد، ولكـن لا بـأس، فأنـا كنـت لا أكاد أسـمع زئيرهـا، وإنمـا همسـات في أوقـاتٍ متباعـدةٍ، يفصـل بينهـا صـورة ذلـك القـصر الجميـل والحسـناء مـن جهـةٍ، والحـسرة والحـيرة للحصـول عليهـما مـن جهـةٍ أخـرى.

- ماذا عليَّ أن أفعلَ، ماذا عليَّ أن أفعل؟

- هيييييه أَنت! أنا أُحدثك ألا تسمعني؟

- بلى حبيبتي، بلى أسمعك؟

- وماذا سألتك؟

- ها! نعم، لقد نسيت ماذا كنت تقولين؟

- سألتك من ترى الأجمل؟ أنا أم تلك القبيحة؟

ونظرت إليَّ بعينيها الغائرتين نظرة ضبعٍ ينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض على فريستِه!

- هههههههـه، بالطبـع أَنـت يـا حبيبتـي، وهـل في هـذا نقـاش؟! ولكـن أعجبتنـي قصـة والديـكِ والطاهـي، مـن أيـن أَتيـت بهـا؟ هههههههـه.

- لماذا تضحك؟! لقد كان عندهما طاهٍ بالفعل قبل أن تتزوجني.

- آها، وماذا عن القصر؟

أجابت بتلعثم وهي تحكُّ أنفها الأفطس:

- كان عند أبي قصرٌ قبل أن تتزوجني أيضًا.

«جميل، تلك البدينة كذَّبت الكذبة وصدقتها، ونسيت أنَّني كنت أعمل عند والدها قبل الزواجِ، يا لها من بلهاء».

- أوقِف الموسيقى، أريد أن أنام قليلًا.

- اقتلها!

صوتٌ اخترق رأسَ شاهين فجأةً، ودون سابق إنذار، ودار بينه وبين هذا الصوتِ حوارٌ طويلٌ:

- ماذا؟! هل قلت أقتلها؟!

- نعم، اقتلها.

- ولكن لماذا؟!

- لأنها لا تستحقُّ الحياة، هي حقيرةٌ وضيعة ومتعجرفةٌ، وفي النهايةِ فإنها ستموتُ، هذا قدرها.

- ولكن.. أنا لستُ قاتلًا؟!

- ألا تريد أن تحصل على مثل ذلك القصر الفاخر، ألا تريد أن تعيش مع الحسناء؟ اقتلها واحصل على ما تريد، لم يبقَ في العمر بقيَّةٌ لكي تجتهدَ وتعملَ وتصبرَ، كفاك، استمتع بما تبقَّى لك من عمرك.

- أريد الحصول على ذلكَ، ولكن ليس بقتلها، نعم إنَّ قدرها أن تموتَ، ولكن بقتلي لها أكون أنا من اخترت أن أَكون السَّبب في ذلك!

- ههههههه، هذا ما كنت أَخشاه، أن يقنعك ذلك الرجعيُّ بأفكاره! يا لك من ضعيفٍ، هل غيَّرَ معتقداتك؟

- لا، لا، أَنا صاحب رأيٍ، وليس من السهل تغيير قناعاتي، وليس لأحدٍ أن يغلبني

برأيـهِ، ولكـن أخلاقـي لا تسـمح لي بالقتـلِ، لنجـد حـلًّا آخـر.

- لا عليـكَ، ستشـعر بقليـلٍ مـن النـدمِ، ومـن ثـم سـيزول ذلـكَ الألم شـيئًا فشـيئًا عندمـا تعيـش بقيَّـة عمرك في مثـل ذلـك القـصر بجانـب الحسـناء، ومـن قـال لـك إنَّ القتـل عمـلٌ لا أخلاقـي عندمـا تكون هنـاك ضرورةٌ؟!

- ضرورة؟ أيُّ ضرورةٍ؟!

اختفـى ذلـك الصـوتُ بوصـول شـاهين وزوجتـه إلى المنـزلِ، ومـا كاد يضـع رأسـه عـلى الوسـادة حتـى عـاد لـه مـن جديـدٍ:

- انظـر إلى تلـك الوضيعـة إلى جانبـكَ، لا زالـت تثرثـر حتـى في نومهـا، اكتـم نفسـها، وتخلَّـص مـن شـخيرها، صدِّقنـي إن قدرَهـا أن تمـوتَ، وقَـدَرُك أن تعيـش بسـعادةٍ، نحـن مُسـيَّرون ولسـنا مُخيَّريـن، أنسـيتَ ذلك؟! هـا أنـت تقـضي نصـف أيـام الشـهر في إقناعهـا بالإنجـاب، وهـي ترفـضُ، ولمـاذا؟ كي لا تفقـد رشـاقتها، يـا لهـا مـن حمقـاء! أنـا لا أدري بـأي عـينٍ تنظـر إلى المرآة؟ إنهـا أنثـى لا تصلـح لـشيءٍ، وموتهـا سـيعود بالفائـدة عـلى الجميع.

- الجميع! من الجميع؟

- أنـتَ والنـاس مـن حولـك، ألم تلاحـظ مـدى وقاحتهـا اليـوم مع الحسـناء؟ آه الحسـناء! أتذكـر تلـك العينَـين البنيتَـين الواسـعتَين، وذلـك الأَنـف الدّقيـق، والفـم الرَّقيـق، هـذه مـن تسـتحق العيـش، هـذه مـن تسـتحق أن تنجـب الأطفـال!

- إذن سأطلِّقها.

- هـل جُننـت! ألا تذكـر أن مـا أنـت فيـه هـو مـن مـيراث والدهـا! أتريـد أن تطلقهـا وتخـسر كل شيء لتبـدأ مـن جديد؟ قلـت لـك لم يتبـق في العمـر بقية؟ القـصر والحسـناء، والعمـر يمـضي، اقتلهـا الآن، مـا عليـكَ إلا أن تضـع الوسـادة عـلى وجههـا، وتكتـم أنفاسـها، وتدَّعـي أنـك اسـتيقظت فوجدتهـا فارقـت الحيـاة، لا تخـفْ، إن

الأمـر بسـيطٌ، فـلا تعقِّـده.

- أتعلـم؟! أنـت عـلى حـقٍّ، إنهـا لا تنفـع لـشيءٍ، حقـيرة ووضيعـة وكاذبـة، وأنـا أقتـل نفـسي بالعيـش معهـا، أنـا إذَن قاتـلٌ في جميـع الأحـوال! وبالتأكيـد ستسـببُ أخلاقُهـا الوضيعـة فسـادًا أخلاقيًّـا، فبقتلهـا أُحافـظ عـلى أخلاقـي، وأخـدم المجتمـع بالتخلـص مـن هـذه الفاسـدة، نعـم. أنـا ضحيَّـة العيـش معهـا، وهـي قاتلـةٌ لأَنهـا تقتلنـي بإنقـاص عمـري في العيـش معهـا كل يـومٍ لا محالـة، فـإذا قتلتهـا أكـون قـد قتلتهـا دفاعًـا عـن نفـسي، وهـذا فعـلٌ أخلاقـيٌّ، ومـن أبسـط حقوقـي.

- نعم، أحسنت يا شاهين، هذا ما كنت سأقوله لك بالضبط، الآن بدأت تفهمني!

- ولكن.. ماذا عن كريم؟

- لا تقلق، سنتدبَّر أمره فيما بعد.

ودون تـرددٍ، قـامَ شـاهين مـن فراشـه، وأمسـك بالوسـادة، ووضعهـا عـلى وجههـا، وضغـط عليهـا بـكل قـواهُ:

- مـوتي أيتهـا القاتلـة، مـوتي أَيتهـا الحقـيرة، لم أُرد قتلـك، ولكنـه قـدرك وقـدري، لم أُرد قتلـك، ولكنـك اضطررتنـي إلى ذلـك بأخلاقـك الفاسـدةِ، أنـا أُدافـع عـن نفـسي، أنـا أدافـع عـن المجتمـعِ، أَنـا أدافـع عـن أخلاقـي، أنـا مُسـيَّرٌ ولسـت مُخـيَّرًا.

واستمر بالضغط حتى لفظت أَنفاسها الأخيرة[1].

كـما لاحظـتَ يـا نـور، لـو أن شـاهين التـزم تشريعـات الخالـق لما أقـدم عـلى فعلتـهِ، ولكـن اتبـع الهـوى والمرجعيَّـة الأخلاقيـة البشريَّـة، المبنيـة -في أغلـب الأحيـانِ- عـلى المبررات والمصالـح الشـخصيَّةِ، كـــان يكفيـه رادعًـا عـن الإقـدام عـلى فعلتـــه أن يقـــرأ قولـه تعـالى: ﴿ وَلاَ تَتَمَنَّـوْاْ مَـا فَضَّـلَ اللّـهُ بِـهِ بَعْضَكُـمْ عَـلَى بَعْـضٍ لِّلرِّجَـالِ نَصِيـبٌ مِّـمَّا اكْتَسَـبُواْ وَلِلنِّسَـاء نَصِيـبٌ مِّـمَّا اكْتَسَـبْنَ وَاسْـأَلُواْ اللّـهَ مِـن فَضْلِـهِ إِنَّ اللّـهَ كَانَ بِـكُلِّ شَيْءٍ عَلِيـمًا ﴾ [النسـاء: 32]. وقولـه تعـالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُـوا النَّفْـسَ الَّتِـي حَـرَّمَ اللَّـهُ إِلَّا بِالْحَـقِّ وَمَـنْ قُتِـلَ مَظْلُومًـا فَقَـدْ

(1) أحداث القصة والشخصيات من وحي خيال الكاتب.

جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ [الإسراء: 33] وقوله عز وجلّ: ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: 32].

- أشكرك يا أدم على تلك القصة التي تنطوي على عبرة عظيمة لمن أراد ان يعتبر ...

ولكن هناك يا آدم تساؤلٌ يجولُ في خاطري! بما أن اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- إلهُ خيرٍ؛ فالسلام والأمن صفةٌ خيريةٌ، ولا بد أن تكون صفةً من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- وهي كذلك يا نور، الله هو السلامُ المؤمنُ المهيمن.

- إذَن لماذا نسمعُ ونشاهد في وسائل الإعلام المختلفةِ حملاتٍ على الإسلام على أَنَّه دين إرهابٍ، وأنَّ الإسلام قد انتشر بحدِّ السيفِ، هل هذا صحيح؟

- جميل، أنتَ أثَرتَ مسألةً شديدة الأهميَّة، المشكلة يا نور هي تشويه الفهمُ السَّليم والتَّطبيق الصَّحيح لتعاليم الشَّريعة الْإِسْلَامِيّةِ، لذا دعني أشرَح لك فلسفةَ القتال والجهاد في الإسلامِ، بمفاهيمها الصحيحةِ، وتطبيقاتها العادلةِ، ومن مصدرها النقيِّ (القرآن الكريم).

الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هو السَّلامُ، قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر: 23]. فهذا هو الأساسُ، أنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هو السلامُ، ويدعو إِلَى السلامِ، ولكن القتالَ من الأمور التي لا مفرَّ منها في مسألة الخلقِ، وذلك بسبب وجود الخير والشرّ، إذ إنَّ هناك فريقَين متضادَّين، فلا بدَّ من وجود القتالِ لا محالة. قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 216].

أتلاحظ يا نور أنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- قالَ عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير

لكـم، وعـسى أن تحبُّـوا شـيئًا وهـو شرٌّ لكـم، واللـه يعلـم وأنتـم لا تعلمـون! إذن، اللـه -سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- يعلـمُ أنَّ المؤمنـين سيتسـاءلون لمَ كُتـب القتـالُ علينـا وهـو شرٌّ، ولكـن إلـه الخـيرِ لا يـأتي إلا بخـيرٍ، فـما تعتقـد أنَّ ظاهـره شرٌّ قـد يكـون باطنـه خـيرًا، وسـأشرحُ لـك بالتفصيـلِ الخيريَّـةَ في القتـال والجهـاد كـما علَّمنـا اللـه سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، قـال تعـالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُـمُ اللَّـهُ وَاللَّـهُ بِـكُلِّ شَيْءٍ عَلِيـمٌ ﴾ [البقـرة:282].

أولًا: رد الاعتـداء (جهـاد الدفـاعِ) وهـذا أمـرٌ بديهـيٌّ، فـلا يُعقـل أن يعتـدي عليـك أحـدٌ وتقـف مكتـوف الأيـدي، وخصوصًـا أنَّـك تدعـو إلى الخيريَّـةِ، وهـو يدعـو إلى الشرِّ، قـال تعـالى:

﴿ الشَّـهْرُ الْحَـرَامُ بِالشَّـهْرِ الْحَـرَامِ وَالْحُرُمَـاتُ قِصَـاصٌ فَمَـنِ اعْتَـدَىٰ عَلَيْكُـمْ فَاعْتَـدُوا عَلَيْـهِ بِمِثْـلِ مَـا اعْتَـدَىٰ عَلَيْكُـمْ وَاتَّقُـوا اللَّـهَ وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللَّـهَ مَـعَ الْمُتَّقِـينَ ﴾ [البقرة: 194]، وقـال تعالى:

﴿ وَإِن جَنَحُـوا لِلسَّـلْمِ فَاجْنَـحْ لَهَـا وَتَـوَكَّلْ عَـلَى اللَّـهِ إِنَّـهُ هُـوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيـمُ ﴾ [الأنفـال: 61]. لا أعتقـد أن هنـاك إرهابًـا في ذلـك الأمـرِ!

- بالتَّأكيد يا آدَم، أكمِل.

- ثانيًـا: جهـاد الطَّلـبِ، والهـدفُ منـه نـشر شريعـة الإسـلام الخيريَّـة، وتوحيـد المعايـيرِ الأخلاقيَّـةِ، وتطبيـق القوانـين العادلـةِ، فكـما ذكـرتَ في اسـتنتاجاتك الفَلْسَـفِيّة أنَّ نـشر الشريعـة الخيريَّـة هـو أمـرٌ واجـبٌ لتطبيـق شريعـة الْخَالِـق الخيريَّـة الموحّـدة والعادلة.

- صحيحٌ، أنا ذكرتُ ذلك يا آدم، ولكن لم أتوقَّع أن يكون ذلك بحدِّ السيف!

- مهـلًا يـا نـور! لا تسـتعجل الحكـمَ قبـل أن أوضِّـح لـك الصُّـورة بأكملهـا، فجهـاد الطَّلـب لا يبـدأ بالقتـال أو بحـد السـيفِ، وإنَّمـا يبـدأ بالطلـب مـن القـومِ المـراد نـشر الإسـلام بـين ظهرانيهـم أن يدخلـوا الإسـلام بالسِّـلمِ، بحيـث تكـون السِّـيادة للشريعـة الْإِسْـلَامِيّة في ذلـكَ البلـدِ، ولا يُكـره أي مواطـنٍ عـلى أن يدخلَ الإسـلامَ، قال تعـالى: ﴿ لا إِكْـرَاهَ فِي الدِّيـن قَـدْ تَبَـيَّنَ الرُّشْـدُ مِـنَ الْغَـيِّ﴾ [البقـرة:256]. فسـكان

ذلـك البلـد مخـيَّرون أن يدخُلـوا الإسـلامَ، أو يبقـوا عـلى معتقداتهـم مـع دفـع الجزيـةِ، وهـو مبلـغٌ مـن المـال يدفعـه غـيرُ المسـلم للبلـد المسـلمِ التـي يعيـشُ فيهـا، مقابـل حمايتـهِ، وتُعطَـى للفقـراء والمسـاكين وذوي الحاجـةِ، وفي المقابـلِ؛ يَدفـعُ المسـلمُ الـزكاةَ، فـلا ظلـم في ذلـك! ويعطيهـم الإسـلامُ حـقَّ ممارسـة شـعائرهم الدينيَّـة والعقائديَّـة، ولهـم مـا للمسـلمين مـن حقـوقٍ وواجبـاتٍ، هـذا هـو التَّطبيـق الحقيقـيُّ للشريعـة الْإِسْـلَامِيّة العادلـةِ،

قـال تعـالى: ﴿ لَّا يَنْهَاكُـمُ اللَّـهُ عَـنِ الَّذِيـنَ لَـمْ يُقَاتِلُوكُـمْ فِي الدِّيـن وَلَـمْ يُخْرِجُوكُـم مِّـن دِيَارِكُـمْ أَن تَبَرُّوهُـمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِـمْ ﴾ [الممتحنـة: 8]، والـشروط واضحـةٌ في الآيـة القرآنيَّـة الكريمةِ:

1- لم يقاتلوكم في الدِّين.

2- لم يخرجوكم من دياركم.

فالـبرُّ والإقسـاط (العـدل) أمـرٌ واجـبٌ عـلى المسـلم لهـم، أمَّـا إن رفـضَ أولئـك القـومُ الإسـلامَ بالسـلمِ؛ فهنا يجـبُ قتالهـم، والهـدفُ هنـا هـو نـشر الإسـلامِ، وهـذا هـو الخـيرُ الـذي يعتقـده النـاس شرًّا، ذلـك أَنَّ الجهـاد في هـذه الحالـة هـو الحـلُّ الوحيـد لتطبيـقِ شريعـة الْخَالِـق في ذلـك المـكانِ، ونـشر الخـيرِ والعـدل بـين سـكانهِ؛ لـكي يتعرَّفـوا إلى الشريعـة الْإِسْـلَامِيّةِ، وديـن اللـه الحـقِّ، فيكـون لهـم الخيـارُ بالدُّخـولِ في الإسـلام مـن عدمـهِ، وبعـد ذلـك لا يكـون لهـم حجّـةٌ أمـام اللـه -عـزَّ وجـلَّ- يـوم الحسـاب. فالجهاد ليـس هدفـه القَتـل والاسـتيلاء عـلى ممتلـكاتِ الآخريـنَ، إنَّمـا هدفُـه نـشر شريعـة الْخَالِـق، وبالتَّـالي الفـوز بخـيرَي الدُّنيـا والآخرة. وهنـاك أمـرٌ مهـمٌّ أيضًـا، وهـو أَنّ اللـه كتـب القتـال عـلى المؤمنـينَ، ليتخـذ منهـم شـهداء، وليعلـم الذيـن جاهـدوا والصابريـنَ، قـال تعـالى: ﴿إِن يَمْسَسْـكُمْ قَـرْحٌ فَقَـدْ مَـسَّ الْقَـوْمَ قَـرْحٌ مِّثْلُـهُ وَتِلْـكَ الْأَيَّـامُ نُدَاوِلُهَـا بَـيْنَ النَّـاسِ وَلِيَعْلَـمَ اللَّـهُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَيَتَّخِـذَ مِنكُـمْ شُـهَدَاءَ وَاللَّـهُ لَا يُحِـبُّ الظَّالِمِـينَ﴾ [آل عمـران: 140].

وقـال تعـالى: ﴿أَمْ حَسِـبْتُمْ أَن تَدْخُلُـواْ ٱلْجَنَّـةَ وَلَـمَّا يَعْلَـمِ ٱللَّـهُ ٱلَّذِيـنَ جَٰهَـدُواْ

مِنكُـمْ وَيَعْلَـمَ ٱلصَّبِرِيـنَ﴾ [آل عمـران: 142].

وقـال تعـالى: ﴿وَلَا تَحْسَـبَنَّ الَّذِيـنَ قُتِلُـوا فِي سَـبِيلِ اللَّـهِ أَمْوَاتًـا بَـلْ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ يُرْزَقُـونَ (169) فَرِحِـينَ بِمَـا آتَاهُـمُ اللَّـهُ مِـنْ فَضْلِـهِ وَيَسْـتَبْشِرُونَ بِالَّذِيـنَ لَـمْ يَلْحَقُـوا بِهِـمْ مِـنْ خَلْفِهِـمْ أَلَّا خَـوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلَا هُـمْ يَحْزَنُـونَ (170) يَسْـتَبْشِرُونَ بِنِعْمَـةٍ مِـنَ اللَّـهِ وَفَضْـلٍ وَأَنَّ اللَّـهَ لَا يُضِيـعُ أَجْـرَ الْمُؤْمِنِـينَ﴾ [آل عمـران: 169-171].

وقـال تعـالى: الآيـة الكريمـة : ﴿ وَقَٰتِلُوهُـمْ حَتَّـىٰ لَا تَكُـونَ فِتْنَـةٌ وَيَكُـونَ ٱلدِّيـنُ كُلُّـهُ لِلَّـهِ فَـإِنِ ٱنتَهَـوْاْ فَـإِنَّ ٱللَّـهَ بِمَـا يَعْمَلُـونَ بَصِـيرٌ﴾ [الأنفـال: 39].

إذاً أمَّـةُ الإسـلام لا تدعُـو إِلَى الإرهـابِ، فهـذا افـتراءٌ؛ إمـا لقلَّـة إدراكٍ وفهـمٍ لهـذا الدِّيـن العظيـمِ، أو بهـدف التَّشـويه مـن الشـيطانِ وأعوانـه مـن الإنـسِ، فالإسـلام لا يدعـو لإراقـة قطـرة دمٍ واحـدةٍ، ولا يفعـل ذلـك إلا مضطـرًّا، إمـا للدِّفـاع عـن الدِّيـنِ، أو لنـشرهِ عـلى وجـه البسِـيطَة.

دعنـي أَضرب لـك مثـالًا بسـيطًا لأُقـرِّبَ لـك فهـمَ الأمـرِ، ولله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى المثل الأعـلى؛ إنَّ الجنـديَّ في الجيـش مطالـبٌ بالطاعـة لقائـدهِ، فيـما يحمـي مصالـحَ الدَّولـة والشَّـعبِ، فلـو خـرج جنـديٌّ عـن اتّبـاع تلـك التعليـمات، ومـن ثـمّ أسَّـس جماعـةً معارضـةً، وقامـوا بالتمـرد عـلى الجيـشِ وقيادتـهِ؛ في هـذه الحـالِ يقـومُ القائـد بمفاوضتهـم للعـودة إِلَى رشـدهم في بـادِئ الأمـرِ؛ لأنهـم يشـكّلون خطـرًا عـلى أنفسـهم وعـلى الآخريـن، وإذا لم ينتهُـوا؛ خـرجَ القائـدُ لقتالهـم حتـى يعـودوا إِلَى رشـدهم، فهـل القتـالُ هنـا إرهـابٌ أَم ضرورةٌ؟! تخيَّـل أن هـذا الجنـديَّ هـو إبليـس، ومَـن أضلّهـم هـم الفئـة المتمـرّدة مـن الجيـشِ، ولـك أن تتأمَّـل؛ مـا هـو ذنـبُ مَـن لم تصلـه رسـالةُ الإسـلامِ بسـبب جنـديٍّ متمـردٍ؟! هـذه هـي فلسـفة الجهـادِ في الإسـلامِ، فالقتـال فيـه خـيرٌ، وليـس بالـشرِّ، لذلـك قـال تعـالى: ﴿ كُتِـبَ عَلَيْكُـمُ الْقِتَـالُ وَهُـوَ كُـرْهٌ لَّكُـمْ وَعَـسَىٰ أَن تَكْرَهُـوا شَـيْئًا وَهُـوَ خَـيْرٌ لَّكُـمْ وَعَـسَىٰ أَن تُحِبُّـوا شَـيْئًا وَهُـوَ شَرٌّ لَّكُـمْ وَاللَّـهُ يَعْلَـمُ وَأَنتُـمْ لَا تَعْلَمُـونَ ﴾ [البقـرة: 216].

هـذا مـا اسـتطعتُ الاجتهـادَ فيـهِ، والله يعلـمُ، ونحـن لا نعلمُ، فهـو العليـم الخبيرُ،

والآن دعنا نتحدَّث عن أمرٍ بالِغ الأهميَّة، ألا وهو (**الجنة والنار**).

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الجنة والنار هما تمثيلٌ لقمَّة العدل الإلهيِّ، فكما ذكرتَ في استنتاجاتك الفَلْسَفِيّة أنَّ العقاب في باطنه الخير، ذلك أن ربَّ الخير لا يأتي إلا بخيرٍ؛ فهذا العقاُب جزاءٌ على إتيان الشرورِ، وتحذيرٌ منها، و**تغليظُ العقاب** بالنار يدلُّ بما لا يدع شكًّا عَلى رحمة الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بعبادهِ، وسأضرب لك مثالًا بسيطًا جدًّا، ولله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المثل الأعلى؛ لماذَا وُضع قانونُ فرض الغرامات والمخالفات على تجاوز الإشارة الحمراء؟

- وُضع لكي يردعَ الْإِنْسَان عن تجاوز الإشارةِ؛ لما في ذلكَ من خطرٍ على حياتهِ، وعلى حياة النَّاسِ من حوله.

- جميلٌ! إذَن هو عقابٌ هدفه الخيرُ.

- نعم، بالتَّأكيد!

- إذَن ماذا لو كَانت الغرامة مبلغًا زهيدًا! لنفرض أنّها دينار واحدٌ، هل ستكون تلك الغرامة رادعةً؟

- بالتَّأكيد لا.

- ماذا لو كانت الغرامة مبلغًا كبيرًا، لنفرض أنها ثلاثة آلاف دينار، مع سجن لمدة سنةٍ، وسحب رخص القيادة؟

- بالتَّأكيد لن يتجرَّأ أحد على تجاوز الإشارة الحمراء!

- فَما بالك إذا كانت تلك العقوبة المغلّظةُ لمن يتجاوز الإشارةَ، ومن ناحيةٍ أخرى أَن تمنحَ حكومةُ ذلك البلد مبلغَ عشرة ملايين دينارٍ مُكافَأةً لمن يلتزمُ بعدم تجاوزِ الإشارة الحمراء لِعشر سنواتٍ!

- أجزمُ في هذه الحال أنَّه لا يوجدُ صاحبُ عقلٍ سليمٍ وحريَّة اختيارٍ سوفَ يتجاوز الإشارة الحمراءَ، فهذا الجنونُ بعينه!

- وبماذا تصفُ حكومةَ ذلك البلد من جهةٍ، والشَّخص الملتزم، والشّخصَ المتجاوز لذلك القانون من جهةٍ أُخرى؟

- حكومةٌ عادلةٌ وحكيمةٌ، وتوجِّه الناس بحكمة بالغةٍ إِلى فعل الخيرِ، وحفظ حياتِهم وحياة الآخرين من المخاطر! وأعتقدُ أن هذا وصفٌ بسيطٌ جدًّا، ولا يعطيها حقَّها على الإطلاق! أمَّا الذي يلتزم ذلك القانونَ فَيكون حكيمًا عاقلًا بمصلحته ومصلحةِ مجتمعه، والذي يتجاوَزُه يكون جاهلًا ضالًّا خطرًا على نفسه ومجتمعِه، ويستحقُّ أَقسى العقوبات!

إِذن؛ ما بالك بالجنَّة كثوابٍ لفعلك الخير، والنَّار كعقابٍ على إتيان الشُّرور؟! قال تعالى : ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 147].

قال تعالى : ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزُمَر: 16].

صديقي نور، إنَّ القرآن الكريم هو كلامُ الْخَالِق المنزَّل على رسوله محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، وهو المصدرُ الوحيد الذي يخبرك عمَّا كانَ، وعمَّا هو كائنٌ، وما سيكونُ، أي أصل الخلقِ، والغاية منهُ، والتَّشريعات المسيّرة له بشكلٍ كاملٍ، من جميع النواحي الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والأخلاقيَّة والشَّعائر الدينيَّة من العباداتِ التي تنظِّم علاقة المخلوق بخالقهِ، وهو المصدر الوحيدُ الذي يخبر عن مصيرِ الْإِنْسَان بعد الموتِ، وذلك كلُّه إِلَى جانب السُّنَّة النبويَّة الشَّريفةِ.

- اسمحْ لي بمقاطعتك هنا يا آدم؛ لسؤالِك عن مسألة السُّنة النبويَّة، فمن خلال بعض الحوارات التلفازيَّةِ، ووسائل التواصل الاجتماعيِّ، لاحظتُ هجومًا شرسًا على السُّنة النبويةِ، فشاهدتُ كثيرًا من الأشخاصِ يطعنون في رُواتها، ومَن قاموا بتدوينها، على سبيل الذكر لا الحصر أبو هريرة رضي الله عنهُ، والإمام البخاريُّ رحمه الله تعالى.

- نعم يا نور، هذا صحيحٌ، هذا الهجوم الضالُّ على السنَّة النبويَّة الشريفة جاء

بسبب جلوس جُهَّالٍ على منابر للحقِّ، هدفُهم تشويهُ السنة النبويَّة الشريفةِ، مُتَّبعين بذلك خطوات الإضلالِ الشيطانيةِ، قال تعالى في سورة سبأ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 20].

و قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:59].

وإليك ما نثرتُه في هذه المسألةِ، لعله يحوي إجابةً لتساؤلك.

حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على العمل.

قرآنٌ أُحكِمت آياتُهُ تبيانًا لكلّ شيء، بدرٌ في كَبِدْ السماء قد اكتمل.

أنزله الحق على قلبِ رسولهِ

بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، تخشعُ له القلوب وتدمع من حُسنِه المقَل.

رحمةً بعِبادِهِ، مُتعهدًا بحفظِه من التَّحريف والتبديل والعلل.

ليقطع به كلَّ خلافٍ، ومرجعية حقٍّ تُنهي كلَّ جدل.

بِيَدْيْ صحابيٍّ وتابعيٍّ وسلفيٍّ بتواتر.

حملوا أمانةً ضَاقت عن حَمْلِهَا السماءُ والأرض والجبل.

جمعوا القرآنَ وفسَّروه وبيَّنوه على علمٍ، فهنيئًا لمن حفظ القرآنَ بقلمِه ونقل.

وطاعةٌ لرسوله واجبةٌ!

فكيف لنا من طاعةٍ دون ما نقلوه مما انقطَع واتَّصل.

حيّ على الصلاةِ، حيّ على الفلاحِ، حيّ على العمل.

وهذا زمانُنا تركنا الإرث وراء ظهورنا، وشُتِّت المسلمون بين المِلل.

هَجَرنا سنَّةً شريفةً بداعٍ حدَّثنا وأخبرنا وآخرَ قد نقل.

لِنَهدِم ما بنوا لنا من صروحٍ، وكان خيرًا أَن نشيِّد ما بين يدينا قد وصل.

سَـمعُنا وأبصارنـا وأفئدتنـا شُـغِلت بالنقـد والتَّشـويهِ، وتركـت تفنيـد مـا صحَّ مـما قـد بطَـل.

فحيّ على الصلاةِ، حيّ على الفلاحِ، حيّ على العمل .

الاقلامُ مِنْ الهجرِ مُتجهِّمون

شُغلنا بِمَنْ! ونسينا كيف ولماذا وهل بالقرآن اتّصل المُتكلمون؟

فألقي الإرث في غيابات جبٍّ مظلم.

ولويت أَعناق آياتٍ لِتصادق علمًا مُجرِمْ.

وهُجرت سنَّة نبيّنا القائد المُعلم.

ولغةٌ تلونت معانيها بلون لسانِ المتكلّم.

لعلم زُخرفت كلماتهُ ما اتَّبع إلا الظنَّ في فضاءٍ واسعٍ متمتم.

فاتَّبعنا ملحدًا ومضللًا وكافرًا و «عجباً» !

فخشية الله قرينةُ العلم وشريعة كلّ عالمٍ ومتعَّلِم.

هذا حالنا، أمسى جاهلُنا في الدينِ عالماً متقدّم !

يقدَحُ ويُكذّبُ مَن عاش في زمن المُتمم.

وتصادق أختامُهُ بالقرآن على ما جاء به كلّ ملحدٍ متزنّم.

بنيان علمه افترض واعتقد وتخيَّل بأرقامٍ بها متوهِّم.

حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاحِ، حيّ على التوحيد.

حيّ على حفظ القرآنِ والسُّنة من علمانيَّة التجديد.

حيّ على حفظ أمةٍ من يد كلِّ كافرٍ ملحدٍ جبارٍ عنيد.

حيّ على عقلٍ وأقلامٍ تحاربُ كلَّ شيطان مريد.

حيّ على الصلاةِ، حيّ على الفلاحِ، حيّ على العمل ...

حيّ على جهادِ أولياءِ شيطانٍ سَعيُهم صَبغُ الحقِّ بما بطَل...

«عليك الصلاة والسلام يا رسول الله ...»

_ أتعلـم يـا آدم ؟ عندمـا بدأنـا حَديثَنـا عـن رسـول اللـه محمـد _صـلى اللـه عليـه وسـلم _ ، لَمـعَ في ذهنـي قـولٌ مآثـور عـن رسـول اللـه _صـلى اللـه عليـه وسـلم _ للكاتـب و الفيلسـوف (تولسـتوي).

_ أَصـدر الكاتـب و الفيلسـوف (تولسـتوي)[1] كتـاب «حُكـمُ النبـيِّ مُحَمَّـد» _صـلى اللـه عليـه وسـلم _ في عـام 1910 دفاعًـا عـن الحـق في مواجهـة التزويـر والتلفيـق اللذيـن لَحِقَـا بالديـن الإسـلاميِّ والنبـي محمـد - صـلَّى اللـه عليـه وسـلَّم - عـلى يـد جمعيـات المبشِّريـن في «قـازان»، والذيـن صـوَّروا الديـن الإسـلاميَّ عـلى غـير حقيقتـه، وألصقـوا بـه مـا ليـس فيـه. فقـدَّم تولسـتوي الحُجَّـة وأقـام البرهـان عـلى المدَّعـين عندمـا اختـار مجموعـة مـن أحاديـث النبـي- عليـه الصـلاة والسـلام-، وقـام بإيرادهـا بعـد مقدِّمـة جليلـة الشـأن واضحـة المقصـد قـال فيهـا إنَّ تعاليـم صاحـب الشريعـة الإسـلاميَّة هي حِكـمٌ عاليـة ومواعظ سـامية تقـود الإنسـان إلى سـواء السـبيل، ولا تقـلُّ في شيء عـن تعاليـم الديانـة المسـيحيَّة، وإنَّ محمـدًا هـو مؤسِّـس الديانـة الإسـلاميَّة ورسـولها.

---

(1) الكونـت ليـف نيكولايافيتـش تولسـتوي (9 سـبتمبر -1828 20 نوفمـبر 1910) مـن عمالقـة الروائيـين الـروس ومصلـح اجتماعـي وداعيـة سـلام ومفكـر أخلاقـي وعضـو مؤثـر في أسرة تولسـتوي. يعـد مـن أعمـدة الأدب الـروسي في القـرن التاسـع عـشر والبعـض يعـده مـن أعظـم الروائيـين عـلى الإطـلاق.

كتاب حُكمُ النبيِّ مُحَمَّد _صلى الله عليه وسلم _

الفيلسوف تولستوي : ترجمة سليم قبعين :الطبعة الثانية ، ١٩١٥ الطبعة الثالثة ، ٩٨٧

مصرية للنشر والتوزيع .

وقـال مترجـم الكتـاب للغـة العربيـة «سـليم قبعـين» في مقدمـة الكتـاب «هـذه أقـوال كاتـب مسـيحي مُنصِـف نَشرهـا بـين قومِـه لإطلاعهِـم عـلى جَوهـر الديـن الإسـلامي و مـا فيـه مـن الحقائـق الباهـرة ، وهـي حريـة بإعتبـار صُدورِهـا مِـنْ كاتـب فاضِـل يقـول الحـق ولا غرابـة ، فرِجـال الفَضـل المُنصِفـون وُجِـدوا في الدُنيـا لتقريـر الحقائِـق و دفـع التُهَـم و إرشـاد النـاس الى الحقيقـة الناصِعـة التـي لَبِثـوا أعوامـاً طـوالاً وهـم في ريبـةٍ منهـا لِـما قـرأوه عنهـا مِـنْ الإختلافـاتِ ، التـي بثَّهـا في نُفوسِـهم بعـضُ الكُتَّـاب الَّذيـن يُجَـرُّونَ وراءَ تيَّـارِ الأهـواء ويُخالِفـونَ ضَمائِرَهُـم لإرضـاء فريـق مـن النـاس ، وهِـيَ خِلَّـة ذميمـة في الكُتَّـاب الَّذيـنَ هـم مصابيـحُ الأزمِنـة و الواجِـبُ عليهِـم تَبديـدُ غياهِـب الجهـل و إنـارة الأفـكار بِنـبراس الحقيقـة ، فـإذا سـارَ العُلـماءُ والكُتَّـاب عـلى خُطـى هـذا الكاتِـب الـروسي أعـادوا للعـالمَ فوائِـدَ لا يُقدِّرُهـا إلَّا كلُّ ذي شـعور حـي يتـألمَ لِتنابـذِ النـاسِ و تباغُضهـم .

وسـأقتبس لـك بعضـا مـما قـال تولسـتوي في كتابـه : « إنَّ مُحمَّـداً نَبـيَّ الإسـلام الـذي يديـن بـه الآن أكـثر مِـنْ مائتـي مليـون نفـس (هـذا العـدد وقـت تدويـن الكتـاب) ، قـد قـامَ بِعمـلٍ عظيـم جـداً ، فإنَّـه هَـدى الوثنيـين الَّذيـن قَضـوا حياتَهُـم بالحـروب الأهليَّـة و سـفكِ الدِمـاء و تقديـم الضحايـا البشريـة إلى مَعرِفـة الإلـه الواحـد ، و أنـارَ أبصارهُـم بِنـور الإيمـان و أعلَـنَ أن جميـعَ النَّـاس مُتسـاوون أمـام اللـه سُـبحانهُ و تعـالى والحـقُّ الَّـذي لا مِـراءَ فيـه أن النبـي مُحَمَّـداً قـام بِعمـلٍ عظيـم و انقـلابٍ كبـير في العـالمَ ، و مَـنْ أراد أن يتحقَّـق مـا هُـوَ عَليـه الديـن الإسـلامي عَليـه أن يُطالِـعَ القـرآن الكَريـم بإمعـان و إذْ ذاك يُصـدِرُ حُكـماً مَبنيَّـاً عـلى الحقائِـق الباهِـرة الَّتـي يتضمنُّهـا ، و قـد جـاءت فيـه آيـات كريمـة تَـدُلُ عـلى روح الديـن الإسـلامي السـامية فمنهـا الآيـة الكريمـة في قولِـه تعـالى:

﴿ وَاعْتَصِمُـوا بِحَبْـلِ اللَّـهِ جَمِيعًـا وَلَا تَفَرَّقُـوا وَاذْكُـرُوا نِعْمَـتَ اللَّـهِ عَلَيْكُـمْ إِذْ كُنتُـمْ أَعْـدَاءً فَأَلَّـفَ بَـيْنَ قُلُوبِكُـمْ فَأَصْبَحْتُـم بِنِعْمَتِـهِ إِخْوَانًـا وَكُنتُـمْ عَـلَىٰ شَـفَا حُفْـرَةٍ مِّـنَ النَّـارِ فَأَنقَذَكُـم مِّنْهَـا كَذَٰلِـكَ يُبَـيِّنُ اللَّـهُ لَكُـمْ آيَاتِـهِ لَعَلَّكُـمْ تَهْتَـدُونَ ﴾ [آل عمـران : 103]

«عليك الصلاة والسلام يا رسول الله»

_ مـن الجيِّـد أن تجـد فيلسـوفا غَربيًّـا يقـولُ الحـق ! هـذا أمـرٌ مثـيرٌ للإهتـمام ، وقـد زاد قولـه الجـمالَ جـمالاً ...

خلاصـة الحديـثِ يـا نـور؛ أنَّ علـم الفَلْسَـفَة الحقيقـيّ هـو فـرعٌ مـن فـروع علـم التَّفَكُّـر، الـذي ذكـر في القـرآن الكريـم منـذ 1400 عـامٍ مضـت، أمّـا مـا يسـمى بعلم الفَلْسَـفَة الـذي لا يعـترفُ بأخبـار الغيـبِ، فهـو علـمٌ لا يتعـدَّى حـدود الهرطقـةِ، ويطلـق عليهـا أيضًا الزندقـة، وهـيَ تغيـيرٌ في عقيـدةٍ، أو منظومـة معتقـداتٍ مسـتقرة، وخاصَّة الديـن، بإدخـال معتقـدات جديـدةٍ عليهَـا، أو إنـكار أجـزاء أساسـيَّة منهـا.

ودعنـي أختـصرْ لـك فلسـفة الحيـاةِ كاملـةً في سـورةٍ كريمـةٍ مـن قصـار سُـور القـرآن الكريـمِ، إنَّهـا سـورة العـصِر، وعـددُ آياتهـا ثـلاث! قـال تعـالى: ﴿**وَالْعَـصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَفِـي خُـسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ وَتَوَاصَـوْا بِالْحَـقِّ وَتَوَاصَـوْا بِالصَّـبْرِ (3)**﴾ [العـصر: 1-3].

الخاتِمة

هذا بيانٌ لكُلّ عُبَّاد فلاسفة الغرب ممن ضَلُّوا السبيل واتبعوا الهوى «أصنام القرن العشرين والواحد والعشرين من الميلاد» ولكلّ من يتجرَّأ على القول بأن القرآن الكريم كتابٌ عفا عليه الزمان !

ولكلّ من نسِيَ حجم النُطفة التي خُلِق منها فتطاول بجهلهِ على خالقه، «**استيقظ قبل فوات الأوان**» كُفرُك أو إيمانُك به _ جلَّ و علا _ لن يَزيد ولن يُنقِص من مُلك الله عزَّ وجل شيئاً ،

عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فِيما رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أنَّهُ قالَ: يا عِبَادِي، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ علَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا، يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَن هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلَّا مَن أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَن كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عِبَادِي، إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبَادِي، إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يا عِبَادِي، لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا علَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ؛ ما زَادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي، لوْ أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا علَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ ما نَقَصَ ذلكَ مِن مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي، لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ ما نَقَصَ ذلكَ ممَّا عِندِي إلَّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبَادِي، إنَّما هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فمَن وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ. وفي روايةٍ: إنِّي حَرَّمْتُ علَى نَفْسِي الظُّلْمَ وعلَى عِبَادِي، فلا تَظَالَمُوا.[1]

قال تعالى : ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (15)﴾ [الإسراء].

(1) الراوي : أبو ذر الغفاري | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم
الصفحة أو الرقم: 2577 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

وللمهووسـين مـن شـباب المسـلمين بتلـك الهرطقـات ، اسـتيقظوا فقـد أنعـم اللـه عليكـم واختصكـم بالإسـلام ، انتـم ولدتُـم متميزيـن فـلا تُلقـوا بهـذا الإمتيـاز في بحـر الظُلـمات لتَضِلـوا وتُضِلـوا !

واحذروا أن تكونوا مِمَّن قال الله تعالى عنهم في سورة الأحزاب :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (64) خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (65) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ (66) وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ (67) رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (68) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا (69) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71) إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72) لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(73) ﴾ [الأحـزاب :64-73].

ولا تكونـــوا ممَّن اتخـــذوا القـــرآن العظيم مهجـــوراً ، قـــال الله تعالى في ســــــورة الفرقـــان:
﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا (25) ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا(27) يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا (29) وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا (30)﴾ [الفرقان :25-30].

تدبَّـروا القـرآنَ الكريـمَ، واسـتخلصوا كنـوزَه؛ لِتَنعـم البشريـةُ بعـدلِ الخالـقِ، ونـور الإسـلام، الكنـوز لا تظهـرُ إلَّا لمـن يَحْفُـر للوصـولِ إليهـا، فالهِمَّـةُ الهِمَّـة، والعمـلُ العمـل؛ لإنقـاذِ أنفُسِـنا وأهلينـا مـن نـارٍ وَقودُهـا النـاسُ والحجـارة أُعِـدَّت للكافريـن.

فلنُشـمِّر عـن سـواعدِنا، ولنكُـن عنـاصرَ فاعلـةً في نشـأةِ عـصرِ النَّهضـة الإسـلاميَّةِ؛ نهضـةُ تصحيـح المُعتقـداتِ والمفاهيـمِ.

ولـديَّ حُلـمٌ أرجـو مـن اللـه - القاهـر فـوق عِبـاده- أن يجعلـه واقعـاً، هـو رؤيـة

السـؤال التـالي في منهـاج (عِلـم التَفَكُّـر و التَدَبُّـر) لطـلاب المـدارس الإسـلامية:

- في ظـل النظريـة (الوظيفيزيائيـة)؛ أثبـت فلسـفياً أنَّ إنـكار الغيـب يُعتَـبَرُ اختـلالاً عقليـاً .

و أن أرى في مدارسـنا الإسـلامية ، نموذجـاً يوضِّـحُ تشريـح النفـس البشريـة إلى جانـب نمـوذج تشريـح الجَسَـد البـشري .

فلنُشـمِّر عـن سـواعدنا و لنكُـن عنـاصر فاعلـة في نشـأةِ عـصر النهضـة الإسـلامية «**نهضـةُ تصحيـح المُعتقـدات و المفاهيـم**».

وأختِـم قـولي - كـما بـدأت - بأحسـن القـول ، قـول اللـه تعـالى : ﴿الْيَـوْمَ أَكْمَلْـتُ لَكُـمْ دِينَكُـمْ وَأَتْمَمْـتُ عَلَيْكُـمْ نِعْمَتِـي وَرَضِيـتُ لَكُـمُ الْإِسْـلَامَ دِينًـا ﴾ [المائـدة:3]

وقوله جلِّ وعلا في آخر آية أُنزِلت على الحبيب المصطفى رسول الله مُحمَّد_ صلى الله عليه وسلَّم :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(281) ﴾

[البقرة]

... تم بحمد الله ...

المؤلف

د. أنور سعيد القبالي

التدقيق اللغوي

أ. أمل أبو عاصي اليازجي

المراجع

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط1، 1422هـ.

- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت279هـ) شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط2، 1395 هـ - 1975 م.

- السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت458هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط3، 1424هـ - 2003م.

- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت458هـ) حققه وراجع نصوصه د. عبد العلي عبد الحميد حامد أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط1، 1423هـ - 2003 م.

- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت405هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1411ه – 1990م.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت241هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل

مرشــد، وآخــرون إشراف: د عبــد اللــه بــن عبــد المحســن الــتركي، مؤسســة الرســالة، ط1، 1421 هــ - 2001 م.

- المســند الصحيــح المختــصر بنقــل العــدل عــن العــدل إلى رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وســلم (صحيــح مســلم)، مســلم بــن الحجــاج أبــو الحســن القشــيري النيســابوري (ت261هــ) تحقيــق: محمــد فــؤاد عبــد الباقــي، دار إحيــاء الــتراث العــربي – بــيروت.

- المعجــم الأوســط، ســليمان بــن أحمــد بــن أيــوب بــن مطــير اللخمــي الشــامي، أبــو القاســم الطــبراني (ت360هــ) تحقيــق: طــارق بــن عــوض الله بــن محمد، عبــد المحســن بــن إبراهيــم الحســيني، دار الحرمــين – القاهــرة.

- كتاب حُكمُ النبيِّ مُحَمَّد

الفيلسـوف تولسـتوي : ترجمـة سـليم قبعـين :الطبعـة الثانيـة ، ١٩١٥ الطبعـة الثالثـة ، ٩٨٧ مصريـة للنـشر والتوزيـع .

- تفسير الطبري.

- التعريف بالإسلام.

الحمد لله، والصّلاة والسّلام على رسول الله.

أمّا بعدُ؛ إنّ هذا الكتاب يُعتَبرُ ثورة حقيقية في علم الفلسفة الحديث، فقد استطاع الكاتبُ الدّكتور أنور القبالي الغوصَ في أعماق الإنْسَان، متجاوزًا الجزءَ الماديّ منه، ليصلَ إلى النّفس البَشَريّة، ويَضعَها تحت مجهر التّفكُر الإسْلاميّ؛ ليكشف للقارئ حواسَّها، وأعضاءَها، وأجهزتَها المسؤولة عن عمليّة البناء المعرفيّ لدى الإنْسَان، مبيّنًا أجزاء القَلْب النّفْسيّ، المتمثّلة باللبّ والهوى، والدور المحوريّ للقلب النّفْسيّ في عمليتيّ السمع والإبصار، واتخاذ القرارات النهائية من خلال حريّة الاختيار المتمثّلة بالإرادة الإنْسانيّة.

واستطاع بدقّة متناهية، وبأسلوب فَلْسَفيّ مميز تحديدَ الفروق الجوهريّة، ما بين الوَعْي والإدراك والفهم والتّفْكير، وتمكّنَ من كشف الستار عن دور العقل، وماهيته، ومكان وجوده في الإنْسَان.

ولم يكتف بذلك، بل تمكّن من الوصول بالبراهين العَقْليّة، وبتسلسل منطقيّ مدهش إلى دور الغيب الأساسي في عمليّة البناء المعرفيّ، والذي أوصلَه إلى استنتاج وإثبات وجود الخَالق وصفاته عقليًا، والتي كانت بدورها مفتاحَ الوصول إلى المصدر الغيبيّ الصحيح، الذي يجيب الإنْسَان عن جميع تساؤلاته الفَلْسَفيّة، عمّا كانَ، وما هو كائنٌ، وما سيكون.

هذا الكتابُ يُثبت لك عقليًا وفَلْسَفيًا أنّك خُلقت لهدف عظيم، ويمدُّ لك حبلًا للخروج من بئر الظلمات الفَلْسَفيّة الماديّة والوجوديّة والعدميّة والعبثيّة، إلى نور التّفكُر الإسْلاميّ، من خلال تدبُر آيات الكتاب الأعظم على وجه الأرض؛ وهُو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].





٢٠٢٢